الفصل الأول

الخلاف حول الإمامة وأثره في ظهور الفرق

تمهيد :

جاء الإسلام يدعو أول ما يدعو بعد توحيد الألوهية ، وضرورة الالتزام بالشريعة ، إلى الوحدة بين أتباعه وإلى التآلف ، وينهي عن الفرقة والاختلاف بين المسلمين . وقد أكدت آيات القرآن الكريم الدعوة إلى التمسك بحبل الله المتين ، وعدم التنازع والاختلاف ، كما ورد في قوله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾[1] ، وكقوله تعالى ﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾[2] ، ومثل قوله تعالى ﴿ إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنّما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون ﴾[3] ، وقوله تعالى ﴿ ولا تكونوا من المشركين ، من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً ﴾[4] ، وورد العديد من الأحاديث تنهي عن الفرقة والاختلاف . فقد روى الدارمي بإسناد صحيح[5] ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خط لنا

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٣ .

(٢) سورة الأنفال : آية ٤٦ .

(٣) سورة الأنعام : آية ١٥٩ .

(٤) سورة الروم : آية ٣٢/٣١ .

(٥) سنن الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن بهرام الدارمي) ، ج ١ ، ص : ٦٨/٦٧ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً خطاً ثم قال : هـذا سبيل الله ، ثـم خـط خطوطاً عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل على كل سـبيل منهـا شـيطان يدعو إليه ، ثم تلا ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفـرق بكم عن سبيله ﴾[1] ، وقال عليه الصلاة والسـلام : « لا تـرجعوا بعـدي كفـاراً يضرب بعضكم رقاب بعض »[2] .

وقد كان نهى الله تعالى في القرآن عن الفـرقة ، وذمُّ الـرسول صـلوات الله وسلامه عليه للجدال ، رادعاً قوياً للمسلمين عن الاختلاف والفـرقة ، لا سـيما في مسائل الاعتقاد ، وقد استقامت حياة المسلمين على عهد رسـول الله صلى الله عليه وسلم ، بعيدة عن الاختلاف والتنازع ، إذ أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كان المرجع الأساسي للمسلمين في كل صغيرة وكبيرة : إليه ترفع الخلافات وترد الأمور ، فيرشد من يضل ، ويرد إلى الصواب من تشتبه عليه الحقائق . لذا لم نجد خلافاً بين المسلمين على عهد النبـي عليه الصلاة والسـلام ، وإذا وجـد لم يلبث أن يزول وينتهي بخضوع الجميع لأمره وفقـاً لقـوله تعـالى ﴿ ومـا كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهـم الخيـرة مـن أمـرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالا مبيناً ﴾[3] .

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) رواه البخاري عن عبد الله بن عمر في كتاب الفتن باب « قول النبـي صلى الله عليه وسلم : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » صـحيح البخـاري ، المكتبـة الإسـلامية استانبول ١٩٧٩ م ، ٨ أجزاء ، جـ ٨ ، ص : ٩٠ ــ ٩١ ، كما رواه مسلم عن ابن عمر أيضـاً في كتاب الإيمان ، باب « بيان معنى قول النبـي صلى الله عليه وسلم : لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » ، انظر الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم (أبـي الحسـين مسلم بن الحـجاج) ، ٨ مجلدات ، دار المعـرفة ــ بيـروت ، جـ ١ ، ص : ٥٨ . ورواه ابـن ماجة عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه في باب « لا ترجعوا بعـدي كفـاراً يضرب بعضـكم رقاب بعض » . سـنـن ابن ماجه ، جـ ٢ ، ص : ١٣٠٠ ، حديث رقم : ٣٩٤٢ ــ ٣٩٤٣ .

(٣) سورة الأحزاب : آية ٣٦ .

وظل الحال كذلك حتى وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبعد وفاته نشب الخلاف حول الخلافة ، ولم يلبث أن نمى حتى أصبح مذاهب وأحزاباً . وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع هذا الاختلاف وذلك في حديث مشهور روي بعدة روايات يعضد بعضها بعضاً ، تحذر المسلمين من هذا الخلاف . منها ما رواه أبو داود في سننه من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه قام فقال : ألا إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فينا فقال : « ألا إن من كان قبلكم من أهل الكتاب افترقوا على ثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الملة ستفترق على ثلاث وسبعين ، ثنتان وسبعون في النار وواحدة في الجنة وهي الجماعة ، وأنه سيخرج من أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلَبُ بصاحبه لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله »[1] .

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليأتين على أُمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية ليكونن في أمتي من يصنع ذلك ، وأن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا ملة واحدة ، قالوا من هي يا رسول الله ، قال : ما أنا عليه وأصحابي »[2] .

---

(١) انظر سنن أبي داود ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج ٤ ، ص : ٢٧٦ ــ ٢٧٧ . رقم الحديث ٤٥٩٧ ، كتاب السنَّة باب « شرح السنَّة » . والكَلَبُ داء يأخذ الإنسان من عضة الكلب المسعور .

(٢) انظر سنن الترمذي ، تحقيق إبراهيم عطية عوض ، حديث رقم ٢٦٤١ في الإيمان ، باب « ما جاء في افتراق هذه الأمة » ، وفي سنده عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف . ولكن يشهد له معنى حديث معاوية بن أبي سفيان الذي تقدم من رواية أبي داود . وحديث أبي هريرة عند الترمذي حديث رقم ٢٦٤٠ : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » . فالحديث بهما حسن ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه . انظر سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص : ٢٥ / ٢٦ .

ورغم أن بعض مؤرخي الفرق الإسلامية كابن حزم قد تحرر من أن يحصر نفسه في العدد المذكور في الحديث ، وأشار إلى خمس فرق فقط : أهل السنة ، والمعتزلة ، والمرجئة والشيعة والخوارج[1] ، فإن معظمهم وقع تحت تأثير العدد المشار إليه في الأحاديث ، واعتبره غاية يجب الوصول إليها ، علماً بأن الأحاديث لم تحدد الزمان الذي ستظهر فيه هذه الفرق ، ولم تحصر ظهورها جميعاً في فترة زمنية محدودة . فالشهرستاني مثلاً يقول : «كبار الفرق الإسلامية أربع : القدرية ، الصفاتية ، الخوارج والشيعة ، ويردف ذلك بقوله : ثم يتركب بعضها مع بعض ويتشعب عن كل فرقة أصناف فتصل إلى ثلاث وسبعين فرقة[2]» . وقد أدى هذا إلى وقوع هؤلاء المؤرخين في تناقض واضح واختلاف في أسماء الفرق وعددها ومن تنسب إليهم أو ينتسبون إليها ، وللإجابة على السؤال عن هوية هذه الفرق ، يقول ابن الجوزي « إنَّا نعرف الافتراق وأصول الفرق ، وأن كل طائفة من الفرق قد انقسمت إلى فرق وإن لم نحط بأسماء تلك الفرق ومذاهبها . وقد ظهر لنا من أصول الفرق : الحرورية ، والقدرية ، والجهمية ، والمرجئة والرافضة والجبرية . وقد قال بعض أهل العلم : أصل الفِرق الضالة هذه الفرق الست ، وقد انقسمت كل فرقة منها على اثنتي عشرة فرقة فصارت اثنتين وسبعين فرقة »[3] .

وقد حقق الشاطبي هذه القضية وعقد فصلاً من كتابه الاعتصام ، في تعيين هذه الفِرق ، وأورد عن الطرطوشي[4] ، قوله : إن هذه المسألة طاشت فيها أحلام

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (ابن حزم) مكتبة المثنى ، بغداد ، جـ ٢ ، ص ١١١ .

(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) ، تحقيق محمد سيد كيلاني ، دار المعرفة ببيروت ١٤٠٢ هـ ــ ١٩٨٢ م ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(٣) تلبيس إبليس (ابن الجوزي) دار الكتب العلمية بيروت ، ص ١٩ .

(٤) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي . ولد بطرطوشة آخر بلاد الأندلس سنة ٤٥١ هـ ، ورحل إلى الشرق وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٠ بعد أن حج وذهب إلى بغداد . من مؤلفاته : ١) تعليقة في مسائل

الخلق ، فكثير ممن تقدم وتأخر من العلماء عينوها ولكن في الطوائف التي خالفت في مسائل العقائد ، وبعد أن ذكر الطرطوشي أن أصول الفرق ثمانية وأنها تتشعب إلى اثنتين وسبعين قال : « وهذا التعديد بحسب ما أعطته المنة من تكلف المطابقة للحديث الصحيح لا على القطع بأنه المراد ، إذ ليس على ذلك دليل شرعي ، ولا دل العقل أيضاً على انحصار ما ذكر في تلك العدة من غير زيادة ولا نقصان ، كما أنه لا دليل على اختصاص تلك البدع بالعقائد »[1] .

وبعد أن يورد الشاطبي هذا ، ينتهي إلى عدم تعيين هذه الفرق اللهم إلا ممن نبه الشرع على تعيينهم كالخوارج ، أو دعت الفرقة إلى ضلالتها وحاولت تزيين بدعتها للعوام ومن لا علم عنده ، فمثل هؤلاء لا بد من ذكرهم ، وبيان ضلالهم ، وأنهم من الفِرق الهالكة[2] .

كما أن من ينظر في كتب الفِرق هذه ويرى كثرتها ، قد يخيل إليه أن هذه الأمة قد تمزقت أشلاءً وأحزاباً ، وأنَّ الاختلاف بين أفرادها وجماعاتها قد بلغ الغاية ، وهذا بالطبع غير صحيح ، بل لا يتفق والواقع الذي عاشته هذه الأمة ، الأمر الذي يشير إلى أن تلك الاختلافات ، مهما عظمت ، لم تكن أكثر من آراء لجماعات صغيرة لم يتعد أثرها في أكثر الأحيان دوائر ضيِّقة ومحدودة . أما المجتمع الإسلامي العريض فقد ظل متماسكاً ، وظلت الجماعة المسلمة ملتفة

الخلاف وفي أصول الفقه . ٢) كتاب في البدع والمحدثات . ٣) كتاب في بر الوالدين . ٤) كتاب سراج الهدى . ٥) كتاب الفتن . انظر الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب (ابن فرحون المالكي) ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ ــ ٢٤٨ . الغنية ، فهرست شيوخ القاضي عياض (القاضي عياض) ، ص ٦٢ ــ ٦٤ . أصول الفقه وتاريخ رجاله (د . شعبان محمد إسماعيل) ، دار المريخ للنشر ، الرياض ، ط . أولى ١٤٠١ هـ ــ ١٩٨١ م .

(١) الاعتصام (أبي إسحاق الشاطبي) ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٠٦ / ٢٣٠ .

(٢) نفس المصدر : ٢٢٦ / ٢٢٩ ، الموافقات (الشاطبي) ، المكتبة التجارية ، ج ٤ ، ص ١٧٧ / ١٨٩ .

حول كتاب ربها وسنة نبيِّها ، وحملت تلك الجماعة ما تضمنه الكتاب والسنة من مبادئ وقيم ، وانتشرت بها في أرجاء الأرض . واستطاعت في أقل من قرن من الزمان ، أن تخرج كثيراً من الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، وأن تقيم حضارة كان لها ، ولا يزال ، الأثر الكبير في مسار البشرية وتاريخ الإنسانية .

ومهما يكن من أمر ، فقد ظهرت بعض الفرق العقائدية في دائرة الجماعة المسلمة كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة والجبرية والقدرية والاشاعرة . . . إلخ ، وقد كانت القضية الأولى ، التي تشعبت حولها آراء الفرق ونبت حولها الخلاف ، قضية الإمامة ، أو الخلافة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تدبير شئون المسلمين . ويصور لنا الأشعري هذا فيقول : « وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيِّهم صلى الله عليه وسلم اختلافهم في الإمامة ، وذلك أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قبضه الله عز وجل ونقله إلى جنته ودار كرامته اجتمعت الأنصار في سقيفة بني ساعدة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأرادوا عقد الإمامة لسعد بن عبادة . وبلغ ذلك أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ، فقصدا نحو مجتمع الأنصار في رجال من المهاجرين ، فأعلمهم أبو بكر أن الإمامة لا تكون إلا في قريش واحتج عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم « الإمامة في قريش » ، فأذعنوا لذلك منقادين ورجعوا إلى الحق طائعين »[1] .

ونظراً لأهمية هذه القضية وما ترتب عليها من أحداث ونتائج لا بد أن نقف عندها ونحاول ما أمكن بيان وجه الحق فيها .

---

(١) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (أبو الحسن الأشعري) ، تحقيق هلموت ريتر ، الطبعة الثالثة ١٤٠٠ ــ ١٩٨٠ ، ص ٢ .

أدوار الخلاف بشأن الخلافة :

في البداية لا بد أن نقرر أنه لم يوجد نص في القرآن الكريم أو في السنة النبوية الصحيحة يدل على تعيين فرد بعينه أو أفراد أسرة بعينها لتكون لهم الخلافة دون غيرهم من المسلمين . وقد انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، ولم يشر على شخص بعينه أو لأسرة بعينها لتخلفه ، مما يدل على أن أمر المسلمين في هذه القضية موكول للأمة تختار من تراه كفؤاً من المسلمين ليتولى أمرها . ولقد كانت البيعة التي تمت لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة بيعة حرة من غير عهد أو وصية أو نص عليه . صحيح أنه قد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أبا بكر بأن يؤم المسلمين بالصلاة أثناء مرضه عليه الصلاة والسلام ، وفهم بعض الناس أن الصحابة قد اختاروه لهذا وقالوا : قد اختاره الرسول عليه الصلاة والسلام لأمر ديننا فأولى أن نختاره لأمر دنيانا[1] .

---

(١) هناك خلاف حول ولاية أبي بكر رضي الله عنه هل هي بالنص الخفي أو بالنص الظاهر ، أو أنها جاءت نتيجة لمشورة المسلمين فيما بينهم واجتهادهم حول من يلي أمرهم . فمن قال بالنص الخفي استند إلى ما ورد من أن الرسول عليه الصلاة والسلام في أثناء مرضه أمر أن يؤم أبو بكر المسلمين في الصلاة ، والصلاة هي الإمامة الصغرى فأولى به أن يكون هو صاحب الإمامة الكبرى . وهناك من ذهب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، نص على أبي بكر بعينه ليكون خليفة من بعده ، واستشهد في هذا بما ورد من أن امرأة أتت إلى النبي عليه الصلاة والسلام لتسأله أمراً من الأمور فأجابها وطلب منها أن ترجع إليه متى أرادت ، فقالت : « أرأيت إن جئت فلم أجدك ، كأنها تريد الموت ، قال إن لم تجديني فأتي أبا بكر » ، ومثل قوله في الحديث الصحيح لعائشة رضي الله عنها ، « ادعي لي أباك وأخاك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه الناس بعدي ، ثم قال يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » ، وأسند البخاري عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو فنزعت منها ما شاء الله ، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع منها ذنوباً أو ذنوبين وفي نزعه ضعف ، والله يغفر له ضعفه ، ثم استحالت غرباً فأخذها عمر بن الخطاب ، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزع عمر حتى ضرب الناس بعطن » . وبعد أن أورد ابن تيمية بعض هذه الأحاديث قال : والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم دل المسلمين على استخلاف أبي بكر وأرشدهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله وأخبر بخلافته إخبار

وإن صح هذا الاستنباط فهو لا يعد عهداً وإن كان في جملته يومئ إلى فضل أبي بكر الصديق ومقامه بين الصحابة رضوان الله عليهم ، ولا يسوغ أن يفهم أن ذلك عهد بالخلافة وليس فيه تصريح بها ولا دعوة إليها ، ولو كان الأمر كذلك لاستُشْهِد به في سقيفة بني ساعدة وحُسِم به النزاع .

وقد يقال لماذا لم يحدد القرآن أو السنة شروطاً للخلافة أو أوصافاً لمن يكون خليفة عن رسول الله ؟ وللرد على هذا يمكن القول بأن قضية الحكم من القضايا الكلية التي وضع لها الإسلام أصولا عامة وترك للمسلمين تفاصيلها . وذلك أنه اشترط للحكم بعد الالتزام بتنفيذ شرع الله أن يقوم على ثلاثة مبادئ : العدل ، والشورى ، والطاعة لأولي الأمر فيما أحب المؤمن أو كره إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة . وهناك الآيات العديدة الدالة على شرط العدل ووجوب تنفيذه وإقامته بين الناس ، كما أن الشورى جعلت مبدأ عاماً بين المسلمين في جميع شئونهم التي لم يرد فيها نص وفقاً لقوله تعالى ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾[1] ، إضافة إلى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد أمر بالشورى في قوله تعالى ﴿ وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾[2] ، وغيره ، صلوات الله عليه ، أولى بذلك .

وقد ثبتت الطاعة أيضاً بنص القرآن الكريم ، إذ يقول الله تعالى ﴿ يـأيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردُّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾[3] ، ولقد قال

راضٍ بذلك وحامد له ، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه فترك الكتاب اكتفاء بذلك ، انظر : منهاج السنَّة النبوية (ابن تيمية) مكتبة الرياض الحديثة ، جـ ١ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٦ . وكتاب الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة (شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي) ، ص ٥ ــ ١٧ ، حيث أورد أدلة نقلية وعقلية على أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على خلافة أبي بكر رضي الله عنه .

(١) سورة الشورى : آية ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٥٩ .

(٣) سورة النساء : آية ٥٩ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : «على المرء المؤمن السمع والطاعة إلا أن يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[1] .

وبهذا وضعت الشريعة الأسس التي يقوم عليها الحكم الإسلامي ، وتنظم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين . وقد اقتضت حكمة الله تعالى عدم تفصيل هذه المبادئ كي يتاح لكل جيل أن يبني على هذه الأصول النظم التفصيلية التي تلائم بيئته وتحقق مصالحه في كل زمان ومكان . وأمر الله تعالى بالعدل في الحكم تاركاً للأمة أن تضع الأسس والنظم والإجراءات التي تحقق العدالة فيها ، وأمر بالطاعة وأوكل إلى الأمة أن تفصل النظم التي تكفل هذه الطاعة بين أفراد الأمة وطوائفها ، وأمر بالشورى وأن يصدر ولي الأمر في سياسة الأمة عن رأي جماعتها ، وللأمة أن تسن النظام الذي يحقق الشورى فيها . ولذلك لم يعين النبي عليه الصلاة والسلام لها طريقاً ولا نظاماً ثابتاً لاختلاف النظم باختلاف الشعوب والبيئات واختلاف الأزمنة والأمكنة .

وانطلاقاً من هذا التصور للحكم وولاية أمر المسلمين اختلفت الآراء عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام في شأن من يخلفه في أمر الناس . فالأنصار الذين أووا النبي عليه الصلاة والسلام ومن هاجر معه وبذلوا نفوسهم وأموالهم دفاعاً عن الدين ، رأوا أنهم أولى الناس بأن يكون منهم خليفة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ودعماً لرأيهم اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة كما سبق أن أشرنا ، ورشحوا زعيم الخزرج سعد بن عبادة لتولي امرة المسلمين . وحينما نمى هذا النبأ إلى المهاجرين أسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنهم إلى مكان الاجتماع وجرى بينهم وبين الأنصار حوار حول هذه القضية ، وخطب في الجمع أبو بكر معترفاً بفضل الأنصار وجهودهم ، مذكراً بما تميز به

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب وجوب طاعة الأمراء في غير المعصية وتحريمها في المعصية ، جـ ٦ ، ص ١٥ . صحيح البخاري : كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية ، جـ ٨ ، ص ١٠٥/١٠٦ .

المهاجرون من سبق للإسلام وتحمل للأذى وصبر على الشدة ، منبهاً إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام « بأن هذا الأمر في قريش لا يعاد يهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين[1] » . كما أشار إلى تقديم الله تعالى للمهاجرين على الأنصار في قوله تعالى ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾[2] . ولم تلبث أن لانت نفوس الأنصار السمحة لهذا القول ، وكرهوا أن يأخذوا الخلافة أجراً على ما أُبلوا في ذات الله ورسوله من البلاء ، وأذعنوا لبيعة أبي بكر حينما اقترح عمر ذلك ، ثم بايع سائر المسلمين أبا بكر ، واستقام له الأمر ، وطويت صفحة من صفحات التاريخ على هذا الحدث[3] .

ويقال أن بني هاشم كانوا يرون لأنفسهم الحق في خلافة النبي عليه الصلاة والسلام لأنهم قرابته الأدنون . ونادوا من ثم بتولية علي بن أبي طالب رضي الله عنه الأمر ، لما تميز به على كل بني هاشم من سبق إلى الإسلام ودفاع عنه وفقه في الدين ، إضافة إلى كونه زوج ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن لم يُثِرْ بنو هاشم الفتنة بسبب هذا الرأي بل أذعنوا للرأي العام الذي أجمع على خلافة أبي بكر ومن بعده عمر وعثمان رضي الله عنهم . ويعتقد الشيعة أن علياً ومعه رهط من بني هاشم واثنا عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار قاوموا بيعة أبي بكر ، ولم يبايعوا إلا بعد لأي[4] . وهذا أمر لا سند له من الواقع ولم تثبته كتب التاريخ المعتمدة . بل إن بعض الشيعة يذكر في مقام

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الأحكام ، باب « الأمراء من قريش » ، جـ ٨ ، ص ١٠٤ / ١٠٥ .

(٢) سورة التوبة : آية ١٠٠ .

(٣) العواصم من القواصم (ابن العربي) ، تحقيق محب الدين الخطيب ، المكتبة العلمية ببيروت ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣ ، ص ٤٣ / ٤٥ .

(٤) كتاب الاحتجاج (الطبرسي) ، ص ٩٤ / ٩٧ .

آخر أن علياً تأخر عن بيعة أبي بكر لأنه كان مشغولا بجمع القرآن[1]!!

سكنت جميع الخلافات أثناء حكم أبي بكر وعمر وأكثر خلافة عثمان رضي الله عنهم ، لأن السياسة التي اتبعها أولئك الخلفاء الراشدون لم تدع فرصة لظهور الخلافات أو الفتن ، كما أن المسلمين كانوا مشغولين في هذه الفترة بالجهاد في سبيل الله ، وفتح الممالك تمهيداً لحمل دعوة الله إلى مختلف أصقاع المعمورة . لذا لم ترد خلال هذه الفترة إشارة إلى أي جدال حول الخلافة أو إمارة المسلمين .

الفتنة الكبرى ومقتل الخليفة عثمان :

ظهرت الفتن ، بعد السنين الست الأولى من عهد الخليفة عثمان ، قوية عنيفة أدت في النهاية إلى مقتل الخليفة الأوَّاب . ويصور لنا الأشعري مجرى الأحداث آنذاك وما انتهت إليه فيقول : « وكان الاختلاف بعد الرسول صلى الله عليه وسلم في الإمامة ولم يحدث خلاف غيره في حياة أبي بكر رضي الله عنه وأيام عمر ، إلى أن ولِّيَ عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وأنكر قوم عليه في آخر أيامه فعالا كانوا فيما نقموا عليه من ذلك مخطئين وعن سنن المحجة خارجين ، فصار ما أنكروه عليه اختلافاً إلى اليوم ، ثم قتل رضوان الله عليه وكانوا في قتلته مختلفين ، فأما أهل السنة والاستقامة فإنهم قالوا : كان رضوان الله عليه مصيباً في أفعاله قتله قاتلوه ظلماً وعدواناً ، وقال قائلون خلاف ذلك ، وهذا اختلاف بين الناس إلى اليوم »[2] .

وقد كانت الفتنة التي أدت إلى مقتل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ، وما صاحبها من أحداث وما أعقبها من اضطرابات ، موضوعاً خاض فيه كثير من المؤرخين وأصحاب المقالات والفرق ، حاول كل منهم أن يستكشف

---

(١) انظر : ص ١٦٦ .

(٢) مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٣ .

الأسباب التي أدت إلى الفتنة ، وخاض البعض في الحكم على من عاصروا هذه الفتنة من الصحابة والتابعين ، وتوقف آخرون عن إصدار أحكام على هذا أو ذاك . ولعل من أسباب اضطراب المؤرخين المعاصرين حول أحداث الفتنة هو أنهم اعتمدوا في استقاء أحداث الفتنة على بعض كتب التاريخ ككتاب الطبري دون أن يأخذوا في الاعتبار أن الطبري وغيره من المؤرخين أوردوا في كتبهم هذه إلى جانب الروايات الصحيحة ، العديد من الروايات الموضوعة والمكذوبة والواهية لأنهم أوردوا كل ما سمعوه وتركوا لمن يأخذ عنهم أن يميز ، عن طريق السند ، بين المكذوب والصحيح والثقة والضعيف ، وقد بين الطبري في مقدمة تاريخه هذا الأمر فقال :

« وليعلم الناظر في كتابنا أن اعتمادي في كل ما أحضرت ذكره فيه ، مما شرطت أني راسمه فيه ، إنما هو على ما رويت من الأخبار التي أنا ذاكرها فيه ، والآثار التي أنا مسندها إلى رواتها دون ما أُدرك بحجج العقول واستنبط بفكر النفوس ، إلا اليسير القليل منه . . . فما يكن في كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماضين ، مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه ، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً من الصحة ، ولا معنى في الحقيقة فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا ، وإنما أُتي من بعض ناقليه إلينا ، وأنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أُدي إلينا »[1] . ومن بين الأسباب التي ذكرت في هذا المجال وأراد بها البعض تبرير الفتنة والخروج على الخليفة ما يلي[2] : إن الخليفة عثمان كان شديد الحب

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ١ ، ص : ٨/٧ ، وانظر لتقييم تاريخ الطبري كمصدر للمعلومات التاريخية مقالة : تاريخ الأمم والملوك لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (محب الدين الخطيب) ، مجلة الأزهر ، مجلد ٢٤ ، جـ ٢ (١٣٧٢ ــ ١٩٥٢) ، ص : ٢١٠ ــ ٢١٥ ، ولما ورد في كتب التاريخ عن الفتنة ، انظر : في التاريخ الإسلامي ، فصول في المنهج والتحليل (د . عماد الدين خليل) ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، طبعة أولى ، ١٤٠١ ــ ١٩٨١ .

(٢) هناك أسباب ذكرها البعض رأينا الاعراض عنها لأن بعضاً منها قد بين عثمان رضي الله عنه رأيه فيها وأعذر نفسه منها بما لا يدع مجالا لمتقول كزيادته في الحمى ، وإتمامه الصلاة

لقرابته وقد أدى به هذا إلى إيثارهم على من سواهم بتولي أمر المسلمين ، وجعلهم موضع ثقته وموطن استشارته وفيهم من لم يكن أهلاً لهذه الثقة ، ولا جديراً بأن يتولى أمر المسلمين . وقد ذكر من بين ولاة عثمان هؤلاء الوليد بن عقبة أخو الخليفة لأمه وقد كان من بين من أسلموا بعد فتح مكة ، وكلفه النبي عليه الصلاة والسلام بجمع صدقات بعض الأعراب ، فلما قرب منهم خرجوا إليه فظن أنهم يحاربونه ، فرجع مخبراً النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وكاد النبي عليه الصلاة والسلام أن يرسل إليهم جيشاً لقتالهم فأنزل الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾[1] . وقد ولى عثمان الوليد الكوفة بعد أن عزل سعد بن أبي وقاص من ولايتها ، ثم اتهم الوليد بشرب الخمر ، وأنه صلى بالناس سكراناً ، وشهد عليه بعض أهل الكوفة بذلك ، الأمر الذي أدى

بمنى ، انظر تاريخ الطبري (الطبري) ج ٤ ، ص : ٣٤٦ ـ ٣٤٨ . وبعضها يعتبر فضلاً يحتسب لعثمان بدلا من أن يؤاخذ به كجمعه الناس على مصحف واحد ، إذ يعد هذا من مناقب الخليفة . وقد نسب إلى علي رضي الله عنه قوله « لو لم يصنعه عثمان لصنعته » ويقال إنه لما قدم عليٌّ الكوفة قام إليه رجل فعاب عثمان بجمع الناس على المصحف ، فصاح به وقال : « اسكت فعن ملأ منا فعل ذلك فلو وليت منه ما ولي عثمان لسلكت سبيله » . الكامل في التاريخ ، ج ٤ ، ص ١١٢ ، (حوادث سنة ٣٠) .

(١) سورة الحجرات : آية ٦ . يكاد يكون هناك اتفاق بين المفسرين على أن هذه الواقعة كانت سبب نزول هذه الآية . انظر ، تفسير ابن كثير ، دار المعرفة ببيروت ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م ، ج ٤ ، ص ٢٠٨/ ٢١٠ . ويقول ابن عبد البر : « ولا اختلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن فيما علمت أن قوله عز وجل ﴿ إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾ نزلت في الوليد بن عقبة (الاستيعاب ، ج ٢ ، ص ٦٠٣) انظر أيضاً منهاج السنَّة النبوية (ابن تيمية) ، ج ٣ . ص ١٨٧ . ورغم هذا فقد شكك ابن العربي في أن تكون هذه الآية نزلت في الوليد لصغر سنه آنذاك ، وحاول محب الدين الخطيب تأكيد هذا الشك مشيراً إلى أن رواة الحادثة من المجهولين (انظر : العواصم من القواصم ، ص ٩٠/ ٩٣) في حين أن ابن حجر يؤكد أن الوليد كان رجلاً زمن الفتح ، وأنه قدم المدينة في غزوة بدر لفداء ابن عم أبيه الحرث بن حمزة . انظر الإصابة في تمييز الصحابة ، ابن حجر ، ج ٣ ، ص ٦٣٧/ ٦٣٨ .

بالخليفة إلى جلده وعزله عن الولاية[1] . وقال قولته المشهورة ، نقيم الحد ويذهب شاهد الزور إلى النار .

كذلك اتهم عثمان بأنه ولى أخاه من الرضاع ، عبد الله بن سعد بن أبي السرح ، مصر بعد أن عزل عن ولايتها عمرو بن العاص . وعبد الله هذا كان قد ارتد بعد إسلامه كما كان من الذين أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمهم في فتح مكة وأمر بقتلهم[2] . ومما أنكر على الخليفة عثمان أيضاً أنه آثر معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً على دمشق في عهد عمر ، بأن جمع له ، إلى جانب دمشق ، ولاية حمص وفلسطين والأردن ولبنان

(١) العواصم من القواصم ، ص ٩٠ ــ ٩٣ ، انظر الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ، جـ٣ ، ص ١٠٥ ــ ١٠٧ .

(٢) انظر في ترجمة عبد الله بن أبي السرح كلا من : الاستيعاب (ابن عبد البر) ، جـ٣ ، ص ٩١٨/ ٩١٩ . والإصابة (ابن حجر) ، جـ٢ ، ص ٣١٦/ ٣١٧ . حيث ورد أن ابن أبي السرح كان يكتب الوحي للرسول عليه الصلاة والسلام ، وأنه ارتد وصار إلى قريش وادعى أنه كان يحرف القرآن ويبدل فيما يكتب ويملي عليه . وأن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر بقتله مع ثلاثة آخرين وامرأتين ، وأنه اختبأ عند عثمان رضي الله عنه حتى هدأت الأمور ، فجاء به عثمان إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وطلب منه أن يبايعه وأن يعفو عنه ، وكرر عثمان الطلب والرسول لم يجبه ، ثم بايعه فيما بعد . والتفت الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصحابة وقال : ما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني كففت يدي عن مبايعته فيقتله ، فقال رجل من الأنصار فهلا أومأت إلي يا رسول الله . قال : إن النبي لا ينبغي أن يكون له خائنة الأعين . وبعد هذا حسن إسلام ابن أبي السرح ، وشارك في فتح أفريقيا ، وتولى بعض الأعمال لعمر ، ثم ولاه عثمان مصر بعد عزل عمرو بن العاص عنها . وقد شكك د . مصطفى الأعظمي في قصة تلاعب ابن أبي السرح بالقرآن ، وذهب إلى أنه لا يوجد دليل كاف يشهد لها . فالمصادر القديمة ، كالطبري وابن إسحق وابن سعد وخليفة بن خياط ، لم تشر إليها بل إن الحكاية في أصولها تعود إلى ابن الكلبي الشيعي المعادي للعثمانيين ، وإلى الواقدي الذي وصف بأنه ضعيف واتهم بوضع الأحاديث . ومن جاء بعد هذين لم يمحص الحكاية لأنه لما ثبتت ردة ابن أبي السرح لم ير الناس ضرورة للتدقيق في أمر تحريفه للقرآن أو عدمه . وينتهي الأعظمي إلى أن أصل هذه القصة يرجع إلى أناس معروفي العداوة لعثمان . انظر : كُتَّاب النبي (مصطفى الأعظمي) ، ص ٨١/ ٨٩ .

وأصبح الشام كله خاضعاً لأمرته . كذلك أخذ على الخليفة عثمان ، أنه عين ابن عمه مروان بن الحكم أميناً عاماً للدولة وسلم إليه مقاليد الأمور فأصبحت له السيطرة على الدولة وتصريف أمورها دون الخليفة . ومروان هذا هو ابن الحكم بن العاص الذي أسلم في فتح مكة ، ثم أخرجه الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة ، وذهب ليقيم بالطائف هو وابنه مروان ، لأنه قد قيل إنه كان يتصنت إلى محادثات الرسول صلى الله عليه وسلم ويفشيها ، كما كان يقلد رسول الله ويحاكيه سخرية به حتى رآه الرسول ذات مرة يفعل ذلك[1] . وقد أخذ على عثمان رضي الله عنه أنه رد عمه هذا إلى المدينة حينما تولى الخلافة ، في الوقت الذي لم يسمح له أبو بكر وعمر بالعودة إلى المدينة أثناء خلافتيهما . ويقال إن عثمان رضي الله عنه ذكر علة ذلك فقال إنه كان قد توسط لعمه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا ، فوعده الرسول بالسماح له بالعودة إلى المدينة ، وبهذا جاء الأب والابن من الطائف إلى المدينة[2] .

وقد نُسِبَ إلى مروان بن الحكم العديد من المواقف والأخطاء حينما تولى أمانة الدولة ، وقد كان لهذا أثر كبير في خروج الناس ونقدهم للخليفة ، ويذكر ابن سعد ، أن الناس كانوا ينقمون على عثمان تقريبه مروان وطاعته له ، ويرون أن كثيراً مما نسب إلى عثمان لم يأمر به وإن ذلك عن رأي مروان دون عثمان[3] .

ويزعم البعض أنه في الوقت الذي جعل فيه عثمان أقاربه موضع ثقته ، ترك مشورة عِلْيَة الصحابة كعلي ، وسعد بن أبي وقاص وطلحة وغيرهم ممن كانوا موضع ثقة عمر ومحل مشورته .

---

(١) الاستيعاب ، جـ ١ ، ص ٣٥٩/٣٦٠ .

(٢) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ١٣٨٧/١٣٨٨ . الإصابة ، جـ ١ ، ص ٣٤٥/٣٤٦ ، الرياض النضرة ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ .

(٣) الطبقات (ابن سعد) ، جـ ٥ ، ص ٣٦ ، البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ٨ ، ص ٢٥٩ . تاريخ الطبري (ابن جرير الطبري) ، جـ ٣ ، ص ٣٩٦/٣٩٧ .

وقد وجه نقد ، أيضاً لسياسة الخليفة عثمان تجاه أموال المسلمين ، فأتهم بأنه استأثر ببعض الأموال ، الأمر الذي لم يكن معهوداً في خلافة أبي بكر وعمر . وأنه آثر بعض قرابته بأموال بيت المال ، ويذكر هنا أنه وهب خمس خراج أفريقيا لمروان بن الحكم[1] ، ويضاف إلى هذا أيضاً أن عثمان كان ليناً في محاسبته لعماله على الأقاليم ، فلم يكن يأخذهم بالشدة والحزم ، حتى حينما كان يثبت عدم عدلهم وتجنيهم على الرعية ، كما كان يفعل عمر الذي رفع شعار خير لي أن أعزل كل يوم والياً من أن أُبْقى والياً ظالماً ساعة من الزمن .

وفي مقابل هذا اللين والتساهل مع أقاربه من الولاة ، أتهم عثمان رضي الله عنه بأنه كان قاسياً في معاملته لغير أقاربه من الصحابة ، إذ حجب عِلْيَة الصحابة عن مشورته ونصحه ، كما أشرنا ، وبلغ به الأمر أن ضرب بعضهم كعمار بن ياسر الذي آذاه الضرب حتى فتق أمعاءه ، كما ضرب ابن مسعود ومنعه عطاءه ، وأنه نفي أبا ذر الغفاري إلى الربذة[2] .

وهذه التهم وأمثالها ما كان ينبغي أن صحت ، أن تقود إلى ما قادت إليه ، فتؤدي إلى الثورة والخروج وقتل الخليفة ونشر الفوضى في الدولة . علماً بأن هذه التهم جميعاً إما مطعون فيها أساساً ، أو في الطريقة التي يزعم البعض أنها وقعت بها .

وإذا أخذنا هذه التهم واحدة واحدة نجد أن حب المرء لقرابته ليس مما يؤاخذ به ، أما أن الخليفة عثمان دفعه هذا الحب إلى أن يولي أقاربه أمور الدولة مع علمه بعدم كفاءتهم وصلاحهم للأمر فهذا أمر يحتاج إلى نظر : فالوليد بن عقبة مثلاً الذي اتهم الخليفة بأنه ولاه لقرابته منه ، نجده قد تولى بعض الأعمال لعمر رضي الله عنه ، ومن ثم لا ينبغي اتهام عثمان بأنه ولاه لأنه

---

(١) الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٩١ .

(٢) العواصم من القواصم ، ص ٦١/٦٢ ، عن خبر أبي ذر ، انظر الكامل في التاريخ ، جـ ٣ ، ص ١١٣/١١٦ .

قريبه فحسب . أما قصة شرب الوليد للخمر وصلاته بالناس سكراناً فقد شكك فيها محب الدين الخطيب وحاول إثبات أنها كانت مؤامرة دبرت ضد الوليد ، قام بها بعض الحاقدين عليه والناقمين الذين أقام فيهم الحد ، وشهدوا زوراً عليه نكاية به وانتقاماً لأنفسهم . واستند في هذا إلى رواية أوردها الطبري في تاريخه[1] . وهذا يخالف المصادر الموثوقة التي أكدت هذه الحادثة ، فقد وردت إشارة إلى الحادثة في صحيح البخاري وصحيح مسلم ، وسنن أبي داود[2] . وقد ذهب ابن حجر إلى أن قصة صلاة الوليد بالناس أربعاً وهو سكران مشهورة مخرجة ، وقصة عزله بعد أن ثبت عليه شرب الخمر مشهورة أيضاً مخرجة في الصحيحين ، وعزله عثمان ، بعد أن جلده ، عن الكوفة وولاها سعيد بن العاص . ويقال إن بعض أهل الكوفة تعصبوا عليه فشهدوا عليه بغير الحق ، حكاه الطبري واستنكره ابن عبد البر[3] . وثبوت هذه القصة ونتائجها لا يقدح في عثمان رضي الله عنه بل يؤكد عدالته وعدم محاباته لأقاربه ، إذ أن قرابة الوليد منه لم تمنعه من أن يتقصى الأمر ، وحينما وجد شهوداً شهدوا ضد الوليد قام بواجبه كأمير للمؤمنين فأقام الحد عليه ، وعزله عن الولاية .

أما عبد الله بن سعد بن أبي السرح فقد ثبت أنه تاب من ردته وأن عثمان توسط له عند الرسول عليه الصلاة والسلام فعفا عنه وحسن إسلامه وشارك في فتوحات الإسلام في مصر وشمال أفريقيا وشُهِد له بالكفاءة وحسن البلاء وكان له مواقف محمودة في الفتوح[4] . ثم ولاه عثمان مصر بعد هذه التجارب . فعثمان

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٤/٩٧ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب فضائل الصحابة ، (مناقب عثمان) ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ ، صحيح مسلم ، كتاب الحدود : (حد الخمر) ، جـ ٥ ، ص ١٢٦ . سنن أبي داود ــ الحدود ، جـ ٤ ، ص ١٦٣/١٦٤ . فتح الباري (ابن حجر) ، دار الفكر للطباعة ، بيروت ، جـ ٧ ، ص ٥٧ .

(٣) الإصابة ، جـ ٣ ، ص ٦٣٧/٦٣٨ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

إذن لم يوله إلا وقد ظن أنه كفؤ وجدير بالقيام بما يوكل إليه من أعمال . وقد ثبت أن ابن أبي السرح قد ارتكب بعض الأخطاء اما أن عثمان قد أقره على ذلك ، وكتب إليه كتاباً سرياً يأمره بتأديب الثائرين من أهل مصر بعد أن أعطاهم الأمان ، فهذا كله كذب على الخليفة عثمان ، وإن صح أن الكتاب ختم بخاتمه كما يقال ، فربما تم هذا من غير علم الخليفة وأمره[1] .

أما معاوية فقد كان والياً على دمشق في عهد عمر ، وأنه كان مشهوداً له بالكفاءة وحسن السياسة ، وقد برزت هذه الكفاءة الإدارية والسياسية حينما ضمت إليه الأقاليم الأخرى[2] . صحيح أن استمرار معاوية رضي الله عنه فترة طويلة في ولاية الشام ربما كان عاملاً من العوامل التي شجعته على مناوءة سلطة الدولة فيما بعد ، ولكن ليس هذا أمراً يؤاخذ عليه الخليفة عثمان ، الذي أراد أن يصلح بتوليته الشام أمر الناس .

فهؤلاء الولاة إذن لم يولهم عثمان لقرابتهم منه فحسب ، بل لأنهم ولاة متمرسون في شئون إدارة الدولة وسياستها ، سبق لهم أن تولوا أمر المسلمين وأثبتوا جدارة وكفاءة ، وقد يقال إن هؤلاء الولاة لم يكونوا أفضل من غيرهم من صالحي المسلمين ، بل إن كثيراً ممن لم يولوا كانوا أسبق من هؤلاء الولاة إسلاماً ، وأصدق جهاداً وسبقاً للخير . ويمكن الرد على ذلك بالقول إن تعيين هؤلاء الولاة كان اجتهاداً من الخليفة الذي رأى أنهم أولى من غيرهم وأكفأ وأنهم أصلح لسياسة المسلمين وتصريف أمور الدولة ، وقد يكون مخطئاً في هذا الاجتهاد فله أجر الإمام المجتهد ، إذ ليس أحد ، كما يقول ابن تيمية ، معصوماً بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، بل الخلفاء وغير الخلفاء يجوز عليهم الخطأ ، والذنوب التي تقع منهم قد يتوبون عنها ، وقد تكفرها عنهم حسناتهم الكثيرة[3] .

---

(١) منهاج السنّة النبوية ، جـ٣ ، ص ١٨٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

(٣) نفس المرجع ، جـ٣ ، ص ١٧٦ / ١٧٧ .

والمهم في الأمر أنه حينما كان يتبين انحراف أحد هؤلاء الولاة لم تشفع له قرابته عند عثمان من أن يجلد حد شارب الخمر ، ويعزل عن الولاية كما فُعِل بالوليد بن عقبة . كما أن هذه القرابة وحدها لم تكن مؤهلاً للولاية ، وإلا لولى عثمان ، محمد بن أبي حذيفة الذي كان ربيباً لعثمان وقريبه ، ولكن عثمان رفض أن يوليه حينما طلب ذلك ، وقال له : يا بني لو كنت رضاً ثم سألتني العمل لاستعملتك ، ولكن لست هناك[1] .

أما اتهام عثمان بسوء السياسة المالية ، وأنه آثر نفسه وأهله بأموال المسلمين وبدد خزانة بيت المال في هذا ، فأمر يحتاج إلى دليل وإثبات . فعثمان عرف بأريحيته وعطفه وعطائه قبل أن يكون خليفة وبعد أن تولى الخلافة ، وكان يؤثر أهله ببره طيلة حياته . فلما تولى الخلافة رأى أنه تولى أمر المسلمين ، وترك تجارته وأعماله وفرغ نفسه لخدمتهم . فليس هناك من حرج في أن يأخذ من المال ما يجعل حياته العادية تستمر كما كانت عليه من قبل ، وأي أخبار وراء هذا الحد يعوزها الإثبات والنقل الصحيح[2] .

أما قصة تنفيل مروان بن الحكم خمس الغنائم التي أرسلها ابن أبي السرح من أفريقيا فمن هذا القبيل وغير صحيحة ، بل الثابت أن ابن أبي السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار وبعث بها إلى

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل (سيف بن عمر) ص ٧٩ . ويذكر سيف بن عمر أن محمد بن أبي حذيفة قال لعثمان : إئذن لي في الخروج ، فقال له عثمان : اذهب حيث شئت وجهزه من عنده وحمله وأعطاه ، فلما وقع إلى مصر كان فيمن تغير عليه أن منعه الولاية ويقال إن محمد بن أبي حذيفة كان من أشد الناس تأليباً على عثمان ، انظر الاستيعاب ، ج ٣ ، ص ١٣٦٩ / ١٣٧٠ ، الإصابة ، ج ٣ ، ص ٣٧٣ .

(٢) منهاج السنّة النبوية ، ج ٣ ، ص ١٩٠ / ١٩١ ، وقد بين عثمان رضي الله عنه موقفه من أهل بيته فقال : « وقالوا أني أحب أهل بيتي واعطيهم ، فأما حبي فإنه لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما عطاؤهم فإن ما أعطيهم من مالي ، ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس» انظر تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٤٦ .

عثمان ، وبقي من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة فاشتراها مروان بمائة ألف درهم نقد أكثرها وبقيت من ثمنها بقية عنده ، فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح أفريقيا التي كانت مصدر إزعاج وقلق للمسلمين آنذاك[١] .

أما قصة رد عثمان للحكم بن العاص إلى المدينة فمطعون فيها ، إذ إنها لم ترد في الصحاح وليس لها إسناد معروف . ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينف الحكم إلى الطائف بل ذهب الحكم باختياره . وإن كان النبي عليه الصلاة والسلام قد عزر الحكم بالنفي ، فلا يلزم ـ كما يقول ابن تيمية ـ من هذا أن يبقى منفياً طول الزمن ، فإن هذا لا يعرف في شيء من الذنوب ، ولم تأت الشريعة بذنب يبقى صاحبه منفياً دائماً[٢] . ويذهب ابن حزم إلى أن نفي الرسول صلى الله عليه وسلم للحكم ، لم يكن حداً واجباً ولا شريعة على التأبيد وإنما كان عقوبة على ذنب استحق به النفي ، والتوبة مبسوطة فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام وصارت الأرض كلها مباحة[٣] .

أما مروان بن الحكم فلم يولِّه عثمان إلا لأنه كان مشهوداً له بالعدل والثقة من الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين[٤] . صحيح إن مروان قد ارتكب بعض الأخطاء التي كانت سبباً من أسباب الفتنة ، ولكنها لم تكن كل الأسباب ، وأن ما ارتكبه مروان لم يكن بأمر الخليفة وموافقته وربما عن غير علم منه ، فمروان إذن ، وليس الخليفة هو الذي يتحمل مسئولية تلك الأخطاء .

أما الزعم بأن عثمان ضرب عمار بن ياسر وعبد الله بن مسعود رضي الله

---

(١) الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٩١ ، انظر أيضاً ، الرياض النضرة ، جـ ٢ ، ص ١٨٩ / ١٩٠ .

(٢) منهاج السنَّة النبوية ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (ابن حزم) ، جـ ٤ ، ص ١٥٤ .

(٤) العواصم من القواصم ، ص ٨٩ .

عنهما ومنع الأخير عطاءه فهذا كله مما ليس له أساس واضح وموثق ولم تثبت روايته ولم تصح[1] . وقصة عمار في حقيقتها ، وكما يحدثنا بها سيدنا عثمان نفسه في الرواية الصحيحة ، تكذب هذه الفرية وتدحضها ، فقد ورد عن عثمان رضي الله عنه أنه قال : « جاء عمار وسعد إلى المسجد ، وأرسلا إليَّ أن ائتنا فإنا نريد أن نذكرك أشياء فعلتها ، فأرسلت إليهما : إني عنكما اليوم مشغول ، فانصرفا وموعدكما يوم كذا فانصرف سعد وأبى عمار أن ينصرف ، فأعدت إليه رسولي فأبى ، ثم أعدته إليه فأبى . فتناوله رسولي بغير أمري والله ما أمرته ولا رضيت بضربه وهذه يدي لعمار فليقتص مني إن شاء[2] » . وواضح أن الخليفة لم يضرب ولم يأمر بضرب عمار ، بل إنه حاول ترضيته حينما تعدى عليه رسوله ، وكل ما عدا هذا من قصص وأقاويل فهو من نسج الخيال .

أما ابن مسعود رضي الله عنه ، فيقال إنه استنكر إسناد أمر كتابة ونسخ المصحف إلى زيد بن ثابت ، وإنه استنكر أن يطلب منه ترك مصحفه وأن يقرأ بقراءة زيد ، فاحتج ابن مسعود مؤكداً معرفته بكتاب الله آية آية وسورة سورة وتلقيه ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفته بأسباب نزول القرآن[3] . وقد أنكر البعض صدور مثل هذا الموقف من ابن مسعود الذي عرف بعلمه وفضله ومكانته في الإسلام ، لا سيما وأنه لم يبد منه ما ينم عن هذا على عهد أبي بكر وعمر حينما أسند إلى زيد جمع المصحف . وقد قيل أيضاً أن عثمان قطع عطاء ابن مسعود وهجره لما بدر منه من نقد وتشنيع على ولاة عثمان وذكر لمعايبهم على ملأ من الناس . فإن صح هذا فلا ينبغي أن يستنكر من

---

(١) العواصم من القواصم ، ص ٦٣ / ٦٤ . منهاج السنَّة ، جـ ٣ ، ص ١٩١ / ١٩٣ .

(٢) انظر عثمان بن عفان (عرجون) ، ص ١٥١ / ١٥٢ .

(٣) الاستيعاب ، جـ ٣ ، ص ٩٩١ / ٩٩٣ . تاريخ الإسلام (الذهبي) ، جـ ٢ ، ص ١٠٠ / ١٠٤ .

عثمان هجره أو قطع عطائه عنه كلون من ألوان التأديب ، حفاظاً على هيبة الدولة وعلى مركز الخلافة[1] . والمهم في الأمر ، أن هذا الموقف لم يدفع ابن مسعود إلى أن يتخذ موقفاً معادياً أو معارضاً للخليفة عثمان ، بل إنه أبدى امتثالا تاماً لأمره حينما طلب منه القدوم إلى المدينة ، وقال حينما اشتدت الفتنة : ما أحب أني رميت عثمان بسهم[2] .

أما نفي أبي ذر رضي الله عنه إلى الربذة فقد ثبت ، ولكن لم يكن بفعل عثمان بل باختيار أبي ذر الذي آثر أن يبتعد ويعتزل حينما وقع بينه وبين الناس ما وقع بسبب بعض آرائه . ويؤكد هذا ما أورده البخاري في صحيحه عن زيد بن وهب قال : « مررت بالربذة فإذا أنا بأبي ذر قلت : ما أنزلك منزلك هذا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية في ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ ، فقال معاوية نزلت في أهل الكتاب ، فقلت نزلت فينا وفيهم . وكان بيني وبينه في ذاك . فكتب إلى عثمان رضي الله عنه يشكوني ، فكتب إليَّ عثمان أن أقدم المدينة فقدمتها ، فكثر عليَّ الناس حتى كأنهم لم يروني قبل ذلك . فذكرت ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحيت فكنت قريباً ، فذاك الذي أنزلني هذا المنزل ولو أمَّروا عليَّ حبشياً لسمعت وأطعت[3] » . وروى ابن سيرين قال : قدم أبو ذر المدينة فقال عثمان : كن عندي تَغْدُو عليك وتروح اللقاح ، قال : لا حاجة لي في دنياكم ، ثم قال : ائذن لي حتى اخرج إلى الربذة فأذن له فخرج[4] . ويؤيد هذا أن أبا ذر لم يكن يحمل على الخليفة شيئاً ، وقد أورد ابن سعد أن ناساً من أهل الكوفة قالوا لأبي ذر وهو بالربذة :

---

(١) الرياض النضرة ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

(٢) الاستيعاب ، ج ٣ ، ص ٩٩٣ .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب الزكاة ، باب ما أدى زكاته فليس بكنز ، ج ٢ ، ص ١١١ ، فتح الباري ، ج ٣ ، ص ٢٧١ وما بعدها .

(٤) صفة الصفوة (ابن الجوزي) ، ج ١ ، ص ٥٩٦/٥٩٧ .

يا أبا ذر فعل بك هذا الرجل وفعل فهل أنت ناصب لنا راية (يعني فنقاتله) ، فقال : يا أهل الإسلام لا تعرضوا على ذاكم ولا تذلوا السلطان فإنه من أذل السلطان فلا توبة له . . والله لو أن عثمان صلبني على أطول خشبة أو أطول حبل لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي ، ولو سيرني ما بين الأفق إلى الأفق ، أو قال ما بين المشرق والمغرب لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي ، ولو ردني إلى منزلي لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت أن ذاك خير لي[1] .

فأبو ذر كان رجلاً صالحاً زاهداً ، وكان من رأيه أن الزهد واجب وأن ما أمسكه الإنسان فاضلاً عن حاجته فهو كنز يكوى به في النار ، واحتج على ذلك بما لا حجة له فيه من الكتاب والسنَّة ، كقوله تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ﴾[2] . وجعل الكنز ما يفضل عن الحاجة ، كما احتج أيضاً بما سمعه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : يا أبا ذر ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً يمضي عليه ثالثة وعندي منه دينار إلا ديناراً أرصده لدين . وأنه قال : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا »[3] . فأبو ذر ، كما يقول ابن تيمية ، أراد أن يوجب على الناس ما لم يوجب الله عليهم ، ويذمهم عليه ، مع أنه مجتهد في ذلك مثاب على طاعته رضي الله عنه كسائر المجتهدين من أمثاله[4] .

وهذا القدر من الأحداث إن صح ، ما كان ينبغي أن يقود إلى الفتنة ويؤدي إلى مقتل الخليفة ، إذ أنه لا يتعدى في غاية ما يمكن أن ينتهي إليه أن يكون اجتهاداً من الخليفة فيما يراه من مصلحة المسلمين ، وإذا كان الأمر كذلك فما

---

(١) طبقات ابن سعد (ابن سعد) ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧ .

(٢) سورة التوبة : آية ٣٤ .

(٣) انظر ، مسلم ، كتاب الزكاة ، باب الترغيب في الصدقة ، جـ ٣ ، ص ٧٥/٧٦ .

(٤) منهاج السنَّة النبوية ، جـ ٣ ، ص ١٩٨/١٩٩ .

هي إذن الأسباب الحقيقية التي أدت إلى الفتنة ؟ .

يبدو أن الفتنة وما صحبها من أحداث ، كانت وليدة لظروف عامة ونتيجة للتغيرات التي اجتاحت العالم الإسلامي في أثر الفتوح الإسلامية ودخول كثير ممن لم يكن على صلة بالنبوة أو يعيش في ظلالها في الإسلام . ففي عهد الخليفة عمر رضي الله عنه فتحت بلاد واسعة ، وجلبت خيرات هذه البلاد إلى الأمصار الإسلامية ، فأحدث هذا بعض التغيرات في حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية . وبدت بعض مظاهر هذا التغير عنيفة بعد مقتل الخليفة عمر ، فأدى هذا كله وما صحبه من ظواهر إلى رد فعل عند أولئك الذين كانوا على عهد قريب بحياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ورأوا سياسته وسياسة خليفتيه وسيرتهم جميعاً ، وسيرة الصحابة تجاه المال وزينة الدنيا وزخرفها . فتولد لديهم شعور قوي بالاستنكار كما حدث لدى أبي ذر . ولكن لم يكن المجتمع كله على شاكلة أبي ذر ، إذ ضعف البعض وجرفه تيار التغيير ، وحدث نوع من التعدي والتجاوز من بعض الفئات الفقيرة والغنية على حد سواء . وقد أورد ابن تيمية ما يشير إلى هذا التغير ، وبين كيف أنه كان أحد أسباب الفتنة فيقول : « وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُقَوِّمُ رعيته تقويماً تاماً فلا يعتدي لا الأغنياء ولا الفقراء . فلما كان في خلافة عثمان توسع الأغنياء في الدنيا حتى زاد كثير منهم على قدر المباح في المقدار والنوع ، وتوسع أبو ذر في الإنكار حتى نهاهم عن المباحات . وهذا من أسباب الفتنة بين الطائفتين[1] » .

وقد لاحظ عمر رضي الله عنه ، في نهاية خلافته ، بعضاً من مظاهر هذا التغير في حياة الناس وأدرك أبعاده ونتائجه الخطيرة ، ووضع من ثم سياسة للحد منه ، وعمل جهده لمقاومته وبلغ به الأمر أن منع كبار الصحابة من مغادرة المدينة حتى للجهاد ، خوفاً عليهم أن يفتتنوا إذا رأوا الأقاليم التي فتحت على المسلمين ، وخشية على الناس في الأقاليم والأمصار أن يفتتنوا بهم . ولكن

---

(١) منهاج السنّة النبوية ، جـ٣ ، ص ١٩٩ .

الناس لم يلينوا لهذه السياسة ويرتضوها حتى ملّوا عمر وضاقوا به ، وشعر هو بهذا ولكنه ظل مستمسكاً بهذه السياسة حريصاً عليها حتى لقي ربه . فلما جاء الخليفة عثمان رأى أن يغير من تلك السياسة التي برم بها الناس على عهد عمر ، وظن أن مصلحة المسلمين في التغيير وترك الحرية لهم للتنقل في البلاد ومخالطة العباد . ولكن هذه السياسة في الواقع عجلت بافتتان الناس ، وكانت سبباً من أسباب الفتنة العامة . ويصور الطبري في تاريخه مسار هذا التطور ويورد رواية عن الشعبي يقول فيها : « إنه لم يمت عمر رضي الله عنه حتى ملته قريش ، وقد كان حصرهم بالمدينة فامتنع عليهم وقال : إن أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد . فإن كان الرجل ليستأذنه في الغزو ، وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ، ولم يكن يفعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ، فيقول : قد كان لك في غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يُبَلِّغك ، وخير لك من الغزو اليوم أن لا ترى الدنيا ولا تراك . فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس ، فكان أحب إليهم من عمر[1] » . ويروي الطبري بسنده فيقول : « لم تمض سنة من إمارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الأمصار وانقطع إليهم الناس . ويروي الطبري أيضاً عن الحسن البصري قوله : « كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه فبلغه فقام فقال : « ألا إني قد سننت الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعاً ، ثم ثنياً ثم رباعياً ثم سداسياً ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل ، ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حي فلا ، إني قائم دون شِعَبْ الحَرَّة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار » . وعن محمد وطلحة قالا : « فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر ، فانساحوا في

(١) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٩٧ . انظر أيضاً ، الفتنة ووقعة الجمل ، ص ٧٦ .

البلاد ، فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس وصاروا أوزاعاً إليهم . وأملوهم وتقدموا في ذلك فقالوا : يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك »[1] .

وهكذا تولدت الفتنة والاحتكاك بين الغني والفقير ، العازف عن الدنيا والمقبل عليها ، بين الولاة والرعية ، فظهرت نقمة النقد على الولاة والخروج عليهم ومواجهتهم ، واتهامهم بالاستغلال والفساد ، واشتد بعض الولاة على العامة واتهموهم بالعصيان والخروج ، واستغلت جماعات هذه الظروف ، وانتهزها كل من كانت له أطماع في الولاية أو أحقاد شخصية ضد الخليفة أو ضد أحد من ولاته . وإذا ما استعرضنا أسماء أولئك الذين تولوا وزر الفتنة وقادوا الدهماء فيها ، نجد أنهم إما ممن كانت لهم أطماع في الولاية فلم يعطوها ، كمالك بن الحارث بن الأشتر ، ومحمد بن أبي حذيفة ، قريب عثمان وربيبه ، الذي انضم إلى الخارجين حينما رفض الخليفة أن يوليه ولاية لسوء خلقه وفساد دينه وعدم كفاءته . أو ممن عرف بفساد المعتقد وقلة الدين وإيثار العاجلة على الآجلة[2] .

وقد وجد أعداء الإسلام الفرصة سانحة للانتقام من المسلمين لدولهم الزائلة ومجدهم الضائع ، فجدُّوا في إثارة الفتنة ، ووجدوا في بعض ضعاف النفوس ، ومرضى القلوب مدخلاً . وقد تولى الوزر الأكبر في هذه الفتنة عبد الله بن سبأ[3] ، الذي يُذكَر بأنه كان يهودياً من أهل صنعاء ، أسلم في زمن

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٣٩٦/٣٩٧ ، انظر : الفتنة ووقعة الجمل ، ص ٧٥/٧٦ .

(٢) العواصم من القواصم ، ص ١١١/١١٧ . البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ٧ ، ص ٢٥١ .

(٣) انظر هامش (٢) صفحة ٩٥ للتعريف برسالة علمية في (ابن سبأ ودوره في الفتنة) ويوجد بحث آخر بعنوان (ابن سبأ حقيقة لا خيال) للدكتور سعدي الهاشمي منشور ضمن محاضرات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في موسمها الثقافي ٩٨/٩٩هـ .

عثمان رضي الله عنه ، وتنقل في البلاد الإسلامية فمر بالحجاز ثم البصرة والكوفة والشام ، ولكن اكتشف أمره وأُبعد من هذه الأمصار جميعاً حتى أتى مصر واستمال في هذه البلاد قلوب بعض الناقمين على الولاة ، وبدأ يبث بينهم بعض العقائد المنحرفة كرجعة الأنبياء والأوصياء ، وإن كل نبي كان له وصي ، وإن علياً وصي محمد . وانتقل بعد ذلك إلى الطعن في الخليفة عثمان وأنه أخذ الخلافة بغير حق ، واستثار بعض من وقعوا تحت تأثيره إلى النهوض وزين لهم الطعن على الولاة والخروج عليهم في صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستطاع أن يكون خلايا سرية في تلك الأمصار تجري بينهم وبينه مكاتبات ، ويحيكون المؤامرات ويضعون الخطط للثورة والخروج على الخليفة[1] . وهكذا تفاقمت الفتنة وتجمعت عناصرها من الأقاليم والأمصار كالكوفة ومصر والبصرة يبثون في الظاهر بعض الظلامات والشكاوى من الولاة إلى الخليفة ، ويخططون في الباطن للقضاء على الخلافة الإسلامية . وقد شعر كبار الصحابة بالخطر حينما توافدت جموع الدهماء إلى المدينة ، فحاولوا تهدئة الثائرين وأن يستمع الخليفة إلى شكاياتهم والمظالم التي زعموها ، وفعلاً وعد الخليفة بأن يرد الحق إلى نصابه وأن يقيم العدل وينصف المظلوم ، وأن يختار لأمرة المسلمين من يرضونه ويُرضي الله تعالى . وبهذا هدأت الأحوال وتفرقت الجموع قافلة إلى الأمصار ، ولكن لم تلبث أن عادت مرة أخرى مدعية أن الخليفة عثمان قد نقض العهد الذي قطعه على نفسه ، وأنه كاتب عامله على مصر سراً يأمره أن يؤدب المتظلمين بدلا من أن ينصفهم[2] . وقد أشرنا من قبل إلى أن قصة الكتاب المزعوم ونسبتها إلى عثمان مجرد افتراء عليه ، ومما يؤكد اختلاق هذه القصة والمؤامرة التي وراءها ، ما أشار إليه علي رضي الله عنه حينما خاطب هؤلاء الخارجين قائلاً : كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل

---

(١) تاريخ الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٤٠/٣٤١ ، الفتنة ووقعة الجمل ، ص ٤٨/٤٩ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل ، ص ٦٠ .

مصر ، وقد سرتم مراحل ثم طويتم عنا ، هذا والله أمر أُبرم بالمدينة[1] . ويذكر ابن كثير أن بعض الصحابة قالوا للخارجين عند عودتهم : كيفَ علمتم بذلك (أي بالكتاب) من أصحابكم وقد افترقتم وصار بينكم مراحل ؟ إنما هذا أمرٌ إتفقتم عليه فلما لم يجد الخارجون مبرراً مقنعاً قالوا : ضعوه على ما أردتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا ونحن نعتزله[2] .

ورغم تأكيد الخليفة وقسمه بأنه لا صلة له ولا علم بذلك الكتاب المزعوم ، فإن جموع الثائرين المحيطة ببيته لم تقبل منه إلا أن يعتزل ، أو يسلمهم مروان بن الحكم باعتبار أنه هو الذي كتب الكتاب إلى والي مصر ، أو يعزلوه عنوة . ورفض عثمان رضي الله عنه كلا الخيارين ورأى معه بعض الصحابة أن لا يعتزل حتى لا يضع سابقة تسول لكل مجموعة من الغوغاء أن تخرج على أميرها فتعزله[3] . كما أن مروان لم يثبت عليه جرم يقتل بسببه[4] . فلم يبق إذن إلا الصمود في وجه الثائرين ، الذين شددوا الحصار على بيت الخليفة حتى منعوا منه الماء ، وأخيراً تسوروا عليه الدار وقتلوه في وضح النهار . ويؤكد مسارَ الأحداث أن هذه الفتنة أشعل أُوارها وخطط لها ونفذها طوائف من المدفوعين بأغراض شخصية أو أهواء ذاتية . وأن خيار المسلمين من الصحابة لم يشتركوا فيها من قريب أو بعيد ، ولم يدخل واحد منهم في دم عثمان أو يرضى

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ، ص ٦١ .

(٢) البداية والنهاية (ابن كثير) ، ج ٧ ، ص ١٧٤ .

(٣) العواصم من القواصم ، ص ١٣٠ ، ويذكر خليفة بن خياط أن ابن عمر دخل على عثمان وعنده المغيرة بن الأخنس فقال : انظر ما يقول هؤلاء ، يقولون اخلعها ولا تقتل نفسك . فقال ابن عمر : إذا خلعتها أمخلد أنت في الدنيا ؟ قال : لا . قال فإن لم تخلعها هل يزيدون على أن يقتلوك ؟ قال : لا . فقال : فهل يملكون لك جنة أو ناراً ، قال لا . قال فلا أرى لك أن تخلع قميصاً قمصكه الله فتكون سُنَّة كلما كره قوم خليفتهم أو إمامهم خلعوه » ، انظر تاريخ خليفة بن خياط ، ص ١٧٠ .

(٤) منهاج السنَّة النبوية ، ج ٣ ، ص ١٩٠ ، العواصم من القواصم ، ص ١١٠/١١١ .

بقتله ، وإنما قتلته ، رضوان الله عليه ، طائفة من المفسدين في الأرض من أوباش القبائل وأهل الفتن[1] .

أثر الفتنة في ظهور الفرق :

إن مقتل الخليفة عثمان قد فتح أبواب الفتنة على مصاريعها ولم تُجْدِ البيعة لعلي في استقرار الأمور والأحوال ، إذ أنه رغم البيعة لعلي من أكثرية المسلمين ، فإن معاوية بن أبي سفيان الذي كان والياً للشام على عهد عثمان ، لم يذعن لبيعة علي ولم يدخل فيها . واعتل معاوية رضي الله عنه لموقفه هذا بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأنه تجب المبادرة إلى القصاص من قتلته ، وأنه أقوى الناس على الطلب بذلك ، والتمس من علي أن يمكنه من قتلة عثمان ثم يبايع له بعد ذلك ، وعلي يقول : ادخل فيما دخل فيه الناس وحاكمهم إلى أحكم فيهم بالحق[2] . كما أن جماعة من الصحابة على رأسهم أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم ، خرجوا على الخليفة علي ، واتجهوا إلى البصرة مغاضبين ، واحتج هؤلاء جميعاً لموقفهم هذا بدم عثمان وذهبوا إلى أنه لا بد مَن القصاص من قتلته . ولم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا علياً في الخلافة ، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة ، وإنما أنكرت هي ومن معها على « علي » منعه من قتل قتلة عثمان وترك الاقتصاص منهم[3] .

وحاول علي أن يرد هؤلاء إلى الصواب ، مبيناً أنه لم يشترك في قتل عثمان ولم يظاهر عليه ، ودعا على قاتليه باللعنة في البر والبحر والسهل والجبل . وبذل أمير المؤمنين « علي » جهده في إقناع أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير بأنه لا بد من خضوع الناس لإمام واحد يحتكمون إليه ويعضّدونه حتى تقوى شوكة الدولة

---

(١) العواصم من القواصم ، ص ١١١/ ١١٦ .

(٢) فتح الباري ، جـ١٢ ، ص ٢٨٤ . نيل الأوطار (الشوكاني) ، جـ٧ ، ص ٣٣٩ .

(٣) فتح الباري ، جـ١٣ ، ص ٥٦ .

وتتمكن من تتبع قتلة عثمان ، وإقامة حدود الله فيهم كما ينبغي أن تقام الحدود في ظل النظام والأمن لا في ظل الفتنة والانقسام . وبين لهم أيضاً أن هؤلاء القتلة قد انحازوا إلى صفه ، ولكنهم لا زالوا متحزبين ولهم شوكة فلا يمكن قتالهم أو النيل منهم وصالحو المسلمين على هذه الحال من الفرقة واختلاف الكلمة . وبعث الخليفة علي الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي ، الذي استطاع أن يقنعهم بالصلح ويتفق معهم على ذلك .

وهكذا اقتنعت أم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير بالمصالحة وراجعوا موقفهم بعد أن تبين لهم خطؤه . وقد سُرَّ أمير المؤمنين علي لمراجعتهم موقفهم وموافقتهم على الصلح[1] ، ولكن سرعان ما تحركت عناصر الفتنة حينما علمت بنبأ الصلح ، وخشي من كان في معسكر « علي » ممن شارك في مقتل عثمان مغبة هذا الصلح عليهم ، كما كان معسكر أم المؤمنين عائشة يضم عناصر لا تريد أن تهدأ الفتنة ، ومن ثم سعى هؤلاء جميعاً إلى إشعال نار الحرب ، ولم يشعر الصالحون في المعسكرين إلا والمناوشات قد بدأت قبيل صبيحة اليوم الثاني للاتفاق ، فظن كل فريق أن الفريق الآخر قد غرر به وغدره وانتهى الأمر بموقعة الجمل الشهيرة التي سقط فيها عشرة آلاف من الطرفين ، وقتل فيها طلحة والزبير بأيدي مدبري الفتنة من المعسكرين[2] .

وبعد وقعة الجمل تفرغ علي لأمر معاوية وأهل الشام الذين اشتد عودهم وقوي ، وصاروا يطالبون بتسليم قتلة عثمان كشرط أساسي لأي اتفاق . وبدأ علي بدعوتهم إلى الدخول في بيعته وأن يكون الجميع عوناً له على القصاص لعثمان . ولكن معاوية استعصم بالشام ورفض كل دعوة إلى الصلح[3] . واعتبر

---

(١) الفتنة ووقعة الجمل ، ص ١٤٤/١٤٧ ، تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٥٠٦/٥٠٧ ، انظر أيضاً ، الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٢٣٢/٢٤٣ .

(٢) الفتنة ووقعة الجمل ، ص ١٤٧/١٧٩ ، وقد قتل طلحة رضي الله عنه في المعركة ، أما الزبير رضوان الله عليه فقد قتل بعد انصرافه من ميدان القتال .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ ٤ ، ص ٥٦١/٥٦٢ ، الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٢٧٦/٢٧٧ .

الإمام علي هذا الموقف خروجاً على السلطان الشرعي للدولة ، ومن ثم لم يجد بُدًّا من حرب معاوية رضي الله عنه ، والتقت سيوف المسلمين مرة ثانية في « صِفِّين » ودارت الحرب بين الفريقين وكادت كفة عسكر علي أن ترجح وأوشك النصر أن يكون حليفه ، لولا أن لجأ عمرو بن العاص إلى حيلة اقترح فيها على جيش معاوية رفع المصاحف على الأسِنَّة والدعوة إلى الاحتكام لكتاب الله . وجازت الحيلة على الكثيرين من جيش علي رغم تحذير علي رضي الله عنه لأصحابه بأن يصبروا ويستمروا في القتال . وعن هذا الحدث يقول ابن حجر : « كاد أهل الشام أن ينكسروا فرفعوا المصاحف على الرماح ، ونادوا : ندعوكم إلى كتاب الله تعالى . وكان ذلك بإشارة عمرو بن العاص وهو مع معاوية رضي الله عنهما ، فترك جمعٌ كثير ممن كان مع علي ، وخصوصاً القراء ، القتال بسبب ذلك تديناً ، واحتجوا بقوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يُدْعَون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ﴾[1] . فراسلوا أهل الشام في ذلك فقالوا : ابعثوا حكماً منكم وحكماً منا ويحضر معهما من لم يباشر القتال ، فمن رأوا الحق معه أطاعوه »[2] . وبهذا أكره عَليٌّ على قبول التحكيم ، وعلى أن يرضى بأبي موسى الأشعري مندوباً عنه وبدأت بذلك هدنة مؤقتة بين الفريقين[3] .

وببداية هذه الهدنة ظهر من بين صفوف جيش علي من رفض الهدنة ورأى أنها مخالفة للقرآن ، وقوي هذا الرأي وكسب له أنصاراً أعلنوا في النهاية العصيان والخروج ، بل كفروا الخليفة علياً رضي الله عنه . وكل من قَبِلَ الهدنة ورضي بالتحكيم ، لأن هؤلاء في زعمهم ، خالفوا أمر الله الذي يقول ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٣ .

(٢) فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٤ .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٤٨ / ٥٧ . الكامل في التاريخ ، (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٣١٧ / ٣٢٢ .

فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل واقسطوا إن الله يحب المقسطين ﴾[1] ، فما دام معاوية قد رفض الصلح ودخل الناس معه في الحرب ، فكان ينبغي أن تمضي الحرب إلى نهايتها حتى يحق الله الحق ويبطل الباطل . وقبول التحكيم تحكيم للرجال في دين الله . وقد رفع هؤلاء شعار : لا حكم إلا لله بواسطة الحرب ينصر الحق ويهزم الباطل . وقد قوي أمر هؤلاء الخوارج حينما فشل التحكيم وانتهى إلى غير نتيجة[2] . وأصبحوا يشكلون خطراً على جماعة المسلمين . فانصرفت جهود علي رضي الله عنه لاستصلاحهم بالحجة أولا ثم بالقوة حين لم تجد الحجة . ودخل معهم في حروب طويلة أضعفت من جبهته . وأخيراً تآمر الخوارج على التخلص من كل من معاوية وعمرو بن العاص والخليفة علي رضي الله عنهم جميعاً ، ولكن خطتهم لم تنجح إلا في قتل علي[3] . ولم يضع مقتله رضي الله عنه حداً للفتنة المستعرة ، بل ازداد خطر الخوارج وصاروا يمثلون شوكة في جنب الدولة الأموية يهددون أمنها وأمن الجماعة المسلمة . وفي هذا الوسط المضطرب بدأت تتبلور جماعة تشايع الخليفة علياً وتنادي بحقه وحق أولاده من بعده في الخلافة ، وتحمل الدعوة إليهم . وهكذا تولد عن هذه الفتن والاضطرابات فرقتان أو جماعتان هما : الخوارج والشيعة ، أو بعبارة أدق ظهر الخوارج كجماعة حركية مقاتلة بينما وضعت البذور الأولى للشيعة وبدأت في النمو . ويصور الأشعري هذه الفترة المتأخرة من الفتن وكيف أدت إلى ظهور الخوارج فيقول : «ثم حدث الاختلاف في أيام علي في أمر طلحة والزبير

---

(١) سورة الحجرات : آية ٩ ــ ١٠ .

(٢) انظر فيما يلي ، ص ٤٤ ، هامش (٣) .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ١٤٣ وما بعدها ، الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٣٨٧/ ٣٩٠ .

رضوان الله عليهما ، وحربهما إياه وفي قتال معاوية إياه وصار عليٌّ ومعاوية إلى « صِفِّين » . . . واختلف أصحاب « علي » عليه وقالوا : قال الله تعالى ﴿ فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ ، ولم يقل حاكمهم وهم البغاة . فإن عدت إلى قتالهم وأقررت على نفسك بالكفر إذ أجبتهم إلى التحكيم ، وإلا نبذناك وقاتلناك . فقال علي رضوان الله عليه : قد أبيت عليكم في أول الأمر فأبيتم إلا إجابتهم إلى ما سألوا ، فأجبناهم وأعطيناهم العهود والمواثيق ، وليس يسوغ لنا الغدر . فأبوا إلا خلفه واكفاره بالتحكيم وخرجوا عليه فسموا خوارج لأنهم خرجوا على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه[1] » .

ولكن لم يقف أمر الافتراق عند هذه الفرق التي رأت رأياً معيناً في الإمامة ، بل سرعان ما تحولت تلك الأحزاب إلى مذاهب ، ذلك أن النزاع السياسي حول الخلافة ومن هو أولى بأن يكون خليفة للمسلمين وأيهما كان على حق في موقفه علي أو معاوية رضي الله عنهما أو غيرهما ، تحول إلى خلاف فكري حول الحكم على هؤلاء والحكم على أتباعهم . وقد أثار هذه المشكلة بهذه الصورة جماعة الخوارج الذين كَفَّروا ، كما سنرى ، كثيراً من المسلمين وأخرجوهم من دائرة الجماعة المسلمة (أي جماعتهم كما كانوا يعتقدون) . ومن هنا بدأت محاولات فكرية لتحديد معنى الإيمان وأركانه ، أو الشروط التي ينبغي توفرها حتى يعد الشخص مؤمناً ، والعلاقة بين الإيمان والإسلام ، وحكم مرتكب الكبيرة ، هل هو مؤمن عاص أو كافر خارج عن الملة كما زعمت الخوارج ، إلى غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بهذا الجانب العقائدي . وظهر في إطار هذه الأبحاث جماعة المرجئة الذين اتخذوا رأياً في الطرف المقابل لآراء الخوارج ، ثم نشأت مذاهب عقائدية كلامية كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية ، تعلقت مباحثها بقضايا العقيدة والبرهنة عليها والدفاع عنها . وظهر أيضاً أولئك المفكرون الذين أطلق عليهم « فلاسفة الإسلام » والذين تأثروا إلى حد كبير

---

(١) مقالات الإسلاميين ، ص ٣/٥ .

بالفلسفة اليونانية ومناهجها وحاولوا التوفيق بينها وبين الإسلام ، ويمثل هؤلاء الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم[1] . ونجد أيضاً ذلك التيار الباطني الذي اتخذ من الإسلام ستاراً وعمل جهده في هدم الشريعة وتقويض أركان الدين . وضم هذا التيار فرقاً متعددة ، واندست فيه طوائف مختلفة ، كالإسماعيلية بفروعها والقرامطة وإخوان الصفاء والنصيرية والدروز ، والحركات الباطنية الحديثة كالبابية والبهائية والقاديانية . كما كان لهذا التيار الباطني أثر كبير في الفلسفة الصوفية واتجاهاتها الإشراقية[2] .

ولم تكن هذه الفرق والتيارات والمذاهب جميعاً وليدة ذلك الخلاف الذي دار حول الخلافة ، بل كانت هناك عوامل عديدة أثرت في ظهور هذه الفرق المختلفة والتيارات المتباينة : من بينها ترجمة التراث اليوناني إلى اللغة العربية وافتتان البعض به ، والخوض في المشكلات العقائدية بغير المنهج الذي وضعه الشرع . هذا إضافة إلى أن الجدال مع أصحاب الديانات والمذاهب غير الإسلامية أثار كثيراً من المشكلات العقائدية لدى بعض المسلمين . والذي يهمنا في هذا المقام من تلك الطوائف جميعاً ، الجماعات التي تولدت في ظروف البحث عن مشكلة الخلافة كالخوارج والشيعة ، وما ارتبط بهما من حركات ومذاهب فكرية .

---

(١) وقد واجه هذا التيار الفلسفي نقداً عنيفاً من قبل علماء المسلمين ، فنقدوا نظريات الفلاسفة ومناهجهم وما استندوا إليه من ثقافة يونانية وثنية . انظر : تهافت الفلاسفة (لأبي حامد الغزالي) وكتب ابن تيمية لا سيما : الرد على المنطقيين ، ونقض المنطق . وممن نقدوا هذا التيار الفلسفي من المحدثين ، سيد قطب في « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » ، كلمة في المنهج ، ص ٣/٢٣ ، وعبد الحليم محمود : « موقف الإسلام من العلم والفن والفلسفة » ، ص ١٢٦/ ١٩٠ .

(٢) انظر : الفلسفة الصوفية في الإسلام (عبد القادر محمود) ، دار الفكر العربي ، ط. ثانية ، ص ٢٩٩/ ٦٠٤ .

الفصل الثاني

الخوارج : نشأتهم ، مبادؤهم ، أهم فرقهم

نشأة الخوارج :

سبق أن أشرنا إلى أن كلمة خوارج أطلقت على أولئك النفر الذين خرجوا على « علي » بن أبي طالب رضي الله عنه بعد قبوله التحكيم عقب معركة « صِفِّين » إذ اعتبر هؤلاء التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر ، ومن ثَمَّ طلبوا من « علي » أن يتوب من هذا الذنب ، وانتهى الأمر بأن خرجوا من معسكره . وقد قبل الخوارج هذه التسمية ولكنهم فسروا الخروج بأنه خروج من بيوتهم جهاداً في سبيل الله ، وفقاً لقوله تعالى ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾[1] . وقد أُطلق على الخوارج أيضاً اسم « الشراة » وربما يكونون هم الذين وصفوا أنفسهم بذلك لأنهم يزعمون أنهم باعوا أنفسهم لله كما ورد في قوله تعالى ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد ﴾[2] . وسموا أيضاً بالحرورية لانحيازهم في أول

---

(١) سورة النساء : آية ١٠٠ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٠٧ ، وفي هذا المعنى ينسب إلى قطري بن الفجاءة ، قوله في معركة دولاب :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم

انظر : الكامل في الأدب (المبرد) ، جـ ٢ ، ص ٢١٨ .

أمرهم إلى قرية « حروراء » بالقرب من الكوفة ، كما سموا أيضاً بالمحكمة لرفعهم شعار « لا حكم إلا لله » والتفافهم حوله[1] .

ومهما يكن من شيء فإن اسم « الخوارج » في معناه الأول الذي يشير إلى الانشقاق ومفارقة الجماعة ، أصبح الاسم السائر على هذه الجماعة . وإذا كان اسم « الخوارج » قد أطلق على جماعة معينة ظهرت في الفترة التي أعقبت « التحكيم » فإن الاتجاه الخارجي الذي مثله هؤلاء الخوارج قد وردت الإشارة إليه في أحاديث عديدة ، كما ظهر أفراد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمثلون هذه الظاهرة ، واعتبروا من ثم سلفاً للخوارج المتأخرين ، الأمر الذي أدى بالبعض إلى اعتبار الخروج تياراً عاماً يشير إلى كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه ، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدهم على التابعين ، أو على الأئمة في كل زمان[2] . وتشير الأحاديث التي ورد فيها ذكر الخوارج إلى أوصافهم والأمر بقتالهم وذمهم . وقد صَحَّتْ هذه الأحاديث بأوجه عديدة بلغت عشرة أوجه كما ذكر الإمام أحمد بن حنبل وقد خرجها مسلم في صحيحه وخرج البخاري طائفة منها[3] . وقد أورد كل من البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري أنه قال « بعث علي بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليمن بذهبة في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها ، قال فقسمها بين أربعة

---

(١) الخوارج في العصر الأموي (نايف محمود معروف) ، ص ١٨٧ / ١٩٤ . ويقال أن أول من رفع شعار « لا حكم إلا لله » عروة بن أُديَّة ، جهر به في وجه الأشعث بن قيس ، حينما قرأ كتاب التحكيم على جماعة من اليمنيين ، فاعترضه عروة قائلاً : تُحكمون في أمر الله عز وجل الرجال لا حكم إلا لله » . انظر : العقود الفضية في أصول الإباضية (سالم بن أحمد الحارثي) ، ص ٣٧/ ٣٨ ، ٤٦ . انظر : تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١١٤ .

(٣) مجموع الفتاوى (ابن تيمية) ، طبعة أولى ١٣٩٨ هـ ، مجلد ٣ ، ص ٢٧٩ .

نفر : بين عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وزيد الخيل والرابع أما علقمة بن علاثة وأما عامر بن الطفيل . فقال رجل من أصحابه : كنا نحن أحق بهذا من هؤلاء . فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء ، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساء . قال : فقام رجل غائر العينين مشرف الوجنتين ناشز الجبهة كث اللحية محلوق الرأس مشمر الإزار ، فقال : يا رسول الله اتق الله . فقال : ويلك ، أو لست أحق أهل الأرض أن يتقي الله . قال : ثم ولى الرجل ، فقال خالد بن الوليد : يا رسول الله ألا اضرب عنقه ، فقال : لا لعلَّه أن يكون يصلي ، قال خالد : وكم من مُصَلٍ يقول بلسانه ما ليس في قلبه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لم أومر أن أُنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم : قال ثم نظر إليه وهو مقف وقال : إنه يخرج من ضئضئ* هذا قوم يتلون كتاب الله رطباً لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . قال أظنه قال : لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود[1] » . وفي رواية للبخاري عن علي رضي الله عنه أنه قال : إذا حدثتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً فوالله لأن أخر من السماء أحب إليَّ من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البرية ، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة[2] .

(★) ضئضي جنس ، يقال فلان من ضئضئ صدق أو من محتد صدق ، انظر ، الكامل : المبرد ، جـ ٢ ، ص ١٤٢ .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الزكاة ، باب « ذكر الخوارج وصفاتهم » ، جـ ٣ ، ص ١١١ ، صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب « قول الله تعالى : وإلى عاد أخاهم هوداً » ، جـ ٤ ، ص ١٠٨ .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب قتل الخوارج والملحدين ، جـ ٨ ، ص ٥١ / ٥٢ .

وقد ورد في حديث آخر أن الرجل الذي خاطب الرسول عليه الصلاة والسلام هو ذو الخويصرة أو عبد الله بن ذي الخويصرة ، وأنه من بني تميم . فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : « بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال : إعدل يا رسول الله ، فقال : « ويلك من يعدل إذا لم أعدل » قال عمر بن الخطاب دعني اضرب عنقه ، قال : « دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم . آيتهم رجل إحدى يديه ، أو قال ثدييه ، مثل ثدي المرأة أو قال مثل البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ يخرجون على حين فرقة من الناس . قال أبو سعيد أشهد أني سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم وأشهد أن علياً قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي صلى الله عليه وسلم ، قال فنزلت فيه ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾[1] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب استتابة المرتدين ، باب « من ترك قتال الخوارج للتألف وأن لا ينفر الناس عنه » ، جـ ٨ ، ص ٥٢ / ٥٣ . وقد أورد مسلم نفس الحديث مع اختلاف طفيف في الصيغة ، انظر صحيح مسلم جـ ٣ ، ص ١١٠ . وقد أنكر الإباضية المعاصرون ما ذكر في هذا الحديث من أن علامة الخوارج رجل له صفات معينة ذكرت في الحديث أو أن ذا الخويصرة هو الرجل الذي اعترض على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول أحدهم « إن هذه الزيادة لم يروها جابر بن زيد ، وهو قد سمع الحديث من أبي سعيد أيضاً أتراه يأخذ من أبي سعيد ويسمع منه ذلك ثم يتولى من كان هذا وصفه ، كلا بل هو أورع من ذلك ، وقد أدرك عصر الصحابة وسمع من كثير منهم ، وإني لأنزه البخاري عن الكذب ، ولكنه يأخذ عن أهل الأهواء كالشيعة والمرجئة ثقة بهم وأن لهم أهواء لا يؤمنون معها على نقل يخالف ما هم فيه » انظر : العقود الفضية ، ص ٦٧ . الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح (مسند الربيع بن حبيب) ، ص ٥٦ / ٥٧ . ويُرَدُّ على هذا أولا أن الرجال الذين رووا حديث أبي سعيد هذا بهذه الصيغة لم يتهم أحد منهم بأنه صاحب هوى أو من أهل البدع . أذ أن سند هذا

وتذكر المصادر أن ذا الخويصرة هذا هو حرقوص بن زهير السعدي الذي ذكره الطبري في الصحابة ، وذكر أنه كان له في العراق أثر ، وأنه هو الذي فتح سوق الأهواز ثم كان مع علي في حروبه ، ثم صار مع الخوارج فقتل معهم[1] ، وزعم بعضهم أنه ذو الثدية . ويذهب ابن الجوزي إلى أنه أول خارجي خرج في الإسلام ، وآفته أنه رضي برأي نفسه ، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وقد كان حرقوص هذا أحد الرؤوس التي دبرت الفتنة وشاركت في المؤامرة ضد الخليفة عثمان ، إذ كان يقود ثوار البصرة ، كما أنه كان من قادة الخوارج الذين انشقوا على « علي » بن أبي طالب ، وأنه هو الذي خاطب علياً قائلاً :

الحديث عن عبد الله بن محمد عن هشام عن الزُهْري عن أبي سلمة عن أبي سعيد . ولم يرد أن واحداً من هؤلاء اتهم بالتشيع أو الأرجاء أو القدر أو أيٍّ من أنواع البدع التي ذكرها المحدثون . ثانياً : إن الرواية عن أهل البدع ومدى قبولها ، مسألة تناولها علماء الجرح والتعديل وميزوا في هذا الخصوص بين البدعة المكفرة وهذه لا خلاف في رد رواية من يعتنقها . كما لا خلاف في رد رواية من استحل الكذب من أصحاب البدع أياً كانت . أما إن كانت البدعة غير مكفرة ولم يستحل صاحبها الكذب ، فهناك خلاف في توثيق الرواية الواردة عن طريق أمثال هؤلاء . والمعتمد ، كما يقول الحافظ بن حجر ، إن الذي ترد روايته من أنكر أمراً متواتراً من الشرع معلوماً من الدين بالضرورة ، أو اعتقد عكسه ، وأما من لم يكن كذلك وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه على ورعه وتقواه ، فلا مانع من قبوله » ، وبالنسبة للبخاري فقد حصر ابن حجر ، في مقدمة فتح الباري من روى عنهم البخاري من أصحاب البدع ، وليس فيهم واحد اتهم ببدعة تخرجه من الإسلام أو ثبت أنه كان داعياً لبدعته أو اتهم بعدم الضبط أو عدم الورع انظر : هدى الساري مقدمة فتح الباري (ابن حجر) ص : ٣٨٤/٣٨٥ ، ٤٩٥ ، ولآراء العلماء في الرواية وعدمها عن أصحاب البدع انظر : تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي) ، جـ ١ ، ص ٣٢٤/٣٢٥ ، كتاب الجرح والتعديل (ابن أبي حاتم الرازي) ، ص ٣١/٣٤ . الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (أحمد محمد شاكر) ص ٩٩/١٠١ .

(١) فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٢ ، قارن : نيل الأوطار (الشوكاني) ، جـ ٧ ، ص ٣٤٦ .

(٢) تلبيس إبليس (ابن الجوزي) ، ص ٩٠ .

تب من خطيئتك . وذلك ذنب ينبغي أن تتوب منه » (يقصد التحكيم)[1] ، وقتل في النهروان .

ورغم الارتباط الفعلي بين ذي الخويصرة وبين الخوارج ، فإن الخوارج لم يظهروا كجماعة إلا بعد حادثة « التحكيم » حيث فارقوا الجماعة وانحازوا إلى حروراء وعينوا شبث بن ربعي التميمي ليكون أميراً عليهم للقتال ، وجعلوا عبد الله بن الكواء اليشكري أميراً للصلاة . وأعلنوا أن الأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل ، وشبهوا هجرتهم من الكوفة إلى حروراء بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة . ورغم اتخاذ الخوارج هذا الموقف العدائي من أمير المؤمنين وجماعة المسلمين ، فإن الخليفة علياً حاول أن يقنعهم بالرجوع إلى صوابهم فبعث إليهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، ليناظرهم . وحينما سألهم ابن عباس عن الأسباب التي دفعت بهم إلى مفارقة معسكر الخليفة قالوا بأنهم نقموا عليه ثلاثة أمور :

١ ــ أنه بقبوله « التحكيم » قد حكم الرجال في أمر الله الذي يقول عنه تعالى ﴿ إن الحكم إلا لله ﴾ فأخطأ بهذا ، وكان ينبغي أن يستمر في القتال حتى يظهر حكم الله .

٢ ــ أنه قاتل أصحاب « الجمل » وقتلهم ، وفي نفس الوقت لم يسبهم ولم يأخذ غنائمهم ، بل إنه نهى عن قتل مُدْبِرِهم والإجهاز على جريحهم وغنيمة أموالهم وذراريهم ، وقال الخوارج إنه ليس في كتاب الله إلا مؤمن أو كافر ، فإن كان هؤلاء مؤمنين لم يحل قتالهم ، وإن كانوا كفاراً أبيحت دماؤهم وأموالهم .

٣ ــ وأخيراً فإن علياً بقبوله « التحكيم قد محا نفسه عن إمرة

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٧٢ ، تاريخ من دفن في العراق من الصحابة (علي بن الحسن الهاشمي الخطيب) ، ص ١١١/١١٢ .

المؤمنين »(*) ، وفي رأيهم أنه إن لم يكن أمير المؤمنين فإنه لأمير الكافرين[1] .

وقد بين لهم ابن عباس خطأهم في هذه الآراء وما استنتجوه منها من نتائج وما بنوه عليها من أحكام ، وذكر لهم أن الله أوجب التحكيم في أمور هي أهون من حقن دماء المسلمين كحالة الزوجين إذا خيف الشقاق بينهما ، إذ ورد في القرآن ﴿ فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ﴾ (سورة النساء ، الآية ٣٥) ، وقال ﴿ إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ﴾ . كما أمر تعالى أن يحكم في الصيد بجزاء ﴿ مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم ﴾ فمن أنكر التحكيم مطلقاً فقد خالف كتاب الله . وذكر ابن عباس لهم ، أن التحكيم في أمر أميرين لأجل حقن دماء المسلمين أولى من التحكيم في أمر الزوجين والتحكيم لأجل الصيد . أما بالنسبة للقضية الثانية ، فقد أشار ابن عباس إلى أنه كان من ضمن القوم المقاتلين في معركة « الجمل » أم المؤمنين عائشة . فهل يسبى الخوارج أمهم ، أم ينكرون أنها أمهم ؟ وقال لهم ابن عباس : فوالله لئن قلتم ليست بأمنا خرجتم من الإسلام ووالله لئن قلتم لنسبينها ونستحل منها ما نستحل من غيرها لقد خرجتم من الإسلام . فأنتم بين ضلالتين لأن الله تعالى قال ﴿ النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ﴾ . وخطأ الخوارج في هذه المسألة ـ كما يقول ابن تيمية ـ ظنهم أن من كان مؤمناً لم يبح قتاله بحال ، وهذا خلاف القرآن الذي وصف الطوائف المتقاتلة بالإيمان في قوله

---

(١) تلبيس إبليس (ابن الجوزي) ، ص ٩١/٩٢ ، انظر : الفتاوي (ابن تيمية) ، ج ١٩ ، ص ٨٩/٩٢ ، تاريخ الطبري ج ٥ ، ص ٦٤ ـ ٦٦ ، الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ، ج ٣ ، ٣٢٦/٣٢٨ .

(★) يقال إن علياً حينما كتب بينه وبين معاوية كتاب الحكومة بين أهل العراق والشام ورد فيه هذا ما قضى عليه أمير المؤمنين علي ومعاوية فامتنع أهل الشام من ذلك وقالوا : اثبتوا اسمه واسم أبيه ، فأجاب علي إلى ذلك فأنكره عليه الخوارج : انظر : تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٢ ، الكامل (ابن الأثير) ، ج ٣ ، ص ٣١٩/٣٢٠ ، البداية والنهاية (ابن كثير) ، ج ٧ ، ص ٢٧٧ ، فتح الباري (ابن حجر) ، ج ١٢ ، ص ٢٨٤ .

تعالى وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . . ﴾ ، وقوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ﴾ . فأخبر الله تعالى بأنهم مؤمنون مقتتلون ، ودل القرآن على إيمانهم وأخوتهم مع وجود الاقتتال والبغي وأنه يأمر بقتال الباغية حيث أمر الله به . وأما المشكلة الثالثة وهي القول بأن علياً محا عن نفسه ، أمير المؤمنين ، فقد رد عليهم ابن عباس بأنه ليس في هذا شيء يؤخذ على « علي » إذ أن الرسول عليه الصلاة والسلام الذي هو أفضل من « علي » محا عن نفسه صفة الرسالة التي هي منزلة أفضل من منزلة إمرة المؤمنين ، وذلك حينما قال لعلي في صلح الحديبية أكتب لهم كتاباً فكتب علي : هذا ما اصطلح عليه محمد رسول الله فقال المشركون : والله ما نعلم أنك رسول الله ، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم إنك لتعلم إني رسول الله : امح يا علي واكتب هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله فوالله لرسول الله خير من علي وقد محا نفسه[1] . بهذه الحجج القوية استطاع ابن عباس[2] ، أن يرد طائفة كبيرة من

---

(١) تلبيس إبليس (ابن الجوزي) ، ص ٩٢ ، الفتاوي (ابن تيمية) ، جـ ١٩ ، ص ٨٩/٩١ . نيل الأوطار (الشوكاني) ، جـ ٧ ، ص ٣٤٩ .

(٢) قد نسب البغدادي هذه المناظرة مع الخوارج إلى علي نفسه ، انظر : الفرق بين الفرق ، (البغدادي) ، ص ٧٨/٧٩ . وربما كان علياً هو الذي قرر أصول هذه الأجوبة أولا ثم أرسل ابن عباس بها . ويؤيد هذا ما أورده ابن حجر عن أحمد والطبراني والحاكم من طريق عبد الله بن شداد أنه دخل على عائشة مرجعه من العراق ليالي قتل علي . فقالت له عائشة تحدثني بأمر هؤلاء القوم الذين قتلهم علي . قال إن علياً لما كاتب معاوية وحَكّما الحكمين خرج عليه ثمانية آلاف من قراء الناس ، فنزلوا بأرض يقال لها حروراء من جانب الكوفة ، وعتبوا عليه فقالوا : انسلخت من قميص ألبسكه الله ومن اسم سماك الله به ، ثم حكمت الرجال في دين الله ولا حكم إلا لله . فبلغ ذلك علياً فجمع الناس فدعا بمصحف فجعل يضربه بيده ويقول : أيها المصحف حدث الناس فقالوا ماذا إنسان ؟ إنما هو مداد وورق ، ونحن نتكلم بما روينا منه . فقال : كتاب الله بيني وبين هؤلاء ، يقول الله في امرأة رجل « فإن خفتم شقاق بينهما » ، الآية . وأمة محمد أعظم من امرأة رجل ، ونقموا على أن

الخوارج إلى الحق والصواب ، ويقال إنه لما عاد ابن عباس إلى علي سأله عن الخوارج إن كانوا منافقين . فقال ابن عباس : « والله ما سيماهم بسيماء المنافقين ، إن بين أعينهم لأثر السجود وهم يتأولون القرآن[1] . وقد أطمع هذا علياً في إقناعهم وهدايتهم فخرج إليهم بنفسه وذكَرهُم بموافقتهم السابقة على الهدنة ، وكيف أنهم هم الذين حملوه على قبول التحكيم على كره منه ، فاعترفوا بذلك قائلين : إنهم أذنبوا بذلك وتابوا وطلبوا منه أن يفعل ذلك . وأخيراً عادوا معه إلى الكوفة وأشاعوا بين الناس أن علياً رجع عن « التحكيم » وتبين له خطؤه ، فلما كذبهم علي في زعمهم هذا خرجوا عليه ثانية وأصبحوا يرددون أن « لا حكم إلا لله » . فلما سمع علي نداءهم قال : كلمة حق أُريدَ بها باطل » واتخذ معهم ، رغم هذا ، سياسة لينة محاولا إقناعهم بالحجة ، وقال لهم : أما وإن لكم عندي ثلاثاً ما صحبتمونا ، لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا »[2] .

وقبل أن يحين موعد « التحكيم » جاء بعض الخوارج إلى علي طالبين منه

كاتبت معاوية وقد كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو « ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . ثم بعث إليهم ابن عباس فناظرهم فرجع منهم أربعة آلاف منهم عبد الله بن الكواء . فبعث إلى الآخرين أن يرجعوا فأبوا . فأرسل إليهم : كونوا حيث شئتم وبيننا وبينكم أن لا تسفكوا دماً حراماً ، ولا تقطعوا سبيلاً ، ولا تظلموا أحداً ، فإن فعلتم نبذت إليكم الحرب قال عبد الله بن شداد : فوالله ما قاتلهم حتى قطعوا السبيل وسفكوا الدم الحرام . . .

فتح الباري ، جـ ١٢ ، ص ٢٩٦ . وينسب ابن أبي الحديد أيضاً هذه المناظرة إلى علي ، انظر ، شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ٢ ، ص ٢٧٥ . ويذكر المبرد أن علياً ناظر الخوارج بعد مناظرة ابن عباس لهم ، ويورد نصاً قريباً من النص المذكور أعلاه ، انظر الكامل (المبرد) جـ ٢ ، ص ١٣٥ / ١٣٦ .

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٧٣ . الكامل في التاريخ ، جـ ٣ ، ص ٣٣٤ / ٣٣٦ .

الرجوع عن التحكيم والعودة إلى القتال بعد أن يعلن توبته عن خطيئته ، فلم يجبهم إلى ذلك مؤكداً أنه لا يخلف العهد والميثاق ، وإنه يستجيب إلى أمر الله الذي يقول ﴿ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾[1] . ولما بعث علي أبا موسى الأشعري « للتحكيم » ضاق الخوارج بهذا وقرروا الانفصال عنه وتكوين إمارة مستقلة وتعيين أمير عليهم ، وعرضوا الأمر على بعض زعمائهم فرفضوا . وقبلها أخيراً عبد الله بن وهب الراسبي قائلاً : « هاتوها فوالله ما أقبلها رغبة في الدنيا ، ولا فراراً من الموت ، ولكن أقبلها لما أرجو فيها من عظيم الأجر » وبايعوه أميراً لهم في العاشر من شهر شوال عام ٣٧ هـ ، ونزلوا النهروان وكتبوا إلى أصحابهم أن يوافوهم بها ويتجمعوا هناك[2] .

وبعد أن صدر قرار التحكيم وتبين أنه لم يحسم النزاع[3] ، بدأ علي يستعد لغزو الشام ورد المخالفين إلى صفوف الجماعة . ولكن ظهر من بين أصحابه من نادي بضرورة القضاء أولا على الخوارج قبل التوجه لقتال أهل الشام . واستطاع « علي » أن يقنع هؤلاء بأنَّ الخطر الحقيقي يكمن في الشام ، وأن قتال معاوية أولى من قتال هذه الفئة الخارجة ، واقتنع أصحاب علي بذلك . ولكن ورد إلى علي نبأ إفساد الخوارج في الأرض واستحلالهم لدماء المسلمين وأموالهم ،

---

(١) سورة النحل : آية ٩١ .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٧٢/٧٥ .

(٣) وقد وردت عدة روايات حول التحكيم حاولت أن تصور أبا موسى الأشعري بالرجل الضعيف ، وأن تصف عمرو بن العاص بالمكر والدهاء ، وهي روايات باطلة لا أساس لها . والصحيح أن الحكمين اتفقا على رد الأمر (أي أمر الخلاف بين علي ومعاوية) ، وجعله في النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض . ليقرروا فيه رأيهم . وليس المراد بالأمر هنا الخلاف حول الخلافة كما فهم البعض . انظر : في النظام السياسي للدولة الإسلامية (محمد سليم العوا) ص : ١٠٢/١٠٥ ، العواصم من القواصم ص ١٧٢/١٨١ .

وقتلهم عبد الله بن خباب بن الأرت ، الذي لقوه في طريقهم وقالوا له : هل سمعت من أبيك حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثناه . قال نعم سمعت أبي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ذكر فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي فإن أدركتَ ذلك فكن عبد الله المقتول . ثم سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر فذكرهما بكل خير ، وسألوه عن عثمان في أول خلافته وآخرها فجعله محقاً في أولها وآخرها ، وعن علي قبل التحكيم وبعده فقال : « إنه أعلم بالله منكم وأشدَّ توقياً على دينه ، وأنفذ بصيرة . فأخذوا عليه بذلك أنه لا يتبع الهدى ، فقدموه إلى شفير النهر فذبحوه وبقروا بطن أم ولده عمًّا في بطنها ، وكانت حبلى ، ثم قتلوا بعض النسوة وأخذوا يعترضون الناس ويقتلون الأطفال[1] » ، فبعث إليهم « علي » الحارثَ بن مرة العبدي ليأتيه بخبرهم فقتلوه أيضاً . حينئذ لم يجد علي بُدًّا من الاستجابة لطلب أتباعه الذين رأوا ضرورة المسير إلى الخوارج ليفرغوا منهم قبل التوجه إلى الشام . ولما قابل « علي » الخوارج طلب منهم تسليم قتلة عبد الله بن خباب للقصاص منهم ، فقالوا كلنا قتلناه[2] ، فصمم على قتالهم بعد أن تبين له إنهم الفئة الخارجة التي أشار إليها الرسول عليه الصلاة والسلام في أحاديثه ، وخطب عليٌّ أصحابه وأخبرهم بما سمع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن الخوارج ، وقال هم هؤلاء القوم سفكوا

---

(١) نص الحديث المذكور ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل ، جـ ٥ ، ص ١١٠ ، تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٨١/٨٢ . تلبيس إبليس (ابن الجوزي) ، ص ٩٣ . الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٣ ، ص ٣٤١/٣٤٢ .

(٢) يذهب صاحب « العقود الفضية في أصول الإباضية » إلى أن عبد الله بن خباب قتلته فئة انضمت فيما بعد إلى الخوارج حينما طولبوا بدمه ، يريد بذلك تبرئة الخوارج من دمه . ولكن لا يمكن انكار أن الخوارج إن لم يقتلوه فقد حموا قاتليه ، إضافة إلى أن هذا الزعم يخالف كل الروايات الواردة في هذه القصة . انظر : العقود الفضية ، ص ٦٣ .

الدم الحرام ، وأغاروا على سرح الناس . وهكذا كانت موقعة « النهروان » التي أُبيد فيها الخوارج ولم ينج منهم إلا نفر قليل [1] .

ولكن معركة « النهروان » لم تضع نهاية للخوارج بل أذكت في من بقي منهم روح القتال وكانت ذكرى تلك الموقعة دافعاً لهم إلى مزيد من العنف ، الأمر الذي أدى بهم إلى التخطيط لاغتيال « علي » وتنفيذ ذلك . ولما جاءت الدولة الأموية استمر الخوارج كقوة مناهضة لها ، وخاضوا كثيراً من المعارك الانتحارية ضد جيوش الأمويين وولاتهم ، وظهرت فرق خارجية عديدة كالأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والإباضية وغيرهم . ولما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يردهم إلى الحق[2] ، كما حاول علي بن أبي طالب من قبل ، إذ رأى من بينهم كما قال : أُناساً قد ضللوا فضلوا ، وأنهم كانوا يبغون الحق فأخطأوا سبيله . ولكنه في النهاية يئس من إصلاحهم وردهم إلى الصواب ، ومن ثم لم يكن أمامه إلا قتالهم وحربهم . وهكذا استمر الخوارج شوكة في جنب الدولة الأموية يجهدون ويجاهدون في سبيل إسقاطها وتقويض أركانها ، واستطاعوا في بعض الأحيان أن يبسطوا نفوذهم على أرض فارس والعراق وبعض مناطق من اليمن والجزيرة ، وقابلهم الأمويون عنفاً بعنف وحاولوا سحقهم بكل قسوة وشدة حتى انكسرت شوكتهم . ورغم هذا قام الخوارج بثورات عديدة في أنحاء متفرقة من الدولة العباسية ، فخرج الإباضية في عمان بقيادة الجلندي ضد جيوش السفاح وراح ضحية هذه الحرب قرابة العشرة آلاف[3] . وفي عهد المنصور قاد ملبد بن حرملة الشيباني ، الخوارج بالجزيرة عام ١٣٨ هـ وقتل منهم عدد كبير[4] . وفي المغرب الإسلامي (تونس) وما حولها قاد

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٨١ / ٨٣ ، الفتاوي (ابن تيمية) ، جـ ٤ ، ص ٥٠٠ / ٥٠١ .

(٢) انظر : مروج الذهب (المسعودي) ، جـ ٣ ، ص ٢٠٠ / ٢٠٢ .

(٣) تاريخ الطبري ، جـ ٧ ، ص ٤٦٢ / ٤٦٣ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، ص ٤٥٢ .

(٤) تاريخ الطبري ، جـ ٧ ، ص ٤٩٨ / ٤٩٩ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، ص ٤٨٢ ، ٤٨٥ / ٤٨٦ .

الخوارج بقيادة أبـي حاتم الأباضي حرباً ضد جيوش العباسيين ، دامـت خمسـة عشرة سنة وقتل فيها خلال ٣٧٥ موقعة ما يربو على الثلاثين ألفـاً[١] . وفي عهـد المهدي خرج يوسف بن إبراهيم المعروف بـالبرم بخـراسان[٢] ، كمـا خــرج يس التميمي بالموصل واستولى على ديار ربيعة والجـزيرة[٣] ، وفي عهـد الـرشيد خـرج الصحصح بالجزيرة وغلب على ديار بكر[٤] ، كما شهد عهده أيضاً ثورة الوليد بن طريف بالجزيرة وكانت من أعنف ثـورات الخـــوارج التـــي شـــهدها عصر العباسيين[٥] .

المبادئ العامة للخوارج :

لم تكن للخوارج مبادئ عامة قرروها والتقوا حـولها ، بـل رفعـوا في بـداية أمرهم شعارات التفوا حولها وتحمسوا لها وقاتلوا في سـبيل تحقيقهـا : كقـولهم « لا حكم إلا لله » وتكفيرهم لمخالفيهم واستباحة قتلهم وقتـالهم . ومـن خـلال ممارساتهم تكونت للخوارج آراء عامة حول المشـكلات التـي أثـاروها أو كانـوا طرفاً في إثارتها كمشكلة الإمامة ، ومشكلة مرتكب الكبيرة والحـكم عليـه كفـراً وإيماناً .

أما مشكلة الإمامة فلم تكن للخوارج نـظرية واضـحة حـولها كتلك التـي للشيعة حول ائمتهم ، أو كتلك التي لعامة المسلمين حول من يلي أمر المسـلمين والشروط التي ينبغي توفرها فيه . بل اعتبر شعارهم « لا حكم إلا لله » ؛ تحلـلاً من الالتزام بأمرة معينة ، ومن ثم رد عليهم علي رضي الله عنه بقوله : « كلمـة حق يراد بها بـاطـل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا أمرة إلا

---

(١) الكامل في التاريخ ، جـ ٥ ، ص ٥٩٩/٦٠٢ .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ ٦ ، ص ١٢٤ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٦ ، ص ٤٣ .

(٣) الكامل في التاريخ جـ ٦ ، ص ٧٨ .

(٤) نفس المرجع ، جـ ٦ ، ص ١١٢ .

(٥) نفس المرجع ، ص ١٤١ ــ ١٤٣ .

لله ، وأنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر ، يعمل في أمرته المؤمن ويستمتع بها الفاجر ، ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ويؤخذ به للضعيف من القوي حتى يستريح بر ويستراح من فاجر»[1] .

وقد ذهب النجدات من الخوارج إلى أنه لا حاجة إلى إمام إذا أمكن للناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن هم رأوا أن ذلك (التناصف) لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز[2] . فإقامة الإمام إذن عند النجدات ليست واجبة شرعاً بل هي من الأمور الجائزة وإذا وجبت فإنما تجب بحكم الحاجة والمصلحة . وإذا ما استثنينا هذا الرأي الذي نادى به النجدات ، نجد أن الخوارج حينما انحازوا إلى حروراء نصبوا أميراً للصلاة وأميراً للحرب ، ثم اختاروا لهم أميراً حينما قال لهم أحد زعمائهم : « لا بد أن تولوا رجلاً منكم فإنكم لا بد لكم من عماد وسناد وراية تحفون بها وترجعون إليها[3] » . واختاروا من ثم عبد الله بن وهب الراسبي واعتبروه الإمام الشرعي والخليفة المنتخب . ويذكر ابن أبي الحديد أن الخوارج كانوا في بدء أمرهم يقولون « لا إمرة » ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى إمام ، ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمّروا عبد الله بن وهب الراسبي[4] .

وقد التزموا في اختيار أميرهم مبدأ الشورى والحرية ، وذهبوا إلى أن هذا الاختيار حق لعامة المسلمين ، وأن الخليفة يستمر في وظيفته ما قام بالعدل وأقام الشرع وابتعد عن الخطأ والزيغ فإن حاد وانحرف وجب عزله أو قتله . وقد ذهب الخوارج إلى أن منصب الخلافة حق متاح لأي مسلم كفؤ عربياً كان أم أعجمياً قرشياً كان أم من بقية العرب ، بل فضلوا أن يكون الخليفة غير قرشي

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، ج٢ ، ص ٢١ .

(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(٣) الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ، ج ٣ ، ص ٣٣٥ / ٣٣٦ .

(٤) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ .

ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع أو حاد عن الحق ، إذ لن تكون له عصبة تحميه . وقد اختاروا بناءً على ذلك أميراً لهم من غير قريش وهو عبد الله بن وهب الراسبي . ورغم دعوة الخوارج إلى المساواة بين العرب والعجم فإننا نجد أن معظم أمرائهم كانوا من العرب ، ويقال إنه حينما بايع النجدات بعد خلعهم لنجدة ثابت الثمار ، وهو غير عربي ، قالوا لا يقوم بأمرنا إلا رجل من العرب » واختاروا بدلا منه أميراً لهم عربياً ، وشاركهم ثابت نفسه في الاختيار[1] . وكما رفض الخوارج مبدأ أن تكون الخلافة في قريش ، فإنهم بالمثل رفضوا قصر الخلافة على آل البيت ، أو أن تكون الخلافة بالتعيين أو الوصية كما ذهب الشيعة . والشرط الوحيد الذي وضعوه لتولي الخلافة أن يكون المرء كفؤاً لتولي المنصب ، وقالوا : « وإنما ينبغي أن يلي أمر المسلمين إذا كانوا سواء في الفضل ، أبصرهم بالحرب وأفقههم في الدين ، وأشدهم اضطلاعاً بما حمل[2] » .

وأما المبدأ الثاني للخوارج وهو اعتبار مرتكب الكبيرة كافراً فقد بنى الخوارج رأيهم فيه على قولهم أن العمل بأوامر الدين والانتهاء عن ما نهى عنه جزء من الإيمان ، فمن عطل الأوامر وارتكب النواهي لا يكون مؤمناً بل كافراً إذ الإيمان لا يتجزأ ولا يتبعض . ولم يقف الخوارج عند هذا الحد بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً واتخذوا هذا مبدأ للتبرئ والولاية فمن ارتكب خطأ تبرأوا منه وعدوه كافراً ، ومن اتبع رأيهم وسلم من الذنوب في ظنهم تولوه ، وبناء على ذلك تولوا أبا بكر وعمر وعثمان في سنِّيه الأولى وعلياً قبل التحكيم ، وتبرأوا من عثمان في سنِّيه الأخيرة لأنه ــ في زعمهم ــ غير وبدل ولم يسر سيرة أبي بكر وعمر ، وحكموا بكفره ، وتبرأوا من علي حينما قبل « التحكيم » وحكموا أيضاً بكفره ، كما تبرأوا وكفروا كلًا من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة وأبي موسى

---

(١) الخوارج في العصر الأموي ، ص ٢١٦ .

(٢) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ١٧٥ .

الأشعري وعمرو بن العاص ومعاوية وحكام بني أمية[1] . وقد سيطرت فكرة التولي والبراءة هذه على تفكير الخوارج وكانت نقطة الخلاف الوحيدة بينهم وبين الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز حينما ناقش أمراءهم وأقروا بعدالته وأنه يختلف عمن سبقه ، في أنه رد المظالم ، وعدل بين الرعية ، ولكنهم أخذوا عليه أنه لم يعلن البراءة من آل بيته السابقين[2] . ومن ثم لم يدخلوا في طاعته وينضموا إلى صفوف الجماعة المسلمة . ويذهب الأباضية المعاصرون إلى أن البراءة من العاصي يقصد بها هجرانه وبغضه على معصيته ، مستندين في ذلك إلى فعل النبي صلى الله عليه وسلم في الثلاثة الذين خلفوا حتى إذ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت إلخ وأحاديث المحبة للمطيع والبغض للعاصي[3] .

والذي أدى بالخوارج إلى مثل هذه الآراء هو سوء فهمهم للقرآن فهم لم يقصدوا معارضته ، ولكن فهموا منه ما لم يدل عليه ، فظنوا أنَّه يُوجب تكفير أرباب الذنوب ، إذ كان المؤمن هو البر التقي ، فمن لم يكن براً تقياً فهو كافر وهو مخلد في النار ، ثم قالوا : إن عثمان وعلياً ومن والاهما ليسوا بمؤمنين لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله . فكانت بدعتهم لها مقدمتان ـ كما يقول ابن تيمية ـ الأولى أن من خالف القرآن بعمل أو رأي أخطأ فيه فهو كافر . والثانية أن عثمان وعلياً ومن والاهما كانوا كذلك ، وكلا المقدمتين خطأ[4] . وقد استشهد الخوارج في هذا المقام ببعض الآيات القرآنية مثل قوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين ﴾[5] . وقالوا إن الله وصف تارك الحج بالكفر ، وترك الحج ذنب ، فإذن كل مرتكب

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٧٢/ ٧٤ . الفتاوي (ابن تيمية) ، جـ ٤ ، ص ٤٦٧/ ٤٦٨ .

(٢) مروج الذهب (المسعودي) ، جـ٣ ، ص ٢٠٠/ ٢٠٢ ، سيرة عمر بن عبد العزيز (ابن الجوزي) ، ص ٧٧/ ٧٨ .

(٣) العقود الفضية ، ص ٢٨٩/ ٢٩٠ .

(٤) الفتاوي (ابن تيمية) ، جـ١٣ ، ص ٣٠/ ٣١ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

للذنب كافر . واستشهدوا أيضاً بالآيات التالية : ﴿ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ﴾[1] . وقالوا إن الفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ووجب من ثم أن يسمى كافراً . وأيضاً يقول الله تعالى ﴿ وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾[2] ، والفاسق على وجهه غبرة فوجب أن يكون من الكفرة[3] .

وهذه الآيات التي استشهد بها الخوارج واضح فيها تمسكهم بظواهر النصوص ، ومحاولة فهمها من غير اعتبار للآيات الأخرى التي تصف مرتكب الكبيرة بأنه مؤمن ، ومن غير اعتبار لعمل الرسول عليه الصلاة والسلام وسنته التي تبين القرآن وتفسره . وهذه الآيات التي احتج بها الخوارج تصف حال المؤمنين والكفار في الآخرة ، فبينما تبيض وجوه المؤمنين ويعلوها البشر ، تسود وجوه الكفار وتعلوها الغبرة[4] ، فالحديث فيها ليس عن عصاة المؤمنين ، كما أن آية الحج ليس الكفر فيها وصفاً لمن لم يحج ، إنما الكفر فيها وصف لمن أنكر فريضة الحج وجحد وجوبها[5] .

وقد أدرك علي بن أبي طالب رضي الله عنه خطأ منهج الخوارج في فهم القرآن وعدم اعتمادهم على السنّة التي تبين نصوصه . ومن ثم جادلهم حينما جادلهم ، وأوصى رسله بأن يجادلوهم لا بنصوص القرآن فحسب ، بل أورد لهم عمل الرسول عليه الصلاة والسلام وسنته . وبين لهم أن الخطأ في العمل لا يقتضي الكفر حيث إن الرسول عليه الصلاة والسلام رجم الزاني المحصن ثم

(١) سورة آل عمران : آية ١٠٦ .

(٢) سورة عبس : آية ٣٨ ــ ٤٢ .

(٣) العقود الفضية ، ص ٢٨٨ .

(٤) انظر : تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ ، جـ ٤ ، ص ٤٧٤ .

(٥) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٣٨٦ .

صلى عليه وورَّثه أهله . وقتل القاتل وورَّث ميراثه أهله . وقطع يد السارق وجلد الزاني غير المحصن ثم قسم عليهما من الفيء ونكحا المسلمات . فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ، ولم يخرج أسماءهم من بين أهله[1] . وهكذا نجد أن أسلاف الخوارج كما يقول ابن حزم : كانوا أعراباً قرأوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء لا من أصحاب ابن مسعود ولا أصحاب عمر . . . ولهذا تجدهم يكفر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا وصغارها »[2] .

فرق الخوارج :

تفرقت الخوارج إلى عدة فرق بلغ بها بعض كتاب الفرق العشرين ، ومما يلاحظ أن الخلاف بين هذه الفرق لم يكن في أمور خطيرة تؤدي إلى الانشقاق وتكوين فرقة مستقلة ، بل إن معظم نزاعاتهم كانت تدور في كثير من الأحيان حول أمور فرعية . ومن ذلك العدد الذي ذكره كتاب الفرق يمكن أن نشير إلى أهم فرق الخوارج المتمثلة في ؛ المحكمة الأولى ، الأزارقة ، النجدات ، الصفرية ، الإباضية ، رغم أن بعض الإباضية المعاصرين ينكرون نسبة هذه الفرقة إلى الخوارج . ويؤيد هذا التقسيم ما ذكره الأشعري من أن أصل قول الخوارج إنما هو قول الأزارقة والإباضية والصفرية والنجدية ، وكل الأصناف سوى الأزارقة والإباضية والنجدية فإنما تفرعوا عن الصفرية[3] .

المحكمة الأولى :

يشار بالمحكمة الأولى إلى أولئك الذين خرجوا على الخليفة « علي بن أبي

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ٨ ، ص ١١٢ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (ابن حزم) ، جـ ٤ ، ص ١٥٦ .

(٣) مقالات الإسلاميين ، ص ١٠١ .

طالب » ورفعوا شعار « لا حكم إلا لله » والتفوا حوله ، ويجمعهم كما يقول البغدادي تكفير علي وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين ومن رضي بالتحكيم وصوَّب الحكمين أو أحدهما ، والخروج على السلطان الجائر ، هذا مع اختلافهم في تكفير مرتكب الكبيرة إذ أن النجدات لا يكفرون أصحاب الحدود من موافقيهم[1] . وقد أشرنا من قبل[2] ، إلى موقف هؤلاء الخوارج مع علي ومحاولته إقناعهم ثم تآمرهم على اغتياله . وكيف أنهم قادوا عدة ثورات وحملات إرهابية على عهد الخليفة معاوية رضي الله عنه . ثم انفرط عقدهم إلى عدة جماعات غلا بعضها وتطرف ونهج بعض منها نهجاً معتدلا .

الأزارقة :

هم أتباع أبي راشد نافع بن الأزرق الحنفي ، وكان نافع كما يُذْكر على قدر كبير من الشجاعة ، وعلى معرفة بالقرآن ومقدرة على الخطابة ، ويقال إنه كان ينتجع عبد الله بن عباس وهو بمكة يسأله عن تفسير القرآن ، وفي إحدى المرات أخذ نافع يسأل ابن عباس عن المفردات اللغوية في القرآن الكريم حتى ملَّه ابن عباس وضجر منه[3] . وذهب نافع ومعه رؤساء الخوارج وجماعات منهم إلى مكة في عهد ابن الزبير ، حينما هددها جيش مسلم بن عقبة ، ليمنعوا حرم الله تعالى ، ويدافعوا عنه ، كما قالوا ، ولم يُظْهِر ابن الزبير معارضة لهم ، ومن ثم قاتلوا معه مسلم بن عقبة ولكن لم يبايعوه . ثم قرروا اختبار ابن الزبير ومعرفة رأيه ، وقالوا : ندخل إلى هذا الرجل فننظر ما عنده ، فإن قدم أبا بكر وعمر وبرئ من عثمان وعلي وكفر أباه وطلحة بايعناه ، وإن تكن الأخرى ظهر لنا ما عنده فتشاغلنا بما يجب علينا . وتبين للخوارج ، بعد لقائهم بابن الزبير ، أنه يخالفهم الرأي وأنه يتولى عثمان ولا يكفر الصحابة رضوان الله عليهم ،

(١) الفرق بين الفرق ، ص٧٣ .

(٢) انظر ص ٤٠ وما بعدها .

(٣) الكامل في الأدب (المبرّد) ، جـ٢ ، ص ١٣٧ ، ١٦٣/١٦٤ .

ومن ثَمَّ تفرقوا عنه وفارقوه[1] . فصارت طائفة منهم إلى البصرة ، وطائفة إلى اليمامة[2] ، وكان نافع بن الأزرق ، ممن ذهب إلى البصرة ، حيث جهر ببعض آرائه المتطرفة ، والتي فارقه بسببها طوائف من الخوارج ، كقوله بكفر مخالفيه ، ومعاملتهم معاملة الكفار ، وبراءته من القعدة ، وتكفير كل من لم يهاجر إلى معسكره[3] . ويذكر الأشعري أن نافع هو الذي أحدث أول خلاف بين جماعة الخوارج ، وسبب ذلك ، كما يُحكى ، أن امرأة خارجية من أهل اليمن تزوجت أحد الموالي من الخوارج ، فلما عيَّرها أهلها بذلك خيرت زوجها بين ثلاثة أمور : الهجرة إلى معسكر الخوارج حتى يكونا في مأمن ، أو أن يخبئها عن قومها ، أو يخلي سبيلها ، فاختار زوجها فراقها . فأجبرها أهلها على الزواج من ابن عم لها غير خارجي ، ولما بلغ أمرهما الخوارج اختلفوا ، فذهب بعضهم إلى أنهما لم يكن لهما أن يختارا غير الخروج واللحاق بمعسكر الخوارج ، وتبع نافع بن الأزرق هذا الرأي ، وتبرأ ممن قال بالتقية وأجاز لهما القعود . وقد سميت هذه الجماعة التي اتَّبعت نافع في رأيه هذا وما تبعه من آراء بالأزارقة[4] . وقاد نافع هذه الجماعة من البصرة إلى الأهواز ، وسيطروا عليها وعلى ما وراءها من بلاد فارس وكرمان وأقام هو وأصحابه يستعرضون الناس ، ويسفكون الدماء ويقتلونَ الأطفال حتى روعوا سكان هذه الأماكن وامتد نفوذهم إلى البصرة . ودخل معهم عمال ابن الزبير في تلك الجهات في عدة مواقع لم يستطيعوا فيها هزيمة الأزارقة ، ومن أشهر هذه المعارك موقعة دولاب التي تقاتل فيها الفريقان حتى تكسرت النصال وقتل فيها نافع بن الأزرق[5] . واستمر الأزارقة بعد نافع ، وقادوا عدة حملات ضد ولاة عبد الله بن الزبير ، ولما استولى

---

(١) الكامل (المبرد) ، جـ ٢ ، ص ٢٠٣ / ٢٠٦ ، تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٥٦٣ / ٥٦٦ .

(٢) الكامل (المبرد) ، جـ ٢ ، ص ٢١٧ / ٢١٨ .

(٣) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ .

(٤) مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٨٨ / ٨٩ .

(٥) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٦١٣ / ٦١٤ .

الأمويون من بعد ابن الزبير على تلك الجهات ، دخلوا مع الأزارقة أيضاً في حروب عنيفة واستطاع القائد المهلب بن أبي صفرة أن يلحق بهم عدة هزائم حتى كسر شوكتهم . وكان الأزارقة قد بايعوا ، بعد نافع عدة أمراء من أشهرهم الشاعر المشهور قَطَرِيُّ بن الفجاءة ، ولكن نزاعاً وقع بينه وبين جماعة من الأزارقة الذين بايعوه بالخلافة ، وأدى النزاع إلى اتهامهم له بالكفر واستتابته ، وأخيراً خلعوه ، كما يقول الأشعري ، وصار إلى طبرستان مع جماعة وغلب عليها ، ولكن لحقت به جيوش الأمويين وأوقعت به الهزيمة وانتهى الأمر بمقتله[1] . وبهذا ضعف أمر الأزارقة كجماعة اشتهرت بالعنف والقسوة وشدة البطش والبأس ، وامتلأ تاريخهم بالدماء والقتل والنهب والسلب ، وأكدوا كل هذه الصفات في مبادئهم وتعاليمهم التي تبنوها وحاولوا بكل عنف تطبيقها .

وقد أكد الأزارقة ارتباطهم بالمحكمة الأولى بتكفيرهم علياً وقولهم إنه هو الذي نزل فيه قول الله تعالى ﴿ ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام ﴾[2] ، وفي المقابل صوبوا قتله وعدوا ابن ملجم ، قاتله ، من الذين باعوا أنفسهم لله وفيه ورد : ﴿ ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[3] . كما ذهبوا إلى أن من ارتكب كبيرة من الكبائر يكفر كفر ملة ويخرج بذلك من الإسلام ويكون مخلداً في النار مع سائر الكافرين[4] . وزاد الأزارقة بأن وضعوا حدوداً فاصلة بينهم وبين جماعة المسلمين

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٣٠٩ ، مقالات الإسلاميين ، ص ٨٧ / ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٠٤ ، وهذه الآية نزلت في الأخنس بن شُرَيْقُ أحد المنافقين ، انظر صفوة التفاسير (الصابوني) ، جـ ١ ، ص ١٣٢ ، والصحيح كما يقول ابن كثير ، إنها عامة في المنافقين كلهم . انظر تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، جـ ١ ، ص ٢٤٥ / ٢٤٦ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٠٧ ، وقد نزلت هذه الآية في صهيب الرومي الذي نزل عن ماله للمشركين كي يُخَلُّو بينه وبين دينه ، انظر تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ .

(٤) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٢٢ .

ممن ليسوا على رأيهم . فذهبوا إلى أن مخاليفهم مشركون ، وألحقوا بهم في الشرك أطفالهم ، وأنهم جميعاً مخلدون في النار ، ومن ثم يحل قتلهم وقتالهم . وأن دار مخاليفهم دار حرب يستباح منها ما يستباح في دار الحرب من قتل الأطفال والنساء وسلب الذراري وغنيمة الأموال ، وأن من خالفهم لا يحفظ له عهد ولا تؤدى إليه أمانة ، وأن من أقام في دار الكفر (يقصدون غير معسكرهم) وقعد عن اللحاق بهم ، وإن كان على رأيهم ، اعتبروه مشركاً . وأن من قصدهم لا بد من استعراضه وامتحانه للتأكد من صدق نيته وذلك بأن يدفع إليه أسير من مخالفيهم ، ويأمروه بقتله فإن قتله صدقوه في دعواه أنَّه منهم ، وإن لم يقتله اعتبروه منافقاً ومشركاً وقتلوه[1] .

وبالإضافة إلى هذه الآراء الشاذة نادى الأزارقة ببعض الآراء التي تنم عن جهلهم بالشرع وعدم فقههم في الدين من ذلك : إسقاطهم حد الرجم عن الزاني المحصن بحجة أنه لم يرد في القرآن نص عليه[2] . كما أسقطوا أيضاً حد القذف عن من قذف المحصنة من الرجال مع وجوب الحد على قاذف المحصنات من النساء ، تمسكاً أيضاً ــ في زعمهم ــ بما ورد في القرآن[3] . وذهبوا أيضاً إلى أن يد السارق تقطع في القليل والكثير من غير اعتبار لنصاب الشيء المسروق ، وأن القطع يكون من المنكب ، كما أوجبوا على الحائض الصلاة والصوم في حيضها[4] . كما أنهم حرموا قتل النصارى واليهود وأباحوا قتل المسلمين . وهذه الآراء واضح فيها الجهل وعدم العلم والفهم للقرآن ، وعدم الإلمام بالسنَّة ، ويصدق عليهم بهذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم « يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم » .

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٨٣ ، الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٢١ / ١٢٢ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

(٣) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ١٢١ .

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، (ابن حزم) ، جـ ٤ ، ص ١٨٩ .

النجــدات :

اتباع نجدة بن عامر الحنفي ، الذي يقال إنه كان باليمامة حيث تخلف عن نافع بن الأزرق عند عودتهم جميعاً من مكة . وبينما هــو في طــريقه للحــاق بمعسكر نافع بن الأزرق ، قابله من أطلعه على ما أحـدثه نـافع مـن آراء عــن استباحة قتل أطفال مخالفيه ، وحكمه على القعدة بـالشرك[1] . فيقـال إن نجـدة رجع ثانية إلى اليمامة وأعلن انفصاله عن نافع وتبريه منـه ، وبـويع لـه بـالإمامة وأصبح أميراً على طائفة من الخوارج عرفوا بالنجدات[2] . وأصبح لنجدة وأتبـاعه نفوذ في دائرة واسعة شملت البحـرين وشواطـئ الخليـج ، وامتـدت إلى عمـان وبعض أجزاء من اليمن .

وقد أنكر نجدة على الأزارقة إكفارهم للقعدة منهم مـمن لم يهاجر إليهم ، وامتد الأمر إلى تكفير نافع ومن قال بإمامته[3] . ويقال إن نجـدة كتـب كتـاباً إلى نافع أخذ عليه فيه تكفيره القعدة مع أن الله عذرهم في قـوله تعـالى ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حـرج إذا نصـحوا لله ورسوله ﴾[4] ، وأنكر عليه أيضاً استباحته قتل الأطفال ، لنهـى الـرسول عليـه الصلاة والسلام عن ذلك ، ولقوله تعالى ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ وتبـودلت الكتب بين نافع ونجدة ، ولكن لم يقنع أحد منهما الآخر[5] .

وكرد فعل لآراء نافع في القعدة ، أجاز نجدة « التقية » واحتج بقـوله تعـالى

---

(١) ويذهب ابن أبـي الحديد إلى أن نجدة كان مع نافع فلما جهر نافع بمقالته تفرق عنه جماعة من الخوارج منهم نجدة بن عامر . شرح نهج البلاغة ، جـ ٤ ، ص ١٣٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ٨٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٨٧ .

(٤) سورة التوبة : آية ٩١ .

(٥) الكامل (المبرد) ، جـ ٢ ، ص ٢٠٩ / ٢١٢ ، شرح نهج البلاغة (ابن أبـي الحديد) ، جـ ٤ ، ص ١٣٧ / ١٣٩ .

﴿ إلا أن تتقوا منهم تقاة ﴾[1] ، وبقوله تعالى ﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾[2] . وأجاز من ثم القعود ، ولكن الجهاد إذا أمكن أفضل وفقاً لقوله تعالى ﴿ وفضَّل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً ﴾[3] .

وذهب النجدات إلى أن الدين أمران : أحدهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وتحريم دماء المسلمين ، (يقصدون موافقيهم في المذهب) ، والإقرار بما جاء من عند الله جملة . فهذا واجب على الجميع والجهل به لا يعذر فيه . والثاني : ما سوى ذلك فالناس معذورون فيه إلى أن تقوم عليهم الحجة في الحلال والحرام . وتَبنَّى النجدات مبدأ العذر بالجهل في احكام الفروع حتى سُمُّوا (العاذرية)[4] . والذي دعاهم إلى ذلك ، أن جماعة منهم على رأسهم ابن نجدة نفسه ، بعث بهم إلى أهل القطيف فأصابوا غنائم وسبايا ، فأباحوا لأنفسهم نكاح السبايا قبل إخراج الخمس منها ، وقالوا إن خرجت من نصيبنا فبها وإلا دفعنا من أموالنا مقابلها . ولما بلغ الأمر نجدة وأصحابه اختلفوا فبعضهم برّر هذا الفعل واعتذر لمن قاموا به والبعض الآخر أنكره ، وكان نجدة مع الذين عذروا هؤلاء لجهلهم بحكم الله[5] . وهكذا أصبح الجهل بالحكم عذراً عند بعض النجدات .

وقد فرّق النجدات في الحكم على مرتكب الذنب بين من يأتي الذنوب ويصر عليها ، وبين من يأتيها من غير إصرار . واعتبروا الأول مشركاً وإن كان الذنب نظرة بسيطة أو كذبة صغيرة أو غيرها من الصغائر ، وأما الثاني فهو مسلم وإن اقترف الكبائر كالزنا والسرقة وشرب الخمر . وبناء على هذا يمكن أن يفهم ما نسب إلى نجدة من أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه وقال : لعل

---

(١) سورة آل عمران : آية ٢٨ .

(٢) سورة غافر : آية ٢٨ .

(٣) سورة النساء : آية ٩٥ .

(٤) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٢٤ ، الفرق بين الفرق ، ص ٨٩ .

(٥) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

الله يعذبهم بذنوبهم في غير جهنم ثم يدخلهم الجنة ، وزعم أن النار لا يدخلها إلا من خالف في دينه . وينسب إلى النجدات أيضاً إنهم أسقطوا حد الخمر[1] ، وقالوا بعدم وجوب الإمامة كما سبق أن أشرنا .

وقد اختلف النجدات مع نجدة ونقموا عليه عدة أشياء من بينها تعطيله حد الخمر ، وعدم عدله في قسم الفيء ، وتفريقه الأموال بين الأغنياء من أتباعه وحرمانه ذوي الحاجة منهم ، ومكاتبته عبد الملك بن مروان ، ويقال أنه لما أحدث هذه الأحداث وعذر أتباعه بالجهالات ، استتابه أكثر أتباعه ، وطلبوا منه أن يعلن توبته في المسجد ففعل ذلك ، فندمت طائفة منهم على استتابته وانضموا إلى العاذرين وقالوا أنه الإمام وله حق الاجتهاد ولا يجوز استتابته وطلبوا منه أن يتوب من توبته فاختلف أصحابه أيضاً ، فكفرته طائفة لخلعه نفسه ، وكان من أشدهم عليه أبو فديك الذي يقال أنه وثب على نجدة فقتله وبويع له بالإمامة . فأنكر أصحاب نجدة تصرف أبي فديك فتبرأوا منه وتولوا نجدة ، وكتب أبو فديك إلى عطية بن الأسود (أحد رؤوس النجدات) يخبره بما اكتشفه من ضلال نجدة وقتله إياه وأنه أحق بالخلافة منه ، فكتب عطية إلى أبي فديك طالباً منه أن يأخذ له البيعة ممن قِبَلَه ، فأبى ذلك أبو فديك ، فبرئ كل واحد منهما من صاحبه ، وصارت الدار لأبي فديك ، وتبعه بعض النجدات ، وظل البعض على الولاء لنجدة فصار النجدات كما يقول الأشعري ثلاث فرق : النجدية والعطوية والفديكية[2] .

وكانت هذه الخلافات بداية لنهاية هذه الفرقة واضمحلال أمرها وتلاشي أثرها .

الصُفَّرية :

هناك خلاف واسع حول نسبة الصفرية وهل سموا بذلك نسبة للصفرة التي

---

(١) الملل والنحل ، ص ١٢٤ ، الفرق بين الفرق ، ص ٨٩ ، مقالات الإسلاميين ، ص ٩١ .
(٢) مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٩١/٩٢ . الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٢٤ .

تعلو وجوههم من أثر العبادة والزهد ، أم سموا بذلك نسبة إلى رجل بعينه كما نسبت الأزارقة والنجدات والأباضية . ومن ذهبوا إلى هذا الرأي الأخير اختلفوا في هوية من ينتسب إليه الصفرية : هل هو عبد الله بن صفار أم زياد بن الأصفر أم النعمان بن صفر أم المهلب بن أبي صفرة . وأرجح هذه الأقوال ، أن هذه الفرقة تنسب إلى عبد الله بن صفار التميمي الذي كان مع ابن الأزرق في بداية عهده ثم انفصل عنه عند وقوع الخلاف بين قادة الخوارج[1] .

والصفرية على كل أقل شذوذاً وغلواً من الأزارقة إذ أنهم خالفوا هؤلاء رأيهم في القعدة ومرتكب الكبير . فلم يكفروا القعدة كما ذهب الأزارقة ما داموا موافقين لهم في الدين والاعتقاد ، ولم يكفروا مرتكب الكبيرة على الإطلاق كما فعل الأزارقة . بل ميزوا بين الذنوب التي فيها حد مقرر كالزنا والسرقة ، فهذه في رأيهم لا يتجاوز بمرتكبها ما سماه الله به من أنه زان أو سارق أو قاذف إلخ . وأما الذنوب التي ليس فيها حد مقرر كترك الصلاة والفرار من الزحف ، فمرتكب مثل هذه الذنوب يعتبرونه كافراً[2] ، ولا يرى الصفرية أن دار مخالفيهم دار حرب ، كما لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم ، ولا يقولون بخلودهم في النار ، ولم يجيزوا سبي الذرية والنساء . وللصفرية آراء في الشرك والكفر والبراءة يذهبون فيها إلى أن الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان . والكفر كفران كفر بإنكار النعم وكفر بإنكار الربوبية . والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود سنة . وبراءة من أهل الجحود فريضة[3] .

---

(١) انظر لتفاصيل هذا الاختلاف : الخوارج في العصر الأموي ، ص ٢٣٤ / ٢٣٦ . خطط المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٣٥٤ ، مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ١٠١ ، الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٣٧ ، الفرق بين الفرق ، ص ٩١ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

ولم يسقط الصفرية عقوبة الرجم كما فعل الأزارقة ، وأجازوا التقية كالنجدات ، ولكن في القول دون العمل[1] . وينسب إلى بعضهم جواز تزويج المسلمات (أي الخارجيات) من كفار قومهم (بقية المسلمين) في دار التقية دون دار العلانية[2] .

وقد تولى الصفرية المحكمة الأولى ، كعبد الله بن وهب الراسبي ، وحرقوص بن زهير . وقالوا بإمامة أبي بلال مرداس الخارجي ، الذي خرج أيام يزيد بن معاوية ناحية البصرة ، وقتلته جيوش عبد الله بن زياد ، ورثاه عمران بن حطان ، الذي كان شاعراً ناسكاً وأصبح إماماً للصفرية بعد أبي بلال بقوله :

أنكرت بعدك ما قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس[3]

وقد قام الصفرية بعدة ثورات في الشمال الإفريقي في عهد الأمويين . ففي عهد هشام بن عبد الملك (٧١/١٢٥ هـ ــ ٦٩٠/٧٤٣) خرج ميسرة المضفري بنواحي طنجة ، ونجح في حمل البربر على الخروج عن طاعة الخليفة الأموي ، واستطاع أن يخضع سائر المغرب الأقصى جنوب طنجةحتى وصل إلى السوس ، وبويع بالخلافة وخاطبه البربر بأمير المؤمنين . ثم اتهم بممالئة العرب وخلع عن الإمارة وبويع بدله خالد بن حميد الزناتي ، ولكن جيوش الخلافة تمكنت من إخماد هذه الحركة عام ١٢٣ هـ[4] . كما شهد العهد العباسي أيضاً بعض الثورات الخارجية الصفرية ، ومن بينها ثورة الصفرية بناحية مكناسة في المغرب الأقصى بقيادة عيسى بن أبي يزيد الذي تجمع حوله الصفرية من بني مدرار

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٣٧ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الفرق بين الفرق : ٩١/٩٣ .

(٤) كتاب البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب (ابن عذاري المراكشي) ــ ليدن ١٩٤٨ ، جـ ١ ، ص ٥٢/٥٤ . الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (أحمد بن خالد الناصري) ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

واختطوا لأنفسهم مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، واقتطعوها لأنفسهم من ولاية القيروان . وظل أبو يزيد أميراً نحواً من خمسة عشر عاماً ، ثم بويع من بعده لأبي القاسم بن سمكوا المكناسي الصفري الذي يقال أنه كان يدين بالولاية للخليفة العباسي[١] . وكانت هناك ولاية خارجية صفرية تحت زعامة أبي قرة الصنهاجي الذي استطاع أن يحاصر القيروان وأن يستولي عليها[٢] .

الإباضية :

الإباضية ينتسبون إلى عبد الله بن إباض[٣] ، وقد اختلف مؤرخوا الفرق في هوية ابن إباض ، فبينما يذهب الشهرستاني إلى أنه هو الذي خرج أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية[٤] ، يذهب الطبري إلى أن ابن إباض كان مع نافع بن الأزرق وأنه انشق عنه[٥] . والإباضية أنفسهم يؤيدون ما ذهب إليه الطبري ، ويقولون أن ابن إباض ظهر في أيام معاوية ، وعاش إلى زمن عبد الملك بن مروان . وكان في أول أمره مع نافع بن الأزرق ، ولكن اختلف معه وفارقه ورد عليه[٦] . وتذكر كتب الإباضية سبب الفرقة بين ابن إباض ونافع فتقول : إن نافع بن الأزرق كتب إلى ابن الصفار ، (صاحب الصفرية) ، وعبد الله بن إباض ، وغيرهما ، (ويبدو أنهم جميعاً كانوا مع عبد الله بن الزبير

---

(١) البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٥٦ ، الاستقصاء ، جـ ١ ، ص ١١١/١١٢ .

(٢) الاستقصاء ، جـ ١ ، ص ١١٦ .

(٣) عبد الله بن إباض بن تيم اللات بن ثعلبة التميمي من بني مرة بن عبيد رهط الأحنف بن قيس ، العقود الفضية ، ص ١٢١ ، وهناك خلاف بين الإباضية حول فتح همزة أباض أو كسرها ، فالإباضية في عمان يفتحون الهمزة ، وبذلك تصبح النسبة إلى أباض « الأباضية » وفي شمال أفريقيا يكسرون الهمزة وتصبح النسبة إلى أباض « الإباضية » .

(٤) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٥) تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٥٦٦/٥٦٧ .

(٦) العقود الفضية في أصول الأباضية : ص ١٢١/١٢٢ .

بمكة ثم تفرقوا) يدعوهما ، ومن معهما إلى معتقده الفاسد (في تكفير القعدة ، والقول بشرك مخالفيهم ، واستباحة دمائهم وقتل أطفالهم وسبي نسائهم وغنيمة أموالهم) . فقرأ ابن الصفار الكتاب في نفسه ، ولم يطلع أصحابه عليه ، خشية أن يختلفوا ، أما ابن إباض فقرأ الكتاب وأظهر إنكاره لما ورد فيه قائلاً : عن ابن الأزرق : قاتله الله أيَّ رأي رأى ، صدق نافع بن الأزرق لو كان القوم مشركين ، كان أصوب الناس رأياً ، وحكماً فيما يشير به ولكنه قد كذب وكذبنا فيما يقول ، إن القوم بُرَاءُ من الشرك ، ولكنهم كفار بالنعم والأحكام . ولا يحل لنا إلا دماؤهم ، وما سوى ذلك من أموالهم فهو حرام علينا ، فقال ابن صفار : برئ الله منك فقد قصرت ، وبرئ الله من ابن الأزرق فقد غلا ، برئ الله منكما جميعاً ، وقال الآخر فبرئ الله منك ومنه[1] .

ورغم اعتراف ابن إباض ـ في هذا النص ـ باستحلال دماء مخالفيهم ، فإن كتب الإباضية تحاول تبرئته من هذا وتصوره بأنه لم يخض في حروب الخوارج التي كانت على أشدها آنذاك ، بل إنه اكتفى بأن دخل في جدال عنيف وصراع فكري مع كل من الأمويين والخوارج . فأنكر على الأمويين ظلمهم الناس وعدم إقامتهم العدل بينهم ، ورفض أراء الخوارج الأزارقة في قولهم بشرك مخالفيهم وشرك مرتكب الكبيرة[2] . ويقال أنه بعد قتل أبي بلال الخارجي ، اجتمع الخوارج في جامع البصرة وعزموا على الخروج ، وفيهم عبد الله بن إباض ونافع بن الأزرق وغيرهم ، وفي الليل سمع ابن إباض دوي القراء ورنين المؤذنين وحنين المسبحين فقال لأصحابه « أعن هؤلاء أخرج معهم ؟ فرجع وكتم أمره واختفى »[3] .

ورغم ما قام به ابن إباض وارتباط هذه الجماعة باسمه ، فإن الإباضية

---

(١) العقود الفضية ، ص ١٢٣ ، انظر أيضاً ، الكامل (ابن الأثير) ، جـ ٤ ، ص ١٦٧/١٦٨ ، تاريخ الطبري ، جـ ٥ ، ص ٥٦٨ ، الكامل (المبرد) ، جـ ٢ ، ص ٢١٢/٢١٤ .

(٢) العقود الفضية ، ص ١٢١ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٢ .

يعودون بأصولهم لا إلى ابن إباض فحسب ، بل إلى جماعة من التابعين وتابعي التابعين كجابر بن زيد ، وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب وغيرهم . أما جابر فهو جابر بن زيد الأزدي الجوفي أبي الشعثاء وُلد عام واحد وعشرين وقيل سنة اثنين وعشرين وقيل سنة ثماني عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[1] ، وتوفي في عام ثلاث وتسعين في جمعة واحدة مع أنس بن مالك[2] ، ويذهب ابن سعد إلى أنه توفي عام ١٠٣ هـ[3] . وقد كان تلميذاً لحبر الأمة عبد الله بن عباس ، وروى عنه ، كما روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهم ، وابن الزبير والحكم بن عمرو الغفاري ومعاوية بن أبي سفيان وغيرهم . وروى له البخاري ومسلم في صحيحيهما ، وأخذ عنه قتادة وعمرو بن دينار ويعلى بن مسلم وأيوب السختياني وعمرو بن هرم وجماعة ، وقال عنه ابن عباس : لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً من كتاب الله . وقال فيه إياس بن معاوية : أدركت الناس وما لهم مفت غير جابر بن زيد[4] . ورغم أن يحيى بن معين يقول عن جابر أنه كان إباضياً ، فإن ابن حجر يورد عن داود بن أبي هند عن عزرة[5] قوله : « دخلت على جابر بن زيد فقلت : إن هؤلاء القوم ينتحلونك (يعني الإباضية)

---

(١) العقود الفضية ، ص ٩٣ . ويؤكد صاحب مختصر تاريخ الإباضية أنه ولد عام ١٨ هـ ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٢٤ .

(٢) التاريخ الصغير (البخاري) ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .

(٣) الطبقات الكبرى (ابن سعد) ، مجلد ٧ ، ص ١٨٢ . ويؤيد الإباضية المعاصرون ما رواه الإمام أحمد من أن جابراً توفي عام ثلاث وتسعون على أساس أنها رواية أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة أحد تلامذة جابر الكبار : انظر العقود الفضية ، ص ٩٣/ ٩٤ ، أجوبة ابن خلفون (أبي يعقوب يوسف بن خلفون) ، ص ٩ .

(٤) تهذيب التهذيب ، ج ٢ ، ص ٣٨ . طبقات ابن سعد ، ج ٧ ، ص ١٨٠ .

(٥) هو عزرة بن عبد الرحمن الخزاعي ، كوفي ثبت كان يختلف إلى سعيد بن جبير . تهذيب التهذيب (ابن حجر) ، ج ٧ ، ص ١٩٢/ ١٩٣ . التاريخ الصغير (البخاري) ، ج ١ ، ص ٢٢٧ .

قال أبرأ إلى الله من ذلك[1] . والإباضية يعتبرون جابر بن زيد ، المؤسس الحقيقي للمذهب ، إذ أنه كان الإمام الروحي وفقيه الإباضية ومفتيهم ، وكان بالفعل الشخص الذي بلور الفكر الإباضي بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب ، بينما كان ابن إباض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الأقطار[2] . وإذا كان جابر بن زيد بهذه المكانة العلمية وأنه كان عالم الخوارج وإمامهم ، فلماذا نسبت الفرقة إلى ابن إباض ولم تنسب إليه ؟ للإجابة على هذا السؤال ، ذهب أحد الإباضية المعاصرين إلى أنه لا يدري السبب في عدم نسبة المذهب إلى جابر مع أنه أفقه وأعلم أهل زمانه ، وقد قيل أن ابن إباض يصدر في كل شؤونه عن فتواه ولا يبت في أمر من الأمور إلا بمشورته ورضاه[3] . بينما ذهب كاتب آخر في تفسير ذلك إلى أن نسبة المذهب إلى ابن إباض نسبة عرضية كان سببها بعض المواقف الكلامية والسياسية التي اشتهر بها ابن إباض وتميز بها فنسب المذهب الإباضي إليه . ولم يستعمل الإباضية في تأريخهم المبكر هذه النسبة فكانوا يستعملون عبارة « جماعة المسلمين » أو « أهل الدعوة » وأول ما ظهر استعمالهم لكلمة الإباضية كان في آخر القرن الثالث الهجري[4] .

أما أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي فقد توفي في ولاية أبي جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ) وأدرك جابر بن زيد ، كما أدرك من أدركه جابر بن زيد من الصحابة وروى عن جابر بن عبد الله وأنس بن مالك وغيرهم[5] ، أخذ

(١) تهذيب التهذيب (ابن حجر) ، جـ ٢ ، ص ٣٨ ، طبقات ابن سعد ، جـ ٧ ، ص ١٨١ .

(٢) انظر ، الأصول التاريخية للفرقة الإباضية (عوض محمد خليفات) ، ص ٢٩ ، عمان في فجر الإسلام (سيدة إسماعيل كاشف) ، ص ٥٥ وما بعدها .

(٣) مختصر تاريخ الإباضية (أبي ربيع سليمان الباروني) ، ص ٢٤ .

(٤) أجوبة ابن فرحون ، ص ٩ . هامش ١ . النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية (عوض محمد خليفات) ، ص ١٥ .

(٥) أجوبة ابن فرحون ، ص ١٠٧ ، الإباضية بين الفرق الإسلامية (علي يحيى معمر) ، ص ١٤٠ ، الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح (الربيع بن حبيب الفراهيدي) (عبد الله بن حبيب السالمي) ، جـ ١ ، ص ز ويذكر أن أبا عبيدة استطاع أن يكون تنظيماً

العلم عن جابر بن زيد وجعفر السماك وصحار العبدي وإليه انتهت رئاسة الإباضية بعد جابر ، وبإشارته أسس الإباضية في كل من المغرب وحضرموت دولا مستقلة وتخرّج على يديه رجال من مختلف البلاد الإسلامية آنذاك عرفوا بـ (حملة العلم) وعن طريقهم انتشر المذهب الإباضي وفقهه في مختلف البلاد الإسلامية . أما الربيع بن حبيب الفراهيدي ، فأصله من عمان من قضفان قصد البصرة وأدرك جابر وأخذ عنه وآلت إليه رئاسة المذهب بعد أبي عبيدة ، وتخرج عليه حملة العلم إلى عمان وخراسان وحضرموت ، ورحل في آخر عمره إلى عمان ومات بها في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، وذكر في بعض الروايات أنه توفي عام ١٧٠ هـ . وللربيع بن حبيب مسند في الحديث يسمى « الجامع الصحيح » روى فيه عن جابر بن زيد عن ابن عباس وعائشة أم المؤمنين ، وابن عمر وأبي هريرة وأنس بن مالك وأبي سعيد الخدري ومعاوية وعلي بن أبي طالب ومروان بن الحكم وغيرهم[١] ويعد الإباضية مسند الربيع هذا من أقدم كتب الحديث وأصحها ويذهبون إلى أن جل ما ورد فيه مذكور في الصحيحين وسائر الكتب الستة من كتب السنَّة الأمر الذي يؤكد قرب مذهب الإباضية إلى أهل السنَّة[٢] . ويذكر أن أحد علماء الإباضية وهو أبو غانم قد دون آراء الربيع بن حبيب الفقهية في كتاب « المدونة » ، كما ينسب إليه أيضاً كتاب في فتيا الربيع بن حبيب لا زال مخطوطاً[٣] .

سرياً في البصرة ، عمل على تربيته وإرشاده وتخرج على يديه الدعاة الذين حملوا المذهب الإباضي إلى الشرق وبلاد المغرب . انظر النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية (عوض محمد خليفات) ، ص ١٥/ ١٧ .

(١) العقود الفضية ، ص ٩٤. اللمعة المرضية ، من أشعة الإباضية (نور الدين السالمي) ، ص ١٩/١٨ . ويذهب صاحب هذا الكتاب إلى أن مسند الربيع أصح الكتب عند الإباضية بعد كتاب الله تعالى لأن فيه سند الأحاديث عن أبي عبيدة ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس أو غيره من الصحابة عن رسول الله ﷺ ، كما يزعم بأنه أعلا سنداً من صحيح البخاري !!

(٢) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، : ١٣٤ .

(٣) أجوبة ابن فرحون ، ص ١٠٨ .

وانطلاقاً من هذا الارتباط المذهبي للإباضية بأولئك التابعين ممن ذكرنا وممن لم نذكر ، فإن الإباضية ينكرون ارتباطهم بالخوارج ويستنكرون تصنيفهم مع الطوائف المارقة كالأزارقة والصفرية[1] . صحيح أن الإباضية قد اتخذوا موقفاً عدائياً متشدداً ضد الأزارقة وفارقوهم ، ولكن هناك ما يشير إلى وجود صلة وثيقة بين الإباضية وبين من سبق أن أشرنا إليهم « بالمحكمة الأولى » . ويؤكد هذا ما ورد في الرسالة التي يقال إن ابن إباض بعث بها إلى عبد الملك بن مروان وفيها يصف سلفه من الخوارج « بأنهم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من تغيير السنة ، وفارقوه حين أحدث ما أحدث وترك حكم الله وفارقوه حين عصى ربه . وهم أصحاب علي بن أبي طالب حتى حَكَّمَ عمرو بن العاص ، وترك حكم الله وأنكروه عليه وفارقوه فيه وأبوا أن يقروا الحكم لبشر دون حكم كتاب الله . فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة ، وكانوا يتولون في دينهم وسنتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر بن الخطاب ويدعون إلى سبيلهم ويرضون بسنتهم ، على ذلك كانوا يخرجون وإليه يدعون وعليه يتفارقون ، فهذا خبر الخوارج نشهد الله والملائكة إنا لمن عاداهم أعداء وإنا لمن والاهم أولياء بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا . . . غير أنا نبرأ إلى الله من ابن الأزرق وأتباعه من الناس ، لقد كانوا خرجوا حين خرجوا على الإسلام فيما ظهر ، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد إيمانهم فنبرأ إلى الله منهم[2] .

من هذا يتبين أن ابن إباض يعتبر نفسه وأتباعه امتداداً للمحكمة الأولى

---

(١) يقول صاحب الجامع الصحيح « واعلم أن اسم الخوارج كان في الزمان الأول مدحاً لأنه جمع خارجة وهي الطائفة التي تخرج للغزو في سبيل الله تعالى قال عز وجل « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » ثم صار ذماً لكثرة تأويل المخالفين أحاديث الذم في من اتصف بذلك آخر الزمان . ثم زاد استقباحه حين استبد به الأزارقة والصفرية ، فهو من الأسماء التي اختفى سببها وقبحت لغيرها ، فمن ثم ترى أصحابنا لا يتسمون بذلك ، وإنما يتسمون بأهل الاستقامة لاستقامتهم في الديانة . انظر الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ، ص ٥٩ .

(٢) العقود الفضية ، ص ١٣٥ .

فكراً وعملاً ، وهذا ما يثبته الإباضية المعاصرون الذين يقولون بأن الإباضية يجمعهم مع الخوارج الآخرين إنكار الحكومة بين علي ومعاوية ، بل إنهم يبررون الخروج ويفرقون بينه وبين الفتنة وحيث أن الفتنة ممنوعة ومنهى عنها ، فإن الخروج لرفع الظلم ورد العدوان وإزالة الحاكم الظالم المفسد أمر مشروع وواجب[1] . هذا بالإضافة إلى أن الإباضية يعدون من بين من يعدون من أئمتهم ، حرقوص بن سعد التميمي ، الذي سبقت الإشارة إليه ، وأبي بلال مرداس بن جدير الذي أنكر التحكيم وفارق علياً مع أهل النهروان ، بل ويدافعون عن الخوارج الأول ويعتذرون لهم في الخروج بما يأتي :

١) إن إمامة الإمام علي لم تثبت بإجماع الصحابة حيث لم يدخل فيها طلحة والزبير وعبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص .

٢) إن في خروج طلحة والزبير ومن معهما أسوة لخروج هؤلاء فكيف يحل لأولئك الخروج ويحرم على هؤلاء وكذلك القول في معاوية ومن معه .

٣) إن الإمام علياً أعطى الحكمين العهد والميثاق على قبول ما يحكما ن به ، وقد حكما بخلعه فلمن خرج عليه العذر إنْ تمسك بهذا .

٤) ذكر الطبري أن الإمام علي قبل التحكيم مكرهاً خوفاً على نفسه ، وعليه فقد سقطت إمامته لضعفه .

٥) على رأي بعض المسلمين ، ومنهم الإمام علي ، أن كل مجتهد مصيب وهؤلاء اجتهدوا .

٦) إن فيهم (الخوارج) صحابة وللصحابة مزية ليست لغيرهم .

٧) لهم حرمة لا إله إلا الله . وقد أنكر صاحب العقود الفضية أن الخوارج كانوا يكفرون علياً أو طلبوا منه الاعتراف بالكفر ، وإن

---

(١) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ١٣٣ ، ٣٧٨ . انظر أيضاً الإباضية في موكب التاريخ (علي يحيى معمر) ، جـ ١ ، ص ٣٣ / ٣٥ .

صح هذا فالكفر المشار إليه كفر نعمة لا كفر شرك[1] .

وهذا احتجاج ضعيف واعتذار لا يليق ، ويرد على ذلك بما يلي :

أولا : إنه من الثابت أن بيعة علي ، قد انعقدت ببيعة عامة المسلمين وجمهورهم ، ما عدا أهل الشام ، والزعم بأن طلحة والزبير لم يدخلا فيها أو أنهما بايعا مكرهين ، فمحض افتراء ، وبالمثل فإن القول بعدم بيعة عبد الله بن عمر وسعد بن أبي وقاص ، لا سند له ولا حقيقة ، وقد ذكر ابن سعد بأن علياً بايعه طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص وجميع من كان بالمدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيرهم (انظر الطبقات لابن سعد ، ج٣ ، ص : ٣١) ، كما يؤكد اليعقوبي بيعة طلحة والزبير والمهاجرين والأنصار ، ويقول : « وبايعه الناس جميعاً إلا ثلاثة : مروان بن الحكم ، وسعيد بن العاص والوليد بن عقبة » (انظر تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص : ١٧٨) .

ثانياً : إن طلحة والزبير ومن معهما ، وكذلك معاوية ، لم يخرجوا طلباً للخلافة أو سعياً بالفتنة كما فعل الخوارج ، بل إنهم رأوا رأياً واجتهدوا فيه . ولما تبين لطلحة والزبير وجه الحق ، قبلاه وأذعنا له ، ولولا المؤامرات التي كانت تدبر في الخفاء لما وقعت موقعة الجمل كما سبق أن أشرنا (انظر ما سبق ص : ٢٢) . وأما معاوية فإنه اجتهد في رأيه وأخطأ اجتهاده مع إصراره عليه .

ثالثاً : إن الحكمين لم يحكما بخلع علي ، كما يزعم بعض المؤرخين ، بل إن الحق ، كما روى الدارقطني بسنده أن الحكمين قد اتفقا على رد « الأمر » إلى النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو عنهم راض ، ولا شك ، كما يقول العوا ، أن الأمر الذي رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى النفر الذين توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ، ليس إلا أمر الخلاف بين علي ومعاوية ، الخلاف حول الامتناع عن بيعة علي ومن ثم حول عدم تنفيذ أوامره وهو الخليفة الشرعي في الشام [في النظام السياسي

---

(١) العقود الفضية ، ص ٦٤/٦٥ .

للدولة الإسلامية ، محمد سليم العوا ، ص : ١٠٢ ـ ١٠٣] . فالحكمان إذن لم يحكما بخلع علي عن الخلافة ، كما توهم بعض المؤرخين وردد هذا الوهم صاحب العقود الفضية ، لأن مسألة الخلافة لم تكن موضوع النزاع بين علي ومعاوية .

رابعاً : إن الخليفة علي لم يقبل التحكيم خوفاً على نفسه ، كما تزعم رواية الطبري التي أوردها واستند عليها صاحب العقود الفضية ، بل الثابت من الروايات الموثوق بها ، أن علياً رضي بالتحكيم نزولا على رغبة الغالبية العظمى ممن كان معه ، وتقيداً بمبدأ الشورى بين الراعي والرعية والالتزام به .

خامساً : صحيح ما ذكره صاحب العقود الفضية من أن لكل مجتهد نصيب ، ولكن المجتهد الذي له هذا النصيب هو الذي تتوفر له شروط الاجتهاد ويلتزم بأدب المجتهد ، فهذا له شيء من الأجر حتى ولو أخطأ ، أمسا الذي يُحكِّم هواه ويجهل أو يتجاهل النصوص الثابتة القطعية في قضية اجتهاده ، فلا أجر له .

سادساً : القول بأن من الخوارج بعض الصحابة فهذا ليس بصحيح ولم يعرف منهم من الصحابة إلا حرقوص بن زهير الساعدي ، بناء على رواية الطبري ، والذي سبق أن أشرنا إلى أنه أول خارجي في الإسلام . هذا إضافة إلى أن الإباضية لم يجعلوا للصحابة الحرمة التي يطلبها صاحب العقود الفضية لسلفه ، بل إن الإباضية يذهبون ـ كما سنرى ـ إلى أن الصحابة كغيرهم في الأعمال وليست لهم ميزة يتميزون بها .

سابعاً : إن للمسلم حرمة لا إله إلا الله ، ولكن هذا لا يمنع أن المسلم إذا بَغَى أو إعْتَدى أن يُقَاتَلْ وقتاله هذا لا يخرجه عن دائرة الإسلام ، كما ورد في قوله تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى تفيءَ إلى أمر الله ﴾ فأمر الله سبحانه وتعالى بقتال الطائفة الباغية مع وصفها بالإيمان .

ومهما تكن قوة أو ضعف دفاع الإباضية هؤلاء عن الخوارج الأول وعن الخروج ، فإن آراءهم هذه مع ما ورد في خطاب ابن إباض السابق الذكر والذي يثبته الإباضية ، كل هذا يؤكد الصلة الوثيقة بينهم وبين المحكمة الأولى ، ويثبت انتمائهم إلى جماعة الخوارج .

وقد تكونت نواة الإباضية في البصرة ثم انتشروا في الجزيرة وشمال إفريقيا ، واستطاعوا أن يكونوا لهم دولة في عمان استقلوا بها عن الدولة العباسية في عهد أبي العباس السفاح (١٣٢ ــ ١٣٦ هـ) وامتد نفوذها إلى جزيرة زنجبار ، ولا تزال مبادئ الإباضية وأفكارهم هي السائدة في هذه الأماكن . كما أقام الإباضية لهم دويلات في ليبيا والجزائر ، واستمروا في ليبيا لمدة ثلاثة أعوام فقط من عام ١٤٠ ــ ١٤٤ هـ . وفي جبل نفوسة ثم في منطقة تاهرت ، اكتسب الإباضية ثقة البربر ، وتمكن عبد الرحمن بن رستم أحد حملة العلم الذين تخرجوا على يد أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، تمكن من إقامة دولة بني رستم والتي استمرت قرابة المائة والخمسين عاماً (من عام ١٦٢ ــ ٢٩٧ هـ) ، وكانت عاصمتها تاهرت مركزاً مهماً للدراسات الإسلامية وفقاً للمذهب الإباضي ، واستمرت (دولة بني رستم) حتى سقطت على يد الدولة « العبيدية الشيعية »[١] .

ولا تزال طوائف وجماعات من الإباضية تنتشر في بعض واحات الصحراء الغربية في وادي ميزاب غرب الجزائر العاصمة على بعد ٤٠٠ كم . ويتميز هؤلاء بتمسكم بتقاليد وتعاليم وآداب المذهب الإباضي في نظمهم الاجتماعية ووسائل التربية لأفراد جماعتهم ، حيث يسود مجتمعهم نظم اجتماعية وآداب توارثوها منذ القرن الخامس الهجري حينما شعر الإباضية بأنه لم يعد بإمكانهم إقامة دولة تحمي جماعتهم فوضعوا هذا النظام حفاظاً على أفراد جماعتهم من

---

(١) مختصر تاريخ الإباضية ، ٢٧ / ٤٤ . النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية ، ص ١٩ / ٢٠ .

الانحلال والذوبان في المجتمعات الأخرى[*] . كما توجد تجمعات الإباضية في جبل نفوسة بليبيا ، وجزيرة جربة في تونس . وقد امتد نفوذ الإباضية إلى الأندلس لا سيما في جزيرتي ميورقة ومينورقة وظلوا هناك حتى نهاية الدولة الإسلامية بشبه الجزيرة الأندلسية[١] .

ورغم تأكيد الإباضية وسعيهم إلى اعتبارهم مذهباً من المذاهب الإسلامية لا صلة له بجماعة الخوارج ، ورغم أن كثيراً من كتاب الفرق قدماء ومحدثين أقروا بأن الإباضية أكثر الفرق الخارجة اعتدالا وأقربها تفكيراً ورأياً وسلوكاً إلى أهل السنة ، بالرغم من هذا فقد نسبت إلى الإباضية بعض الآراء التي يبدو فيها التطرف ويحتمل ظاهرها الخروج . وقد هبَّ الإباضية المعاصرون إلى رد بعض هذه الآراء وتبرئة الإباضية منها ، أو إلى تفسيرها . تفسيراً ينأى بهم عن التطرف والخروج .

فمما نسب إلى الإباضية القول بأن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ولا مؤمنين بل سموهم كفاراً ويقولون إنهم كفار نعمة لا كفاراً في الاعتقاد[٢] . وقد اعترض الإباضية المعاصرون على نسبة هذه العبارة إلى الإباضية رغم ورودها في معظم كتب الفرق الإسلامية ، وأكدوا أن الإباضية يستخدمون كلمة كفر بمعنى كفر النعمة وهو بهذا في معنى المعصية أو الفسوق . وأن كلمة كفر بهذا المعنى لا يطلقها الإباضية على من خالفهم فحسب ، بل هي مصطلح يستخدمونه حتى بالنسبة للعصاة منهم ، فهم إذن لا يفرقون بين مخالفيهم وجماعتهم بل يعتبرون العصاة من الفريقين كفاراً (أو عصاة أو فسقة)

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ٧٩ / ٨٠ ، العقود الفضية ، ص ٢٣٧ / ٢٥١ .

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ١٠٣ .

(*) انظر تفاصيل لأسس هذا النظام الاجتماعي التربوي عند الإباضية في وادي ميزاب : النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في شمال أفريقيا في مرحلة الكتمان (عوض محمد خليفات) . نظام العزابة عند الإباضية الوهبية في جربة (فرحات الجعبيري) .

لتقصيرهم في جنب الله[1] . كذلك ينسب إلى الإباضية القول بأن دماء مخالفيهم حرام ودارهم دار توحيد وإسلام إلا معسكر السلطان فإنه دار بغي[2] . كما أجازوا مناكحة مخالفيهم وموارثتهم وقبول شهادتهم ، وحرموا قتلهم في السر غيلة إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة ، فإن قام القتال أباحوا من أموالهم غنيمة الخيل والسلاح ، ويذهب البغدادي إلى أن الإباضية حرموا دماء مخالفيهم في السر واستحلوها في العلانية[3] . وينسب الأشعري إلى الإباضية قولهم بأن مخالفيهم من أهل الصلاة كفار وليسوا مشركين ، حلال مناكحتهم وموارثتهم ، حلال غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب ، حرام ما وراء ذلك وحرام قتلهم وسبيهم في السر ألا من دعا إلى الشرك في دار التقية ودان به[4] . ولعل هذا النص يفسر عبارة البغدادي «أن الإباضية حرموا دماء مخالفيهم في السر واستحلوها في العلانية » .

وقد رفض الإباضية المعاصرون أن ينسب إليهم القول باستباحة سلاح وخيل مقاتليهم من المسلمين ، وقالوا بأن الإباضية يعاملون مخالفيهم في القتال معاملة الفئة المسلمة الباغية ، ومن ثم لا يستحلون شيئاً من أموالهم كغنيمة ، وكما يقول أحد الإباضية « فمن عرف الحق وأقَرَّ به توليناه وحرمنا دمه ، ومن أنكر حق الله منهم واستحب العمى على الهدى وفارق المسلمين وعاندهم ، فارقناه وقاتلناه ، حتى يفيئ إلى أمر الله أو يهلك على ضلالة ، من غير أن ننزلهم منازل

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ٨٩/٩١ . الإباضية في موكب التاريخ ، جـ ١ ، ص ٨٩/٩٢ . انظر : الجامع الصحيح (مسند الإمام الربيع بن حبيب) جـ ٣ ، ص ١/٥ حيث أورد عدة أحاديث تثبت بها كما يقول الحجة على من قال أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين (كفر نعمة) ، ويلاحظ أن هذه الأحاديث وردت من غير أسانيد ، رواية عن الربيع بن حبيب فحسب .

(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٣) الفرق بين الفرق ، ص ١٠٣ .

(٤) مقالات الإسلاميين ، ص ١٠٤ .

عبدة الأوثان ، فلا نستحل سباياهم ولا قتل ذراريهم ولا غنيمة أموالهم ولا قطع الميراث منهم[1] .

وللإباضية الآن مذهب في العقيدة والفقه والأحكام يرجعون به إلى علمائهم القدامى كجابر بن زيد وعبد الله بن إباض وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة والربيع بن حبيب وإلى بعض فقهائهم المعاصرين الذين لهم آراء فقهية يبدو على بعضها الضعف كما سنرى .

وفي عقائد الإباضية يبدو الأثر الاعتزالي واضحاً ، أو على الأقل التشابه بين آرائهم وآراء المعتزلة[2] : ففي مسألة صفات الله تعالى مثلاً ، ذهب الإباضية ، كما ذهب المعتزلة ، إلى أن صفات الله تعالى هي ذاته ولا تدل على معان زائدة ، كما أنهم غالوا في نفي التشبيه ، وأنكروا تبعاً لذلك الاستواء على العرش ، وصرفوا ما ورد فيه من آيات ، وكل الآيات التي يوهم ظاهرها التشبيه ، عن مدلولاتها الظاهرة ، وأنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة[3] ، وقالوا بخلق القرآن . وذهبوا في الشفاعة مذهباً قريباً من مذاهب المعتزلة ، وقالوا إن الشفاعة لا تكون لمن مات مُصرّاً على الذنب غير تائب منه ، إنما الشفاعة لمن مات على صغيرة أو مات وقد ارتكب ذنباً نسي أن يتوب منه ، أو لزيادة درجة في الجنة ، أو لتخفيف شدة الموقف على المؤمنين وإراحتهم منه إلى الجنة . وذهب الإباضية كما ذهب المعتزلة إلى أن الفاسق يخلد في النار ولكنهم لم يقولوا كما قالت المعتزلة بالمنزلة بين المنزلتين . أما في مشكلة القدر فقد تبنى الإباضية فكرة الكسب التي

---

(١) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ٣١١ ، انظر تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان (عبد الله بن حميد السالمي) ، راجع الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ، مقدمة ص ، ل .

(٢) انظر : الصلة بين مذهب المعتزلة ومذهب الأباضية المقيمين في أفريقيا الشمالية (نيلنو) ، نشر في كتاب التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية ، (عبد الرحمن بدوي) ، ص ٢٠٤ / ٢١٠ .

(٣) انظر الجامع الصحيح مسند الربيع بن حبيب ، جـ ٣ ، ص ٢٥ / ٣٨ . إزالة الاعتراض عن محقي آل أباض (محمد يوسف اطفيش) ، ص ٢ / ٥ .

قال بها الأشعري وأكدوا الإيمان بالقضاء والقدر وأنه جميعاً من الله ، وأن الخير والشر خلق من الله وكسب من العباد . وذهبوا في الإمامة مذهب الخوارج العام ورأوا عدم اشتراط لزومها في قريش[1] ، وقالوا عن الصحابة أنهم كغيرهم في الأعمال لا في درجة الصحبة والمنزلة الأخروية . فالعاصي منهم كغيره من بعدهم ، واستشهدوا في هذا القول بقول الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿ فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾[3] وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رجم الزاني منهم ، وجلد الشارب وقطع يد السارق وهجر عاصيهم[4] .

أما في الفقه فقد أشاد الشيخ محمد أبو زهرة بجهود الإباضية في الفقه وقال : « ولهم فقه جيّد وفيه علماء ممتازون . . ولهم آراء فقهية ، وقد اقتبست القوانين المصرية في المواريث بعض آرائهم وذلك في الميراث بولاء العتاقة ، فإن القانون المصري أخره عن كل الورثة حتى عن الرد على أحد الزوجين ، مع أن المذاهب الأربعة كلها تجعله عقب العصبة النسبية ، ويسبق الرد على أصحاب الفروض الأقارب »[5] .

ويذهب الإباضية المعاصرون إلى أنَّ مذهبهم الفقهي من أقدم المذاهب الفقهية الإسلامية نشأة وتأسيساً ، وأنه يمثل في واقعه أقرب الصور إلى حقيقة الإسلام الأصيل في عقائده وفقهه ومسلك أتباعه . ويتميز تاريخه الطويل بذلك الصراع المتصل لإقامة وجود سياسي للعقيدة الإسلامية ممثلاً في الإمامة العادلة

---

(١) انظر الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ، ص ٧٥/ ٧٩ .

(٢) سورة الحجرات : آية ٢ .

(٣) سورة الفتح : آية ١٠ .

(٤) العقود الفضية ، ص ٢٨٥/ ٢٩٠ .

(٥) المذاهب الإسلامية (محمد أبو زهرة) ، ص ١٢٧ .

في حال الظهور ، أو في السعي المتصل لإقامتها في مسالك الدين الأخرى في أطوار « الدفاع » أو « الشراء » أو « الكتمان »[1] .

وبالرغم من هذا فقد نسبت إلى الإباضية بعض الآراء التي تبدو ، فيها مخالفتهم لما اتفق عليه علماء المسلمين ، وفهمهم للقرآن فهماً يخالف فهم عامة المسلمين وعدم أخذهم بالسنة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن ذلك ما رواه ابن حزم من أنَّ الإباضية بالأندلس ، يحرمون طعام أهل الكتاب ويحرمون أكل قضيب التيس والثور ، والكبش ويوجبون القضاء على من نام نهاراً في رمضان فاحتلم ، ويتيممون على الآبار التي يشربون منها إلا قليلاً منهم ويرون الحج في جميع أشهر السنة ، ويحرمون أكل السمك حتى يذبح ، ولا يرون أخذ الجزية من المجوس ، ويكفرون من خطب في الفطر والأضحى ، ويقولون : إنَّ أهل النار في لذة ونعيم وأهل الجنة كذلك »[2] وقد حاول أحد الإباضية المعاصرين الرد على ابن حزم فيما نسبه إلى الإباضية . فذهب إلى أنَّ طعام أهل الكتاب عند الإباضية ، إنَّما يحل إذا كانوا تحت الذمة ، أما إذا لم يكونوا كذلك فلا يحل طعامهم ولا نكاح نسائهم . وكأن الإباضية يرون أنَّ هذا التحليل مرتبط بالجزية التي تدل على وجود رقابة إسلامية على أهل الكتاب فإذا انعدمت الجزية انعدمت الرقابة وانعدم هذا الإكرام والشرف الذي يعطى للكتابي دون غيره . وعلى كل فإنَّ الإباضية المعاصرين قد أفتوا بأنَّ طعام أهل الكتاب وكذلك ذبائحهم حلال للمسلمين مهما كانت طريقة ذبحهم لها ، لأنَّ الله أطلق الإباحة ولم يقيدها بأي شرط ولم يكلف المسلمين بالبحث عنهم

---

(١) أجوبة ابن فرحون ، المقدمة ص ١٠/١٢ . انظر أيضاً ، اللمعة المرضية من أشعة الإباضية (نور الدين عبد الله بن حميد السالمي) ، ص ٨ وما بعدها . ولبيان هذه المصطلحات الإباضية ونظرية الإمامة لدى الإباضية ، انظر : التاريخ الإسلامي وفكرة القرن العشرين (د. فاروق عمر) ، ص ٢٣/٤٢ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل (ابن حزم) ، ج ٤ ، ص ١٨٩ .

والتفتيش عن طريقتهم في الذبح ، وكل ما يجب على المسلم هو التـأكد مـن أنَّ أهل الذبائح أهل كتاب وليسوا مشركيـن أو مـلاحدة[1] . أمَّـا تحـريمهم أكل قضيب الحيوانات المذكورة فيعود في رأي الإباضية إلى استقذاره مـن نـاحية وإلى أنَّـه مظنة أن يكون حاملاً للبول فيكون من الخبائث التي حرمها الله !![2] وهـذا بالطبع ليس بدليل يدل على التحريم ، بل هو مجرد استنباط عقلي لا يقوم عليـه تحليل أو تحريم شرعي . أمَّا وجوب القضاء على مـن نـام نهـاراً في رمضـان فاحتلم ، فيبرر الإباضية هذا فيقولون إنَّـهم يرون أن الصائم الذي ينام في النهار فتصيبه الجنابة يجب عليه عند الاستيقاظ المبادرة إلى الاغتسال ولا شيء عليه إذا لم يهمل أو يتهاون ، أمَّا إذا أهمل الغسل أو تهاون فيه فيجب عليه القضاء[3] ، ويذهب الإباضية إلى أنَّ من أصبح جنباً فسد صومه ويستدلون بقـول النبـي صلى الله عليه وسلم : « من أصبح جنباً أصبح مفـطراً »[4] . ويتغـافلون عـن أنَّـه قـد وردت أحاديث ثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسـلام تبيـن أنَّـه لا قضـاء على من أصبح جُنباً ، وحديث عائشة رضي الله عنها « أن النبـي صلى الله عليه وسلم كان يصبح جنباً من غير احتلام ، ثم يغتسل ويصـوم » واضـح الـدلالة في هـذا المقام[5] . أما تيمم بعض الإباضية مع وجود الماء وغيره مـن الآراء التـي ذكرهـا ابن حزم ، فقد أنْكر هذا كله الإباضية المعاصرون وذهبوا إلى أنـه مـن الـكذب الذي أُريد به التشنيع عليهم[6] .

---

(١) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ٣٢٣/٣٢٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٢٧/٣٢٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٢٨ .

(٤) أجوبة ابن فرحون ، ص ٧٥/٧٦ .

(٥) انظر : المغني (ابن قدامة) ، جـ٣ ، ص ١٣٧/١٣٨ .

(٦) الأباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ٣٢٩ . ويبدو أن ما ذكره ابن حزم نوع من الانحراف الذي وقع فيه بعض الأباضية بالأندلس ، ويؤيد هذا ما نسبه صـاحب كتـاب الاسـتبصار في عجائب الأمصار ، عن الأباضية بمدينة شروس بشمال أفريقيا إذ يذكر أنه ليس بهـذه المدينـة

وإلى جانب هذه الآراء التي ذكرها ابن حزم ، فإنَّ الإباضية أنفسهم يقرون بأنهم ينكرون المسح على الخف ويذهبون إلى أنَّ الصلاة لا تجوز به . وزعموا أنهم أخذوا المنع من قول الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فأغسلوا وجوهكم وأيديكم . . . ﴾ إلى قوله ﴿ لعلكم تشكرون ﴾[1] ، ذلك أنَّ سورة المائدة آخر ما نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي ورد قوله فيها « أحلُّوا حلالها وحرّموا حرامها » ، ومن ثم فيلزم العمل بها ، وغسل الرجلين وترك المسح على الخف . كما استندوا إلى قول جابر بن زيد : أدركت جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألتهم عما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يمسح على خفيه فقالوا لا[2] . ورأي الإباضية هذا مخالف لما ورد من الأحاديث التي تجيز المسح على الخفين ، ولما ورد أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمسح على الخفين بعد نزول سورة المائدة[3] . ويقول الإباضية أيضاً إنَّ القنوت في الصلاة يبطلها[4] ، كما قالوا بعدم جواز رفع الأيدي مع وبعد تكبيرة الإحرام وعدم ضمها إلى الصدر ، إذ لم يثبت لديهم أن هذا من فعل النبي عليه الصلاة والسلام . كما يقولون أيضاً بتحريم المزني بها على من زنى بها ، وأنَّ كثير الرضاع وقليله يحرم التزاوج[5] . وفي كل هذه الأقوال استند الإباضية إمَّا إلى ظاهر بعض الآيات من غير اعتبار للسنة التي تفسر القرآن وتبين معانيه ،

جامع ، ولا يرون في مذهبهم الجمعة ، ولهم طرق غريبة في الطهارة وبعضهم لا يرى الاغتسال بالماء جملة ، انظر ص ١٤٤ / ١٤٥ . فلا ينبغي إذن الإسراع في تكذيب ابن حزم فيما نسبه إلى الأباضية بالأندلس فهو بهم أعلم وأعرف .

(١) سورة المائدة : آية ٦ .

(٢) العقود الفضية ، ص ٩٤ ، ٢٩١ ، الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ، ص ١٧٧ / ١٧٨ .

(٣) انظر المغني (ابن قدامة) ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

(٤) الجزء الأول من شرح الجامع الصحيح ، ص ٤٤٧ / ٤٤٩ .

(٥) العقود الفضية ، ص ٢٩٠ / ٢٩٥ .

أو اعتمدوا على أحاديث معيّنة ولم يأخذوا بأحاديث أخرى أكثر إثباتاً للحكم وأوضح في دلالتها عليه ، أو أوّلوا الآيات القرآنية تأويلاً بعيداً عن معانيها الظاهرة .

ظاهرة الخروج في هذا العصر:

إن ظاهرة الخروج بما تحمله من مبادئ ومنهج لم تنته بنهاية الخوارج الذين ظهروا في تلك الفترة من تاريخ الإسلام ، فإلى جانب الإباضية الذين يعتبرون امتداداً لأولئك الخوارج ، ظهرت في هذا العصر جماعات تبنت منهج الخوارج وأسلوبهم واعتنقت كثيراً من أفكارهم ومبادئهم ، ومن أشهر هذه الجماعات «جماعة التكفير والهجرة» التي لاحظ معظم من كتبوا عنها الإرتباط الوثيق بين أفرادها وبين الخوارج رغم اختلاف الدوافع والغايات بين الفريقين[1] .

ويكاد معظم الذين حللوا ظاهرة الغلو لدى هذه الجماعات ، يجمعون على أنَّ هناك أسباباً معيّنة دفعت بهؤلاء الشباب إلى اتخاذ هذا الموقف المتطرف . ومن أهم هذه الأسباب : الحرب التي تعرض لها أتباع هذه الجماعات وما نتج عنها من ردود فعل تجاه المجتمع حكاماً ومحكومين . ذلك أنَّ أفراد هذه الجماعات كانوا من شباب الجماعات الإسلامية ، الممتلئ عاطفة دينية وحماساً نحو تحقيق الإسلام في واقع الحياة . كما كانوا يمثلون خيرة الشباب في المجتمع المصري ، إذ كان منهم الطبيب ، والمهندس ، والمحامي ، وأساتذة الجامعة وطلابها ، وبدلا من أن يجد هذا الشباب العون لتحقيق آماله ، لفقت ضدهم

---

(١) انظر : الحكم وقضية تكفير المسلم . (سالم علي البهنساوي) . الخوارج الأصول التاريخية لمسألة تكفير المسلم (د . مصطفى حلمي) . دعاة لا قضاة (حسن الهضيبي) . الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف (د . يوسف القرضاوي) . وتجدر الإشارة إلى أنه ليس بين أيدينا مصادر دونها أفراد هذه الجماعات عن حركتهم وفكرهم ، وما نسب إلى هذه الجماعات عن طريق أجهزة الإعلام الرسمية ينبغي أن يؤخذ على حذر ، كما ينبغي أن توضع أفكارهم وتقيم في ضوء الظروف التي تولدت فيها هذه الجماعات ونمت فيها أفكارهم .

التهم زوراً وبهتاناً ، ووجدوا أنفسهم فجأة في غياهب السجون والمعتقلات ، وأصبحوا نهباً لسياط الجلادين وآلات التعذيب ، والتنكيل والاضطهاد والإذلال التي لم يعرف لها التاريخ مثيلاً ، كل ذلك لا لشيء إلا لأنهم قالوا ربنا الله ، ودعوا أو سعوا إلى تحقيق وتطبيق منهج الله في الحياة والمجتمع . هذا في الوقت الذي أطلقت فيه أيادي أعداء الإسلام من شيوعيين وقوميين لا دينيين يعملون بكل حرية لهدم ما تبقى من قيم الإسلام وتعاليمه[1] .

تكفير المجتمع :

وقد شعر هؤلاء الشباب بأنَّ الحكام الذين يقومون بهذا العمل البشع بالإضافة إلى أنَّهم لا يطبقون شريعة الله ، فإنَّهم يتآمرون على الإسلام ، ويعملون على محوه وإزالة آثاره من المجتمع . ومن ثم لا يمكن أن يكونوا مسلمين وأكد لهم هذه الحقائق اكتشافهم بعض الوثائق التي تبين من ناحية أنَّ هؤلاء الحكام ضالعون مع جهات عالمية تسعى إلى القضاء على الإسلام ، وأنَّهم من ناحية أخرى يعملون بخطة منظمة لإسكات صوت كل من يدعو إلى الإسلام ، والقضاء عليه[2] .

أمام هذا كله اختمرت أفكار التكفير لدى بعض شباب الجماعات الإسلامية[3] ، فحكموا بكفر هؤلاء الحكام ، وامتد حكمهم بالتكفير ليشمل الشعب بأسره ، لأن الحكام لم يحكموا بما أنزل الله ، بل حكموا بمواثيق من عندهم ، أحلُّوا فيها ما حرّمه الله وحرّموا ما أحلَّه ، وأصبحوا أنْداداً لله

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٣٦٣ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٥٢ وما بعدها ، حيث أورد البهنساوي نص وثيقة خطيرة وضعتها الأجهزة المصرية لمكافحة جماعة الإخوان المسلمين ـ وحربهم نفسياً وثقافياً وفكرياً ومحو آثارهم في مجال الثقافة والحياة العامة !!! .

(٣) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ١١ ، انظر أيضاً مذكرات عمر التلمساني ، جريدة الشرق الأوسط، السنة السابعة العدد، ٢٠٩٠ [١٨/٨/١٩٨٤] ، ص ٩ .

فأخضعوا الشعوب لعبوديتهم من دون الله . أمّا المحكومون فقد كفروا لأنهم رضوا بأولئك الحكام ولاة عليهم ، بل إن الكثيرين منهم ساعدوا الحكام في تنفيذ رغباتهم في القضاء على أفراد هذه الجماعات وعلى الإسلام ، ولم يستثن من حكم التكفير العلماء ، لأنهم لم يقوموا بواجبهم فيكفروا الحكام والمحكومين بل إنهم شاركوا السلطة في حربها لهذه الجماعات المسلمة .

وقد أكد هؤلاء أن جماعتهم وحدها هي الجماعة المسلمة فمن لم ينخرط فيها عدوه كافراً ، لأن الجماعة هي السلوك الحركي للعقيدة ومن ثم فهي جزء لا يتجزأ منها[1] ، واستشهدوا في هذا المقام ببعض الأحاديث التي تشير إلى ضرورة البيعة والالتزام بالجماعة كالحديث الذي رواه « مسلم » « من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية[2] » وما رواه البخاري « من مات وهو مفارق للجماعة فإنه يموت ميتة جاهلية »[3] وفسروا الجاهلية بأنها تعني الكفر ، وأن الجماعة المقصودة هنا هي جماعتهم لأنها الجماعة الوحيدة التي تلتزم بالإسلام الصحيح في هذا العصر !!

ورغم أن أفراد المجتمع ينطقون بالشهادتين ويصلون ويصومون ويحجون ، فإنهم في رأي هذه الجماعة كافرون ، لأنهم لم يعملوا بمضمون الشهادة ، إذ أنهم جهلوا حقيقة الحاكمية فلم يعترضوا على ولاية الحكام الكافرين ، بل إنهم شاركوا في انتخابات تأتي بتشريعات تحكم بغير ما أنزل الله .

وقد اعترض المرشد العام للإخوان المسلمين آنذاك الأستاذ حسن الهضيبي رحمه الله ، على هذه الآراء المتطرفة وواجه قيادة هذه الجماعة مبيّناً أن هذا الفكر

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب الأمر بلزوم الجماعة ، جـ ٦ ، ص ٢٢ .

(٣) رواية البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتة جاهلية » ، صحيح البخاري . كتاب الفتن ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم سترون بعدي أموراً تنكرونها جـ ٨ ، ص ٨٧ .

يخالف مذهب أهل السنة ، لأن تكفير من أعلن الإسلام ، لأنه لم يتخرط في الجماعة ، وتكفير المخالف في الرأي ، أقوال كان يقول بها الخوارج واندثرت معهم . وكرد فعل لآراء الهضيبي هذه ظهرت فئة تعلن كفره وكفر من معه ، وظهر من بين هؤلاء من أُطْلِق عليهم جماعة « التكفير والهجرة » ، بينما بقيت جماعة أخرى اعتقدت أن المجتمع كافر بأفراده ولكن توقفوا في الحكم بكفر من كان في جماعتهم أو جماعة تدعو إلى الإسلام بمفهوم الحاكمية والجماعة الصحيحة في نظرهم[1] .

وقد ربطت هذه الجماعات أفكارها تلك بما سبق أن استدل به الخوارج من أن الذي يقصر في العمل أو يرتكب معصية فهو كافر . واستشهدوا خطأ ، كما استشهد الخوارج ببعض الآيات القرآنية التي لا حجة لهم فيها . ومن ذلك مثلاً قول الله تعالى ﴿ إنَّما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ، فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً ﴾[2] ، وفهموا القرب هنا بالقرب الفوري ، فمن لم يتب في رأيهم فوراً فهو كافر ، وقد أهمل هؤلاء أو جهلوا النصوص التي تفتح الباب للتوبة إلى غرغرة الموت أو ظهور علامات القيامة الصغرى ، كطلوع الشمس من مغربها ، وما ورد من أحاديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد ، ومنها ما رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »[3] « وأن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[4] .

---

(١) انظر : الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ١٣٣ / ١٣٤ .

(٢) سورة النساء : آية ١٧ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه ، ج ٨ ، ص ٧٣ ، من رواية إسماعيل بن إبراهيم عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٤) سنن الترمذي ، ج ٥ ، ص ٥٤٧ رقم الحديث : ٣٥٣٧ .

واستشهدوا أيضاً بقول الله تعالى ﴿ بلى من كسب سيئةً وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[1] . وذهبوا إلى أن العاصي إن لم يتب على الفور أحاطت به خطيئته وخلد في النار ، ولما كان الخلود في النار هو للكافرين ، فالعاصي إن لم يتب على الفور يعد كافراً .

ويمكن الرد عليهم بأن هذه الآية تشير إلى بني إسرائيل وأن السيئة التي ارتكبوها هي تحريف التوراة ووضع أحكام من عند أنفسهم ، والمعصية التي يرتكبها المسلم ليست من هذا النوع الذي هو كفر بواح ، ومن ثم لا ينبغي أن تقاس عليه ، أو الحكم بأن كل خطيئة هي كفر ما لم يتب صاحبها[2] .

وكذلك لا حجة لهم في أن العاصي أُوعد الخلود في النار ومن ثم فهو كافر ، وذلك لأن الله أوعد القاتل عمداً الخلود في النار عقوبة على جريمته ، ولكن لم ينف عن هذا القاتل العاصي صفة الإيمان ، فهو أخ لأولياء المقتول وهم مؤمنون ﴿ فمن عفى له من أخيه شيء ﴾[3] وجعل له الرحمة ﴿ ذلك تخفيف من ربكم ورحمة ﴾[4] والرحمة لا تكون للكافر . إضافة إلى أن التأبيد قد ورد في القرآن الكريم وأريد به التوقيت كما في قوله تعالى ﴿ قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنَّا بُرءآوا منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[5] فدوام العداوة والبغضاء مرتبط بعدم الإيمان بالله تعالى والشرك به ، والإيمان يمكن حدوثه في أي لحظة ومتى حدث زالت العداوة والبغضاء . فكلمة أبداً هنا تفيد التوقيت[6] . وعلى كل فإن هذا التصور مخالف

---

(١) سورة البقرة : آية ٨١ .

(٢) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٢٠٠ / ٢٠١ .

(٣) سورة البقرة : آية ١٧٨ .

(٤) سورة البقرة : آية ١٧٨ .

(٥) سورة الممتحنة : آية ٤ .

(٦) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٢٠٥ / ٢٠٦ .

للنصوص الكثيرة التي تؤكد أن كل من نطق بالشهادتين يعتبر مسلماً تجري عليه أحكام المسلمين ويعامل بمقتضى ذلك ، أما سريرته وحقيقة معتقده فموكولة إلى الله العالم بالسرائر[١] .

الهجرة أو مفاصلة المجتمع :

وقد خطت هذه الجماعة خطوة أخرى فدعت إلى اتخاذ موقف تجاه المجتمع بأسره ، فأعلنوا المفاصلة التامة بينهم وبين المجتمع الذي وصفوه بالجاهلية والكفر . وهذا ما عبّروا عنه بالهجرة . والتي تتضمن الدعوة إلى العزلة والانفصال عن المجتمع ولو إلى الكهوف والجبال مع هجرة المعاهد والمدارس والجامعات والوظائف وحتى المساجد .

فذهبوا إلى أن المساجد هي معابد الجاهلية والذين يصلون فيها قد ارتدوا عن الإسلام وبالتالي لا ينبغي الصلاة مع من يؤمونها إذ أن الصلاة معهم شهادة لهم بالإيمان وهم كفار ، وقد استندوا في هذا الزعم إلى أقوال أسندوها إلى سيد قطب وأبي الأعلى المودودي وفهموها فهماً خاطئاً[٢] .

وقد قيل إن أمير هذه الجماعة استند في دعوته إلى اعتزال المدارس والوظائف إلى قول الله تعالى ﴿ هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾[٣] .

فهذه الآيات في رأيه تفيد أن المسلم يجب أن يهجر المدارس والتعليم ليتحقق فيه وصف الأمية ، لأنه وصف الله لهذه الأمة . وصفة الأمية في رأيه ليست قاصرة على عصر البعثة النبوية بل هي ممتدة إلى عصرنا ، فنحن كما

---

(١) دعاة لا قضاة ، ص ١٤/ ١٦ .

(٢) انظر : الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٢٥٧/ ٢٦٦ .

(٣) سورة الجمعة : آية ٢ ـ ٤ .

يقول، المشار إلينا في قول الله تعالى ﴿وآخرين منهم لما يلحقوا بهم﴾ أي آخرين من الأميين لما يلحقوا بالصدر الأول للإسلام فيجب أن يتحقق فينا كلمة ﴿وآخرين منهم﴾ وهذه لا تكون إلا لمن كان أمياً . ويزعم أمير هذه الجماعة ، فيما ينسب إليه ، أن لديه علماً بتأويل جميع معاني آيات القرآن بل وحروفه ، ويستمد هذا من قوله تعالى ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾[1] .

ولا شك أن هذا فهم خاطئ لمعنى الأمية المشار إليها في هذه الآية ، فالأمية في هذه الآية لا تعني المعنى الشائع المقابل للثقافة والمعرفة ، بل إنها مستخدمة هنا كاصطلاح مقابل للفظ أهل الكتاب الذين أرسلت إليهم رسالات الهية كاليهود والنصارى بينما الأميون هم العرب الذين لم يتلقوا رسالات ولم يبعث فيهم رسول ومن ثم فلا علم لهم بها[2] .

ومع رمي هؤلاء للمجتمع بالكفر ، فإنهم لم يحاولواهدايته أو العمل على إصلاحه ، بل يقال إنهم ذهبوا إلى أنه يجب السعي إلى تحطيم المجتمع الكافر ، أما محاولة الإصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا مكان لها في مثل هذه المجتمعات ، إذ أنها تتضمن الشهادة لهذه المجتمعات بالإيمان . ومن ثم اعتبروا تخريب المجتمع وتقويض دعائمه من الواجبات الشرعية لأنه مجتمع جاهلي ينبغي أن يكشف ويحطم .

ولهذا ينسب إلى بعض هذه الجماعات أنها تستحل إتلاف ما أمكن من الأموال العامة ، وإيقاع المظالم بمن خرج من جماعتهم ومحاربتهم في أرزاقهم ، وإيذائهم بشتى أنواع الإيذاء ويعدون ذلك من الإيمان ، فأحلوا النهب والخديعة والغش إذا كان ذلك لتقوية صفوفهم وتحطيم قوى مخالفيهم . واستندوا في استحلالهم تحطيم المجتمع إلى فهم خاطئ لقول الله تعالى ﴿ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾[3] .

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٢٩١ / ٢٩٢ .

(٢) نفس المرجع ، ٢٩٣ / ٢٩٤ .

(٣) سورة الحشر : آية ٥ .

وجهلوا أن هذه الآية لا سند لهم فيها لأنها خاصة بمعاملة يهود بني النضير وليست عامة في كل حالة ، إضافة إلى أن رأي هذه الجماعة تجاه المجتمع مخالف للنهج الإسلامي العام الذي لا يجيز الاعتداء على من لم يحمل السلاح حتى من الكفار ، والذي أكد أن العدل من القيم الثابتة فيه ويتساوى فيه المسلم وغير المسلم[1] .

والذي أوقع هؤلاء في مثل هذه الأخطاء في الفهم والاستنتاج ، غلوهم في الاعتزاز بأنفسهم وبأمراء جماعتهم ، إذ أنهم زعموا أنه يمكنهم التلقي من القرآن مباشرة واستنتاج الأحكام الشرعية منه من غير استعانة بآراء علماء الإسلام وفقهائه ، ونتيجة لهذا ألغوا كل التراث الفقهي للمسلمين ، على أساس أنه يحول بينهم وبين الفهم الحقيقي للقرآن ، بل ذهبوا أبعد من ذلك فردوا أقوال كبار الصحابة التي نقلها أئمة الحديث وأئمة الفقه ، هذا في الوقت الذي اكتفوا فيه بأقوال وتفسيرات أئمتهم الذين لا تجربة لهم ولا رصيد لهم في الفقه إلا قراءة القرآن دون معرفة بالشروط اللازمة للتعرف على حقيقة حكم الله في المسائل واستنباط الأحكام الشرعية . وهذا المنحى في التفكير شبيه تمام الشبه بموقف الخوارج الذين استندوا في تكوين أفكارهم على فهمهم الخاص للقرآن ولم يعتمدوا على السنّة الصحيحة الثابتة التي تبين معاني القرآن الكريم وتوجه آياته ، ولم يستفيدوا بما أثر عن السلف الصالح من فهم لهذا الدين وتوضيح لقضاياه .

---

(١) الحكم وقضية تكفير المسلم ، ص ٣٠١/٣٠٧ .

الفصل الثالث

الشيعة : بداية التشيع ـ ظهور غلاة الشيعة

الشيعة من حيث مدلولها اللغوي تعني القوم والصحب والأتباع والأعوان[1] ، وقد وردت في القرآن الكريم في هذا المعنى كما في قوله تعالى ﴿ فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴾[2] ، وقوله تعالى ﴿ وإن من شيعته لأبراهيم ﴾[3] . فالشيعة في الآية الأولى تعني القوم ، وفي الثانية تشير إلى الأتباع الذين يوافقون على الرأي والمنهج ويشاركون فيهما . ولكن كلمة « شيعة » اتخذت معنى اصطلاحياً خلال التاريخ الإسلامي ، واستخدمت للدلالة على جماعة اعتقدت بأن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم[4] . وذهبت هذه الجماعة إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام عين علياً ليكون خليفة عنه ، وأن الخلافة من ثم تكون فيه وفي عقبه دون غيرهم بالوصية والتعيين وأن الخلفاء الذين تولوا

---

(١) انظر : الصحاح (الجوهري) ، جـ ٣ ، ص ١٢٤ ، لسان العرب (ابن منظور) ، مجلد ٨ ، ص ١٨٨ / ١٨٩ .

(٢) سورة القصص : آية ١٥ .

(٣) سورة الصافات : آية ٨٣ .

(٤) المقدمة : (ابن خلدون) ، ص ١٩٦ .

الخلافة قبله قد سلبوا علياً هذا الحق ، وأن خلافة علي تبدأ منذ اليوم الأول الذي توفي فيه النبي عليه الصلاة والسلام بغض النظر عن كونه تولى الخلافة فعلاً أم لم يتولها . وبهذا يعرف الشهرستاني الشيعة بأنهم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص ، وقالوا بإمامته وخلافته ، نصاً ووصية إما جلياً وإما خفياً واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو تقية من عنده »[1] .

واعتقد الشيعة أن علياً والأئمة من بعده هم مستودع العلم اللدني وإليهم تعود أحكام الشريعة وأسرارها وأنهم معصومون من الكبائر والصغائر ، وأن الإيمان بالأئمة أو الأوصياء جزء من العقيدة ومتمم للشهادتين ، وقد أصبحت هذه الآراء حول الإمام ووجوب تعيينه وما يرتبط بذلك من إضفاء صفة العصمة على الأئمة ، والقول برجعتهم ، والتقية ، والمهدية ، مبادئ يلتقي حولها الشيعة ، ما عدا الزيدية منهم★ ، وتمثل أسس المذهب الشيعي ومقوماته .

وقبل أن نستعرض مقومات المذهب الشيعي وآراء الشيعة حول مختلف هذه القضايا يجدر بنا أن نبين الفترة التاريخية التي ظهرت فيها الشيعة كجماعة اعتنقت تلك الآراء والمبادئ التي أشرنا إليها .

بداية التشيع :

من الباحثين لا سيما الشيعة من يجعل نقطة البداية في التشيع زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، ويذهب هؤلاء إلى أن الحركة الشيعية تكونت مع مطالع الرسالة وترعرعت في أحضانها ونادى بها الرسول عليه الصلاة والسلام ، فالكاتب الشيعي محمد الحسين آل كاشف الغطاء يذهب في كتابه « أصل الشيعة وأصولها » إلى « أن أول من وضع بذرة التشيع في حقل الإسلام هو نفس

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٦ .

(★) أنظر لبحث الزيدية صفحة ١٨١ وما بعدها من هذا الكتاب .

صاحب الشريعة الإسلامية يعني أن بذرة التشيع وضعت مع بذرة الإسلام جنباً إلى جنب وسواءً بسواء ، ولم يزل غارسها يتعاهدها بالسقي والعناية حتى نمت وأزهرت في حياته ثم أثمرت بعد وفاته » . ويستدل على ذلك بأحاديث وردت عن النبي صلى الله عليه وسلم في مدح علي والإشادة بفضله ومن ثم أهليته ليكون خليفة من بعده[1] . وإلى نفس هذا الرأي يذهب الكاتب الشيعي محمد جواد مغنية حيث يقول « إن النبي هو الذي بعث عقيدة التشيع وأوجدها ، ودعا إلى حب علي وولائه ، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعه ومريديه ، ولولاه لم يكن للشيعة والتشيع عين ولا أثر[2] » . ويؤيد هذا الرأي أيضاً آية الله الخميني الذي يذهب إلى أن مذهب الشيعة بدأ من نقطة الصفر ، وحين وضع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الخلافة قوبل بالاستهزاء والسخرية وذلك حين جمع قومه وأولم لهم ، وقال لهم فيما قال : من يكون خليفتي ووصيي ووزيري على هذا الأمر ؟ فلم ينهض إلا علي (عليه السلام) ولم يبلغ الحلم حينذاك . وعندئذ قال أحدهم لأبي طالب محرضاً : إن ابن أخيك يريد أن تسمع لابنك وتطيع ، وفي غدير خم ، في حجة الوداع عينه النبي صلى الله عليه وسلم حاكماً من بعده »[3] .

وسنناقش آراء الشيعة وعقائدهم في هذا الصدد في وقت لاحق ، ولكن يمكن القول إن جهود الشيعة لإرجاع التشيع إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ما هي إلا محاولة من جانب متكلميهم لنقض دعوى خصومهم القائمة على رد اعتقادات الشيعة إلى أصول أجنبية كاليهودية أو ديانات الفرس القديمة .

---

(١) أصل الشيعة وأصولها (محمد الحسين آل كاشف الغطاء) ص ٥٣ / ٥٤ ، فصل « بدء نشأة التشيع وتكونه وأنه كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وإثبات ذلك بالدليل من الكتاب والسنّة » .

(٢) الشيعة في الميزان (محمد جواد مغنية) ، ص ١٧ .

(٣) الحكومة الإسلامية (الخميني) ، ص ١٣١ .

إذا أنه سبق أن أشار ابن حزم إلى مدى الارتباط بين نشأة التشيع والفرس ، وذهب إلى أن بعض الطوائف الفارسية الحاقدة على الإسلام رأوا أن يكيدوا لهذا الدين من الداخل ، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستشناع ظلم علي رضي الله عنه ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام[1] . كما أن من لاحظ ارتباط بداية التشيع بابن سبأ ، ذهب إلى أن أصل التشيع مأخوذ من اليهودية[2] .

وإذا ما استثنينا هذه النظرة التي تبناها ودافع عنها الشيعة أنفسهم فإننا نجد وجهات نظر مختلفة حول بداية التشيع والأصل الذي انطلق منه :

١ ـ فهناك من يرجع ظهور التشيع إلى الفترة التي تلت وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وما أعقبها من اختلاف حول الإمامة وما تبع ذلك من ظهور وجهات نظر ثلاث تبنى إحداها الأنصار الذين رأوا أنهم أولى بالخلافة من غيرهم لأنهم أول من آوى الرسول عليه الصلاة والسلام ونصره ، وتبنى وجهة النظر الثانية المهاجرون الذين رأوا أنهم أول الناس إسلاماً وأول من عَبَدَ الله ، وورد فيهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي من الناس اثنان »[3] ، فهم إذن أولى من غيرهم بالخلافة . وهناك وجهة نظر ثالثة تبناها ودافع عنها بنو هاشم وبعض الصحابة الذين رأوا أن بني هاشم رهط النبي الأدنون وأقربهم إليه ، ومن ثم لا ينبغي أن تخرج الخلافة منهم ، ورشح هؤلاء علي بن أبي طالب لتولي الخلافة . وقد ذكر الكاتب الشيعي ابن أبي الحديد : أن من الصحابة الذين فضلوا علياً على كل الصحابة عمار بن ياسر والمقداد بن الأسود ، وأبو ذر ، وسلمان الفارسي ، وجابر بن عبد الله وأُبيْ بن

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، جـ ٢ ، ص ١١٥ . انظر أيضاً : فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ١٨ / ١٩ .

(٢) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٢٠ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الإمارة ، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش ، جـ ٦ ، ص ٣ .

كعب ، وخزيمة بن ثابت ، وحذيفة ، وأبو أيوب ، وسهل بن حنيف ، وعثمان بن حنيف ، وأبو الهيثم بن التيهان ، والعباس بن عبد المطلب وبني هاشم كافة بل يقال إن الزبير كان يقول ذلك في بدء الأمر ثم رجع عنه ، كما يُذكر أن بعض بني أمية كانوا يرون هذا الرأي ومنهم خالد بن الوليد وسعيد بن العاص وعمر بن عبد العزيز[1] . ويذكر المؤرخ الشيعي اليعقوبي (توفي سنة ٢٨٢ هـ) أنه تخلف عن بيعة أبي بكر قوم من المهاجرين مالوا مع علي بن أبي طالب ، منهم العباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس والزبير بن العوام بن العاص ، وخالد بن سعيد والمقداد بن عمرو وسلمان الفارسي وأبو ذر الغفاري وعمار بن ياسر والبراء بن عازب وأُبيْ بن كعب »[2] . واستناداً إلى هذه الروايات التي لم تسلم من ضعف الإسناد ذهب بعض المستشرقين ومن تأثر بهم إلى أن حركة التشيع بدأت مع بداية الخلاف حول الإمامة وأن أتباع هذه الحركة كانوا يمثلون حزباً معارضاً قوياً . فيذهب جولدزيهر إلى أنه نشأ بين كبار الصحابة ، منذ بدأت مشكلة الخلافة ، حزب نقم على الطريقة التي انتخب بها الخلفاء الثلاثة الأُول وهم أبو بكر وعمر وعثمان ، الذين لم يُراعَ في انتخابهم درجة القرابة من أُسرة النبي ، وقد فضل هذا الحزب أن يختار للخلافة علياً بن أبي طالب ابن عم النبي وأدنى قريب له ، والذي كان فضلاً عن ذلك زوجاً لابنته فاطمة . ولم يجد هذا الحزب فرصة مواتية يسمع فيها صوته عالياً إلا حينما كان على رأس الدولة الإسلامية الخليفة الثالث عثمان أحد أفراد الأسرة الأموية »[3] . ويذهب أحمد أمين إلى مثل هذا الرأي فيقول : « كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه ، وأولى أهل البيت العباس عم النبي ، وعلي بن عمه ، وعلي أولى من العباس »[4] . ويقول

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ٢٠ ، ص ٢٢١ / ٢٢٢ .

(٢) تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ١٢٤ .

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام (جولد زيهر) ، ص ١٨٩ .

(٤) فجر الإسلام (أحمد أمين) ، ص ٢٦٦ .

أيضاً «كان جمع من الصحابة يرى أن علياً أفضل من أبي بكر وعمر وغيرهما ، وذكروا أن ممن كان يرى هذا الرأي عماراً وأبا ذر وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله والعباس وبنيه ، وأُبـيٌّ بن كعب وحذيفة إلى كثير غيرهم»[1] . ويذهب إلى أن هؤلاء كانوا يكونون حزباً ، وهذا الحزب وجد من بعد وفاة الرسول ونما بمرور الزمان وبالمطاعن في عثمان ، ويرى أحمد أمين أن هذا التشيع أخذ صيغة جديدة بدخول العناصر الأخرى في الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية ، وإن كل قوم من هؤلاء كانوا يصبغون التشيع بصبغة دينهم ، فاليهود تصبغ التشيع بصبغة يهودية ، والنصارى تصبغه بصبغة نصرانية وهكذا . وإذا كان أكبر عنصر دخل الإسلام هو العنصر الفارسي كان أكبر الأثر في التشيع إنما هو للفرس[2] .

ولو فرضنا صحة ما ذكره ابن أبي الحديد واليعقوبي ، فإن ما استنتجه أحمد أمين والمستشرقون فيه كثير من التعسف ، إذ أن أولئك الصحابة المشار إليهم لم يُذكر أنَّ أحداً منهم تبنى عقيدة من العقائد التي عرف بها الشيعة كتقديس الأئمة والقول بعصمتهم أو رجعتهم . وإذا كانوا قد فضلوا علياً فلم يتجاوز هذا التفضيل رؤيتهم أنه أكفأ من غيره لتولي أمر المسلمين . وحينما بويع

---

(١) فجر الإسلام ، ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٧٧ / ٢٧٨ ، وقد استهوت فكرة الأحزاب هذه أحد الشيعة المعاصرين فذهب إلى أن الناس انقسموا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أحزاباً خمسة : ١ ــ حزب سعد بن عبادة رئيس الخزرج من الأنصار . ٢ ــ حزب أبي بكر وعمر ومعهما جل المهاجرين . ٣ ــ حزب علي ومعه بنو هاشم وقليل من المهاجرين وكثير من الأنصار الذين قالوا لا نبايع إلا علياً . ٤ ــ حزب عثمان بن عفان من بني أمية ومن لف لفيفهم . ٥ ــ حزب سعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن من بني زهرة . ومال قسم كبير من الأنصار مع حزب أبي بكر وعمر فقوي حزبهما ، واضطر عثمان وحزب ابن أبي وقاص أن يبايعوا أبا بكر وبقي حزب علي هو المعارض الوحيد : انظر الشيعة في الميزان (محمد جواد مغنية) ، ص ٢٥ . ويبدو أن الكاتب اللبناني أثرت عليه الحياة البيروتية وما فيها من صراع حزبي ، فصور حياة المسلمين الأولى الطاهرة النقية بهذه الصورة المتناقضة .

غير علي بالخلافة لم يرفع أحد منهم صوتاً أو يبدي اعتراضاً ناهيك عن أن يُكَونوا حزباً ناقماً معارضاً .

٢ ــ يميل بعض مؤرخي الفرق وفريق من الباحثين المحدثين إلى إرجاع بداية التشيع إلى أواخر عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه أو إلى حركة السبئية بتقدير أدق . فالملطي في كتابه « التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع » ، يجعل السبئية على رأس فرقة الإمامية وينسب إليهم نشأة[١] التشيع . ويقول المقريزي : « وحدث أيضاً في زمن الصحابة رضي الله عنهم مذهب التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه والغلو فيه ، فلما بلغه ذلك أنكره وحرق بالنار جماعة ممن غلا فيه وأنشد .

لما رأيت الأمر أمراً منكراً   أججت ناراً ودعوت قِنبراً

وقام في زمنه رضي الله عنه ، عبد الله بن وهب بن سبأ المعروف بابن السوداء السبأي ، وأحدث القول بوصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي بالإمامة من بعده ، فهو وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته على أمته من بعده بالنص ، وأحدث القول برجعة علي بعد موته إلى الدنيا ، وبرجعة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً . وزعم أن علياً لم يقتل وإن فيه الجزء الإلهي وإنه هو الذي يجيء في السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً »[٢] . وصار ابن سبأ يتنقل من الحجاز إلى أمصار المسلمين يريد إضلالهم . ويذهب إلى هذا الرأي أيضاً بعض الدارسين المعاصرين الذين عدوا فرقة السبئية أول الفرق الغلاة لدى الشيعة ، ويذهب بعض هؤلاء إلى أن اليهود هم المؤسسون الحقيقيون للعقيدة الشيعية الغالية ، وقد دخل بعض أحبارهم وكهانهم الإسلام ، وتقدموا إلى

---

(١) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (الملطي) ص ١٨ .

(٢) خطط المقريزي ، جـ ٢ ، ص ٢٥٦ / ٢٥٧ .

العالم الإسلامي ، منتهزين أبعاد علي عن الخلافة ، بفكرة الإمام المعصوم أو خاتم الأنبياء[1] .

ويستند الذين يرجعون أصل التشيع إلى ابن سبأ إلى ما يأتي :

أولا : إن ابن سبأ أول من هاجم الخلفاء الثلاثة الأولين واعتبرهم مغتصبين للخلافة .

ثانياً : إنه أول من نادى بقداسة « علي » وبفكرة وصايته عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وإنه ثالثاً : قال بالرجعة[2] .

وقد أثار ربط التشيع بابن سبأ ، علماء الشيعة وباحثيهم ، ومن ثم حرصوا على إبعاد هذه الفئة عنهم ، وشنوا هجوماً عنيفاً على السبئية محاولين إخراجها من دائرتهم ، وهكذا ذهب الشيعة إلى أن شخصية عبد الله بن سبأ من اختلاق خصوم الشيعة لإظهارهم بمظهر الخارجين على الإسلام والمارقين من الدين ، ويقولون إن شخصية ابن سبأ شخصية متوهمة لا أثر لها ولا وجود[3] . كما يتشكك بعض الباحثين من غير الشيعة في صحة ربط التشيع بالسبئية مستبعدين أن يكون ابن سبأ قد قال بتلك المعتقدات التي نسبت إليه كالوصية والرجعة للأئمة ، أو أن يكون لابن سبأ ذلك الأثر الخطير الذي نسب إليه من تحريك الفتنة وبلبلة الفكر[4] . وقد ردد هؤلاء ومن بينهم طه حسين نفس ما يذكره الشيعة من أن ابن سبأ كان مُتَكَلَّفاً مَنْحولا قد اخترع بآخرة ، حين كان الجدال بين الشيعة

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ١ ، ص ٦٨ .

(٢) نظرية الإمامة لدى الشيعة الأثنى عشرية (أحمد محمود صبحي) ، دار المعارف ـ مصر ١٩٦٩ م ، ص ٣٦ .

(٣) أضواء على خطوط محب الدين الخطيب (عبد الواحد الأنصاري) ، ص ٢٠ / ٢١ ، هامش ٢ ، وقد كتب أحد الشيعة المعاصرين وهو مرتضى العسكري كتاباً بعنوان : عبد الله بن سبأ ، (النجف ، ١٩٥٦) ، أنكر فيه حقيقة عبد الله بن سبأ .

(٤) الفتنة الكبرى ، عثمان (طه حسين) ، ص ١٣١ / ١٣٤ .

وغيرهم من الفرق الإسلامية ، أراد خصوم الشيعة أن يدخلوا في أصول هذا المذهب ـ (أي مذهب الشيعة) ـ عنصراً يهودياً إمعاناً في الكيد لهم ، والنيل منهم »[1] .

وفي ضوء الدراسات الحديثة لهذه الفترة الغامضة من التاريخ الإسلامي ، لم تعد آراء الشيعة وطه حسين وأمثاله عن ابن سبأ والسبئية مقبولة لدى كثير من الباحثين الذين مَحَّصوا الأخبار وحققوا الوقائع المحيطة بحركة السبئية ، وأثبتوا ، بما لا يدع مجالا للشك حقيقة وجود عبد الله بن سبأ والدور الذي قام به في تحريك الفتن وتدبير المؤامرات ، وهو دور لم يضطلع به ابن سبأ وحده بل إنه كان يمثل حلقة في مخطط يهودي خطير لم يقف طموحه عند إثارة الفتنة فحسب ، بل بذر ، وأثار ، كثيراً من المشكلات العقائدية والفكرية التي كان لها خطرها في البيئة الإسلامية[2] .

٣ ـ ويذهب فريق ثالث من الباحثين إلى إرجاع التشيع من ناحية تاريخية إلى تلك الفترة التي أعقبت « التحكيم » في الحرب التي دارت بين علي ومعاوية . والتشيع في نظر هؤلاء كان رد فعل لآراء الخوارج المتطرفة حول مشكلة الإمامة . فأمام إصرار الخوارج على أن تكون الإمامة عامة ، ذهب الشيعة إلى جعل الإمامة من حق آل البيت وذرية علي ، وأنها تكون بالنص من النبي عليه الصلاة والسلام ، وبينما يذهب بعض الخوارج إلى أن الإمامة غير واجبة ولا يلزم نصب الإمام إذا تحققت مصالح المسلمين ، يذهب الشيعة إلى

---

(١) الفتنة الكبرى ، علي وبنوه ، ص ٩٠/ ٩١ .

(٢) دراسات في الفلسفة الإسلامية (محمود قاسم) ، ص ١٠٩/ ١١٠ . عبد الله بن سبأ وأثره في أحداث الفتنة في صدر الإسلام (سليمان بن حمد العودة) ، رسالة ماجستير مخطوطة بجامعة الإمام محمد بن سعود قسم التاريخ ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٣ م . طبعت هذه الرسالة ونشرتها دار طيبة للنشر والتوزيع ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م .

وجوب الإمامة ووجوب تعيين الإمام . والشيعة بهذا المفهوم ، في نظر هؤلاء ، هم الذين ناصروا علياً وأيدوه في حرب « الجمل » و « صفين » حينما تفرقت من حوله طوائف المسلمين ، يقول ابن النديم في كتابه « الفهرست » لما خالف طلحة والزبير على (علي) رضي الله عنه ، وأبيا إلا الطلب بدم عثمان بن عفان وقصدهما « علي » عليه السلام ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه ، تسمى من اتبعه على ذلك « الشيعة » وكان يقول : شيعتي »[1] .

ولو صحت هذه الرواية التي يذكرها ابن النديم الشيعي ، فإن الناظر إلى أتباع علي رضي الله عنه ، في هذه الفترة ، لا يجد أنه كانت تجمعهم مبادئ مشتركة أو بواعث موحدة ، إذ كان بين أصحابه المخلصين له كابن عباس وعمار بن ياسر وحُجْر بن عديٍّ رضي الله عنهم ، كما كان بينهم كثير من الأنصار الذين لا يُشَكُّ في دينهم ولا في إخلاصهم ، وكان بين أتباعه طائفة من العلماء والفقهاء وحملة القرآن والعُبَّاد ، وجميع هؤلاء لم تكن تبعيتهم لعلي رضي الله عنه تبعية عمياء ، بل كانوا مجتهدين في الدين ، رأوا أنه أكفأ من يكون لتولي الخلافة ، وأنَّه الإمام الذي بُويع وينبغي مناصرته ولا يجوز الخروج عليه من غير سبب يدعو لذلك ، ولكن لم يروا له الطاعة في كل ما يرى من الأمور . ومن ثم فإن بعضهم قبل التحكيم في حرب صفين رغم كراهية علي لذلك . وإلى جانب هؤلاء كان هناك بعض الطامعين ، ومروجوا الفتنة ، وكثير ممن شاركوا في مقتل الخليفة عثمان رضي الله عنه . وهكذا نجد أن هذه الجماعات التي ضمها معسكر الخليفة علي رضي الله عنه إبان حروبه مع خصومه ، لا تكون حزباً منتظماً يدين بالطاعة المطلقة لعلي ، ولا تجمعهم عقيدة مشتركة في آل البيت ، فإذا ما أطلقت كلمة شيعة على هذه الجماعات فإنها لا تخرج في دلالتها عن معناها اللغوي العام الذي يشير إلى الاتباع والأنصار ويؤيد هذا ما ورد في نص الصحيفة التي كانت في التحكيم حيث ذكر

---

(١) الفهرست (ابن النديم) ، ص ٢٦٣ .

فيها «شيعة علي» إلى جانب «شيعة معاوية»[1]، مما يدل على أن شيعة «علي» لا تشير إلى المعنى الاصطلاحي لهذا اللفظ، والذي اكتسب مدلولا خاصاً فيما بعد.

٤ ـ أما وجهة النظر الرابعة فتربط بداية التشيع بفاجعة كربلاء والتي انتهت بمقتل الحسين بن علي، ويعتبر أصحاب هذا الرأي أن استشهاد الحسين في كربلاء يمثل نقطة تحول هامة في التاريخ الفكري والعقائدي للشيعة. وأهمية هذه الحادثة لا تعود إلى أنها أذكت حماس الشيعة ووحدت صفوفهم، بل تعود أهميتها إلى أن التشيع بعدها تحول من مجرد رأي سياسي إلى عقيدة راسخة في نفوس الشيعة. فقد أدرك الشيعة بعد هزيمة كربلاء وما تلاها من حركات يائسة أنه لا قبل لهم بمقاومة سلطان بني أمية بالسيف والقوة، فاستعانوا على ستر أمرهم وحولوا الحرب بينهم وبين الأمويين من حرب سياسية إلى حرب فكرية تتخذ من الستر والتقية أسلوباً. ومن هنا يرى كثير من الباحثين أن التشيع كعقيدة ومذهب تبلور في هذه الفترة وكانت كربلاء منطلقاً له. فالمستشرق (شتروتمان) يكتب في دائرة المعارف الإسلامية قائلاً «وكان مقتل الحسين الذي لقي مصرعه بسيوف جند الدولة، أكثر مما كان دم علي الذي اغتاله فرد من الخوارج، هو بذرة مذهب الشيعة»[2]. وإلى مثل هذا الرأي يذهب علي حسني الخربوطلي فيقول في كتابه «تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي»، «إن الحركة الشيعية بدأ ظهورها في العاشر من المحرم، وصبغت مبادئ الشيعة بصبغة دينية، فاتجهت الشيعة بعد مقتل الحسين اتجاهاً دينياً، بل غلب الجانب الديني في التشيع الجانب السياسي»[3].

فبعد مقتل الحسين تكونت حركة التوابين بالكوفة، وهم جماعة آلمهم

---

(١) الطبري، جـ ٥، ص ٥٣/٥٤.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (الشيعة) الترجمة العربية، المجلد الرابع عشر، ص ٥٩.

(٣) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (الخربوطلي)، ص ١٢٣.

المصير المحزن الذي انتهى إليه الحسين ، وشعروا بأنهم بتقصيرهم عن نصرته شاركوا في إيراده هذا المورد ، وتعاهدوا فيما بينهم على الانتقام له والقصاص من قتلته وأخذ الثأر منهم . ويصور المسعودي دوافع هذه الجماعة فيقول : « وفي سنة خمسة وستين تحركت الشيعة بالكوفة وتلاقوا بالتلاؤم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيراً بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه ، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه ورأوا أنهم لا يغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه »[1] . وصمم هؤلاء على الأخذ بثأر الحسين وتحركوا بقيادة نفر منهم سليمان بن صرد الخزاعي ، ووصلوا إلى موضع بالعراق يقال له « عين الوردة » مطالبين بدم الحسين بن علي ، فالتحموا مع الجيش الأموي وانتهى الأمر بقتل قائدهم سليمان بن صرد وغالبية أتباعه[2] ، كما ظهر أيضاً بعد ذلك ، المختار بن أبي عبيد الثقفي وقاد جماعات من الشيعة بالكوفة ، وقاموا بتتبع قتلة الحسين واقتصوا منهم وأطلق على هذه الجماعة « الشيعة »[3] . وبعد هذه الفترة أخذت الشيعة تتكون كفرقة كلامية تضع أصول التشيع وتقعد المبادئ وتدافع عنها .

وإذا ما استعرضنا هذه الآراء مجتمعة يمكن القول إن كلمة شيعة قد استخدمت ولفترة طويلة في مدلولها اللغوي العام ، وللإشارة إلى أتباع علي وأعوانه ، وربما كان من بين هؤلاء الأعوان جماعة من الصحابة أنفسهم رأوا أنه أكفأ من غيره لتولي أمر المسلمين ، ولكن لم يصل بهم الحد إلى تفضيله على ابي بكر وعمر كما ورد عن أحد الشيعة وهو شريك بن عبد الله[4] ، إنه

---

(١) مروج الذهب (المسعودي) ، جـ٣ ، ص ١٠٠/١٠١ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠١/١٠٣ .

(٣) انظر ما يلي ، ص ١١١ وما بعدها .

(٤) شريك بن عبد الله النخعي الكوفي ، تولى القضاء بواسط والكوفة ، ولد عام ٩٠ ، وتوفي سنة سبع أو ثمان وسبعين بعد المائة ، وصف بأنه صدوق يخطئ كثيراً ، تغير حفظه منذ ولي

كان يفضل أبا بكر وعمر فقيل له : أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر ، فقال : كل شيعة علي على هذا ، هو يقول على أعواد هذا المنبر : خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ، افكنا نكذبه والله ما كان كذاباً »[1] . وكان من بين أتباع علي جماعات حاربت معه بعد مقتل الخليفة عثمان . وربما فضله بعضهم على معاوية بل وعلى عثمان ، وبلغ الأمر ببعض المنحرفين من شيعته إلى تفضيله على أبي بكر وعمر . ويقول نشوان الحميري : «كانت الشيعة الذين شايعوا علياً عليه السلام على قتال طلحة والزبير وعائشة ومعاوية والخوارج في حياة علي عليه السلام ثلاث فرق : (١) فرقة منهم وهم الجمهور الأعظم الكثير يرون إمامة أبي بكر وعمر وعثمان إلى أن غير السيرة وأحدث الأحداث . (٢) وفرقة منهم ، أقل من أولئك عدداً يرون الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر ثم عمر ثم علياً ولا يرون لعثمان إمامة ، وحكى الجاحظ أنه كان في الصدر الأول لا يسمى شيعياً إلا من قدم علياً على عثمان ولذلك قيل شيعي وعثماني ، فالشيعي من قدم علياً على عثمان والعثماني من قدم عثمان على علي ، وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان لأنه كان يقدم علياً على عثمان . (٣) وفرقة منهم يسيرة العدد جداً ، يرون علياً أولى بالإمامة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ويرون إمامة أبي بكر وعمر كانت من الناس على وجه الرأي والمشورة ويصوبونهم في رأيهم ولا يخطئونهم إلا أنهم يقولون : إن إمامة علي كانت أصوب وأصلح . . وكان الشيعة كذلك حتى مقتل الحسين[2] » . واتخذ بعض هؤلاء من حب علي ستاراً حركوا من ورائه الفتن

قضاء الكوفة ، وكان عادلا فاضلاً عابداً شديداً على أهل البدع ، وكان يقدم علياً على عثمان . انظر : تهذيب التهذيب (ابن حجر) ، ج ٤ ، ص ٣٣٣ / ٣٣٧ تقريب التهذيب (ابن حجر) ، ج ١ ، ص ٣٥١ .

(١) كتاب النبوات (ابن تيمية) ، ص ١٣٢ .

(٢) الحور العين (أبو سعيد نشوان الحميري ت ٥٧٣ هـ) ، تحقيق كمال مصطفى ، مطبعة السعادة ــ مصر ١٩٤٨م ، ص ١٨٠ / ١٨١ .

وأثاروا من خلفه عقائد باطلة أنكرها « علي » نفسه كتأليهـه ، والقول بـرجعته ، وتمثل تلك الجماعات ، وما نادت به من آراء ، البذور الأولى للحـركة الشـيعية في صورها المختلفة . وسرعان ما نمت هذه البذور وتـرعرعت وبـدت في صـورة مذاهب عديدة .

وإذا استثنينا ما ورد من نسبة بعض هـذه الآراء إلى ابـن سـبأ وجمـاعة السبئية ، فإن كثيراً من المصادر تشير إلى أن هذه المبادئ لم تعرف عنـد الشـيعة قبل هشام بن الحكم (توفي سنة ١٩٠ هـ) أحد متكلمي الشـيعة ، والـذي يقـال إنه ابتدع هذا القول ثم أخذه عنه معاصروه . ويقول عنه ابن النديم « إنـه ممـن فتق الكلام في الإمامة ، وهذب المذهب والنـظر ، وألف في هـذا المقـام « كتـاب الإمامة » و « كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول » و « كتاب الوصية والرد على من أنكرها » . . . إلخ[1] . ويؤيد ارتباط معتقدات الشيعة وتبلـور مـذهبهم بهـذه الفترة التي ظهر فيها هشام بن الحكم وأمثاله كهشام بن سالم الجـواليقي (تـوفي سنة ١٥٠ هـ) وزرارة بن أعين ، ومحمد بن النعمان (شيطان الـطاق) أو مـؤمن الطاق كما تسميه الشيعة ، يؤيد ذلك أن معـظم أسـانيد الشـيعة عـن النص والوصية ترجع وتنتهي عند جعفر الصادق (توفي سنة ١٤٨ هـ) ووالده أبو جعفـر محمد بن علي فإليهما والى علي الرضا تنسب أغلـب الـروايات عـن النص والوصية ورجعة الأئمة وعصمتهم .

فالمذهب الشيعي إذن قد تكون في هذه الفترة ، وكان الكلام من قبل ــ كما يقول القاضي عبد الجبار ــ في التفضيل ومن هـو أولى بـالإمامة ومـا يجـري مجراه[2] . وبناء على هذا ينص ابن المرتضى على أن مذهب الرافضة قـد حـدث بعد مضي الصدر الأول ، ولم يسمع عن أحد من الصحابة من يـذكر أن النص في « علي » جلي ولا في اثني عشر إماماً كما زعموا ، فإن زعموا أن عمـاراً وأبـا

---

(١) الفهرست (ابن النديم) ، ص ٢٦٣ / ٢٦٤ .

(٢) المغني (القاضي عبد الجبار) ، جـ ٢٠ ، ص ١٢٧ .

ذر الغفاري والمقداد بن الأسود وسلمان الفارسي كانوا سلفهم لقولهم بإمامته عليه السلام ، أكذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهما[1] .

وهكذا يمكن القول بأن التشيع لم يكن مذهباً واحداً بل إنه اتخذ أطواراً مختلفة ومر بمراحل عديدة ، فقد كان لكل عصر نوع من التشيع ، ولكل طائفة شيعية لون من التشيع . فقد وجد المعاصرون لعلي الذين أبرزوا فضائله وكفاءته ، كما ظهر في عهده من فضل علياً على عثمان فقط ، وظهر بعد ذلك الرافضة الذين رفضوا ولايتي أبي بكر وعمر ، ثم ظهر الغلاة الذين كفروا الصحابة . ويذكر الذهبي (توفي سنة ٧٤٨ هـ) « أن الشيعي الغالي في زمان السلف وعرفهم هو من يتكلم في عثمان والزبير وطلحة ومعاوية وطائفة ممن حارب علياً رضي الله عنه وتعرض لسبهم ، والغالي في زماننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة ويتبرأ من الشيخين أيضاً »[2] . وتعددت الطوائف من إمامية اثني عشرية وزيدية وإسماعلية ، واتصل التشيع الإسماعيلي ببعض الفلسفات الغنوصية والأديان والمذاهب واتخذ أشكالا وتبنى عقائد تنوعت بتنوع المصادر التي استقت منها هذه الجماعة أو تلك .

الشيعة الغلاة :

تنسب إلى الشيعة فرق متعددة تطرف بعضها فرفع علياً وذريته إلى مرتبة الألوهية أو النبوة وجعل منزلة « علي » أعلى من منزلة النبي ومرتبته . واعتدل بعضها فلم يصل إلى هذا المستوى من الغلو والانحراف . وقد أنكر الشيعة أنفسهم نسبة تلك الفرق الغالية إليهم أو إلى الإسلام[3] . ولكن كتاب الفرق

---

(١) طبقات المعتزلة (ابن المرتضى) ، ص ٥/٦ .

(٢) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (الذهبي) ، جـ ١ ، ص ٦ .

(٣) انظر : الشيعة في الميزان (محمد جواد مغنية) ، ص ٢٩١ / ٢٩٤ ، وقد عبر سعد القمي وهو من الإمامية عن لعنه للغلاة ووصفهم بالخروج من الإسلام فيقول (فهذه فرق أهل الغلو

الإسلامية جميعاً يثبتون علاقة وطيدة بين هذه الفرق الغالية وبين التيار الشيعي العام . وإذا لم يكن لهؤلاء الغلاة صلة بالتشيع في صورته المعتدلة ، فإنهم ولا شك اتخذوا من التشيع ستاراً ، ومن حب آل البيت وسيلة إلى نشر أفكارهم المنحرفة وعقائدهم الباطلة ، ومن ثَمَّ أصبح التشيع كما يقول أحمد أمين ـ مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد ـ ومن كان يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية وزردشتية وهندية ، ومن كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته ، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب أهل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم[1] » . وهكذا كان أولئك الغلاة سلفاً لذلك التيار الباطني الهدام الذي نما وقوي عوده في أحضان فرقة الشيعة الإسماعيلية وفرخ في ظلالها ، كما سنرى . من أجل ذلك نجد أنه لا بد من الإشارة إلى هؤلاء الغلاة ممن ينتسبون إلى التشيع .

وقد أورد كتاب الفرق الإسلامية العديد من هذه الفرق الشيعية المتطرفة كالسبئية والغرابية والبيانية والمغيرية والهاشمية والكيسانية والنعمانية واليونسية والنصيرية والخطابية والعلبائية والكاملية وغيرها[2] . ويصف الشهرستاني هؤلاء الغلاة بأنهم « هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقية وحكموا فيهم بأحكام الإلهية ، فربما شبهوا واحداً من الأئمة بالإله ، وربما شبهوا الإله بالخلق ، وهم على طرفي الغلو والتقصير » ويشير الشهرستاني إلى

ممن انتحل التشيع وإلى الخرمدينية والمزدكية والزنديقية والدهرية مرجعهم جميعاً ، لعنهم الله . وكلهم متفقون على نفي الربوبية عن الله الجليل الخالق تبارك وتعالى عما يصفون علواً كبيراً وإثباتها في بدن مخلوق » . المقالات والفرق ، ص ٦٤ .

(١) فجر الإسلام (أحمد أمين) ، ص ٢٧٦ .

(٢) لآراء هذه الفرق ومعرفة أصولها انظر : مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٦٦ وما بعدها ، الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٧٣ وما بعدها ، الفرق بين الفرق ، ص ١٢٣ وما بعدها ، وقد عد البغدادي هذه الطوائف جميعها من الفرق التي انتسبت إلى الإسلام وليست منه .

أنهم «استمدوا آراءهم من مذاهب الحلولية ومذاهب التناسخية ومذاهب اليهود والنصارى، وتلقوا أقوالهم في التناسخ من المجوس المزدكية والهند البرهمية ومن الفلاسفة والصابئة[1]». ومن يستعرض تاريخ حركات الغلاة ويقف على آرائهم يدرك خطورة هذه الحركات، ويتضح له أن الهدف الأساسي لها جميعاً هو هدم العقيدة الإسلامية من ناحية، وأبطال الشرع وعدم الالتزام به من ناحية أخرى، وهذا هو الهدف الذي سعت الحركات الباطنية إلى تحقيقه.

أما سعى هذه الحركات المتطرفة إلى هدم العقيدة الإسلامية فواضح من دعوتها إلى ألوهية الأئمة والقول بنبوة بعضهم، وادعاء أصحاب الحركات أنفسهم أحياناً أحد هذين المقامين. وقد سبق أن أشرنا إلى السبئية وكيف أن ابن سبأ أضفى على «علي» رضي الله عنه صفة الألوهية، وزعم أن فيه جزءاً إلهياً لم يقع عليه الموت، وأن هذا الجزء يتنقل في الأئمة بعد علي عن طريق التناسخ. وينسب إلى بعض العلبائية القول بألوهية محمد وعلي، وإلى بعض آخر القول بألوهية أصحاب الكساء، محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين[2]. وتنسب هذه المقالة أيضاً إلى النصيرية، الذين سنفرد لهم فصلاً خاصاً فيما بعد، لأن خطرهم على الإسلام لا زال ماثلاً. وممن قال بألوهية الأئمة المغيرة بن سعيد العجلى، الذي يحكي عنه صاحب دعائم الإسلام، فيقول: إنه كان من أصحاب أبي جعفر محمد بن علي ودعاته، فاستزله الشيطان فكفر وادعى النبوة، وزعم أنه يحيي الموتى، وزعم أن أبا جعفر (ص) إله، تعالى الله رب العالمين. وزعم أنه بعثه رسولا. وتابعه على قوله كثير من أصحابه سموا المغيرية باسمه وبلغ ذلك أبا جعفر محمد بن علي فلعن المغيرة وتبرأ منه ومن قوله ومن أصحابه وكتب إلى جماعة أوليائه وشيعته وأمرهم

---

(١) الملل والنحل، جـ ١، ص ١٧٣/ ١٧٥.

(٢) نفس المرجع، جـ ١، ص ١٧٥.

برفضهم والبراءة إلى الله منهم[1] » . وممن أله الأئمة أيضاً الخطابية أصحاب أبي الخطاب محمد بن أبي زينب الأسدي ، المقتول عام ١٣٨ هـ ، والذي يقول عنه النعمان بن محمد القاضي الشيعي الفاطمي : « كان أبو الخطاب في عصر جعفر بن محمد من أجلّ دعاته فأصابه ما أصاب المغيرة فكفر وادعى أيضاً النبوة ، وزعم أن جعفر بن محمد إله ، تعالى الله عن قوله ــ واستحل المحارم ورخص فيها ، وكان أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه وقالوا يا أبا الخطاب خفف علينا فيأمرهم بتركها ، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم ، وارتكبوا المحظورات . وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور ، وقال من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه . فبلغ أمره جعفر بن محمد فلم يقدر عليه بأكثر من أن لعنه وتبرأ منه ، وجمع أصحابه فعرفهم ذلك وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه[2] » . ويقال إن جعفر لما بلغه أن أبا الخطاب قال فيه ما قال من الغلو دعا عليه باللعنة ، فيحكي المفضل (أحد أخصاء جعفر) أنه دخل على جعفر يوماً فألفاه مغضباً مستعبراً ، قال : فقلت له : ما لك جعلت فداك ؟ فقال أي مفضل ازعم هذا الكافر أني أعلم الغيب ؟ أخرج إلى هؤلاء ــ يعني أنصار أبي الخطاب ــ فقل لهم : إنا خلائق مخلوقون ، وعباد مربوبون . وينسب إليه أيضاً قوله : « اللهم العن أبا الخطاب فإنه خوفني قائماً وقاعداً وعلى فراشي ، اللهم أذقه حر الحديد »[3] . وقد استعان الخطابية في دعم آرائهم بالتأويل ، وهو باب واسع فتحه الشيعة ، وولج فيه بسهولة كل من أراد إدخال آراء غريبة في الإسلام ، فيقول سعد القمي : « تأول الخطابية قول الله تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت

---

(١) دعائم الإسلام (النعمان بن محمد) ، جـ ١ ، ص ٤٩ ، انظر أيضاً الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٧٦ / ١٧٧ .

(٢) دعائم الإسلام (النعمان بن محمد) ، جـ ١ ، ص ٤٩ / ٥٠ .

(٣) معرفة الرجال (الكشي) ، ص ١٨٧ / ١٨٩ .

أن أعيبها ﴾[1] ، لكي لا تعطب أهلها ، إن السفينة أبو الخطاب وإن المساكين أصحابه وإن الملك الذي وراءهم عيسى بن موسى العباسي ، وهو الذي قتل أبا الخطاب . وإن أبا عبد الله (يقصد جعفر الصادق) أراد أن يعيبنا بلعنه إيانا في الظاهر ، وفي الباطن عنى أضدادنا ومن خالفنا . وتأولوا في ذكره أبا الخطاب أنه عنى قتادة بن دعامة البصري فقيه أهل البصرة . وكان قتادة يأتي أبا جعفر وأبا عبد الله وكان يُكَنَّى بأبي الخطاب ، فتأول أبو الخطاب وأصحابه أنه الذي لعنه أبو عبد الله ، وأن أبا عبد الله كان يُلَبِّس على أصحابه ليزيدهم ضلالا وتيهاً . فأخبر أبو عبد الله بذلك فقال : والله ما عنيت إلا محمد بن مقلاص بن أبي زينب الأجدع البراد عبد بني أسد فلعنه الله ولعن أصحابه ولعن الشاكّين فيه ولعن من قال إني أُضمر وأبطن غيرهم ، ولعن الله من وقف على ذلك ، وبريء منه »[2] . ويذهب الشهرستاني إلى أن أبا الخطاب لم يناد بألوهية جعفر فحسب ، بل قال بألوهية آبائه ، وقال بأنهم هم أبناء الله وأحباؤه ، وزعم بأن الألهية نور في النبوة ، والنبوة نور في الإمامة ولا يخلو العالم من هذه الآثار والأنوار ، كما زعم أن جعفراً هو الإله في زمانه ، وليس هو المحسوس الذي يرونه ولكن لما نزل إلى هذا العالم لبس تلك الصورة فرآه الناس فيها[3] » .

وقد ذهب أيضاً بيَّان بن سمعان التميمي ، صاحب فرقة البيَّانية إلى أنّ الإمامة انتقلت إليه من أبي هاشم بن محمد بن الحنفية ، وقال بألهية علي بن أبي طالب ، وزعم بأن جزءاً إلهياً حل في « علي » واتحد بجسده ، فبه كان يعلم الغيب إذا أخبر عن الملاحم وصح الخبر ، وبه كان يحارب الكفار فينتصر . إلخ وفسر بيَّان قول الله تعالى ﴿ هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ﴾[4] بأن المراد « بالله » في الآية « علي » وأنه هو الذي يأتي في الظلل ،

(١) سورة الكهف : آية ٧٩ .

(٢) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٥٤/ ٥٥ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٧٩/ ١٨٠ .

(٤) سورة البقرة : آية ٢١٠ .

والرعد صوته والبرق تبسمه . ثم ادعى بيّان أن جزءاً من الألوهية حل فيه وانتقل إليه عن طريق التناسخ وإنه هو المذكور في القرآن في قوله تعالى ﴿ هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وقال : أنا البيان وأنا الهدى وأنا الموعظة[1] .

وقد كان لهذه الحركات المتطرفة نشاط واسع في خراسان أيام أبي مسلم الخراساني ، فظهرت من بينهم الرزامية الذين ساقوا الإمامة إلى أبي مسلم وأدعوا حلول الله فيه[2] . كما قام بعض الراوندية وأعلنوا أنَّ المنصور الخليفة العباسي إله ، وإن أبا مسلم الخراساني نبي ، وأنَّه يعلم سرهم ونجواهم[3] ، كما ظهرت « الأبومسلمية » أو « المسلمية » في خراسان على يد الخرمية الذين أعلنوا لبعضهم أن أبا مسلم لم يمت ولن يموت بل سيظهر ويملأ الأرض عدلا ، وأعلنوا أن الأئمة آلهة وأنهم أنبياء ورسل ، وتكلموا في تناسخ الأرواح والأدوار في هذه الدنيا[4] . وأبطلوا العقائد الإسلامية في القيامة والبعث والحساب ، وفسروا القيامة بأنها خروج الروح من البدن ودخوله في بدن آخر غيره ، إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً ، وأنهم مسرورون في هذه الأبدان أو معذبون فيها ، وأن الأبدان هي الجنات وهي النار وأولوا كل ذلك في ضوء بعض الآيات القرآنية ، وفسروا القرآن تفسيراً غنوصياً بحتاً مازجين العقائد الثنوية القديمة ، مانوية وديصانية وماندائية ، وبما تحتويها من عناصر أفلاطونية وفيثاغورية محدثة ، بالإسلام أو بالعقيدة الشيعية في بني العباس[5] . كما ظهر

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٢/١٥٣ ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٣٦/٢٣٧ ، ويذكر سعد القمي أن « بيَّان » كان تبَّاناً يبيع التبن بالكوفة . ثم ادعى أن محمد بن علي بن الحسين أوصى إليه ، فأخذه خالد بن عبد الله القسري فقتله وصلبه مدة ثم أحرقه : المقالات والفرق ، ص ٣٣ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٣/١٥٤ ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٦/٢٥٧ .

(٣) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٦٩/٧٠ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٤/٦٥ .

(٥) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٥٢/٣٥٣ .

أيضاً المقنع الخراساني الذي ادعى الألهية لنفسه وزعم لأتباعه أنه هو الإله وأنه كان قد تصور مرة في صورة آدم ، ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح وفي وقت آخر بصورة إبراهيم ثم تردد في صور الأنبياء إلى محمد ، ثم تصور في صورة علي وانتقل بعد ذلك في صورة أبي مسلم ، ثم زعم أنه في زمانه الذي كان قد تصور بصورة هشام بن حكيم (يعني نفسه) وقال : إني إنما أتنقل في الصور لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها ، ومن رآني احترق بنوري[1] . وقد ادعى الحلول أيضاً عبيد الله بن عمرو الكندي الذي زعم أن أبا هاشم بن محمد بن الحنفية أوصى له من بعده وقال بتناسخ الأرواح ، وذهب إلى أن روح الله حلت فيه ، ومن ثم ادعى الألوهية والنبوة معاً ، كما ادعى أيضاً علم الغيب ، والتف حوله بعض الحمقى وعبدوه[2] .

وقد كانت هذه الحركات وأمثالها ، نماذج لدعوات منحرفة تحمل في طياتها الكفر بالله تعالى والخروج على رسالاته ، وتنتهي في النهاية إلى تصوير الإله بصورة البشر . وقد وقع بالفعل كثير من أصحاب هذه الدعوات الغالية في التشبيه والتجسيم . فبيّان بن سمعان ، المشار إليه فيما سبق ، زعم أن معبوده جسم على صورة إنسان بأعضائه وأجزائه ، وقال بأنه يهلك كله إلا وجهه ، واستشهد الفاجر بقول الله تعالى﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ . مفسراً الآية على غير الوجه المفهوم منها[3] . وقد وقع المغيرية ، أصحاب المغيرة بن سعيد العجلي في التشبيه والتجسيم ، وبالإضافة إلى ادعاء المغيرة النبوة فقد أفرط في التشبيه كما يقول ، البغدادي ، وزعم أن معبوده رجل من نور وله أعضاء وقلب ينبع منه الحكمة ، وتكلم في بدء الخلق ، فزعم أن الله تعالى لما أراد أن يخلق العالم تكلم باسمه الأعظم ، فطار ذلك الاسم ووقع تاجاً على رأسه وتأول على

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٢٥٨ ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٤ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥١ .

(٣) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٣٧/٣٨ .

ذلك قول الله تعالى ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ . وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج وأتى في تقدم الخلق وإيجاده بآراء شبيهة بآراء المجوس في القول بالظلمة والنور ، ورد الخلق وما فيه من خير وشر إليهما[1] . وقد نسب التشبيه أيضاً إلى متكلمي الشيعة الإمامية ، كهشام بن الحكم ، وهشام بن سالم الجواليقي ، ومحمد بن النعمان وغيرهم ، وهذا يؤكد ما ذهب إليه الشهرستاني من أن التشبيه كان بالأصل والوضع في الشيعة »[2] .

أما التحلل من الشريعة وعدم الالتزام بأوامرها ونواهيها ، فتكاد كل الفرق الغالية تقول به وتنتهي إليه ، إذ زعموا جميعاً أن الإيمان بالأئمة والاعتقاد في إمامتهم يقود إلى الخلاص وإسقاط التكاليف وتحقق السعادة في الدنيا والآخرة ، وهذا تصور شبيه بمعتقد النصارى وزعمهم أن الإيمان بالمسيح كمنقذ ومخلص كاف لتحقيق سعادة الإنسان . وقد سبق أن أوردنا قول أبي الخطاب أن من عرف الإمام فقد حل له كل شيء كان حرم عليه ، وقد استباح أصحابه كل المحارم ، ويؤكد القمي هذا ، فينقل عن الخطابية أنهم أحلوا المحارم كلها من الزنا واللواط والسرقة وشرب الخمر ، وتركوا الصلاة والصوم والحج ، وأباحوا الشهادات بعضهم لبعض ، وقالوا من سأله أخوه في دينه ليشهد له على مخالفيه فليصدقه وليشهد له بكل ما سأله وأن ذلك فرض واجب عليه ، فإن لم يفعل فقد ترك أعظم فريضة من فرائض الله بعد المعرفة ومن ترك فريضة فقد كفر وأشرك ، وجعلوا الفرائض التي فرض الله تعالى رجالا سموهم وأنهم أمروا بمعرفتهم وولايتهم وجعلوا المعاصي رجالا ، أمروا بالبراءة منهم ولعنهم واجتنابهم ، وتأولوا على ما استحلوا من ذلك قول الله جل وعز : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾[3] . وقالوا خفف عنا بأبي الخطاب ووضع عنا به الأغلال والآصار ، يعنون الصلاة والزكاة والصيام والحج وجميع الأعمال ،فمن عرف

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٢٣٨ / ٢٤٠ ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٧٦ / ١٧٧ .
(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .
(٣) سورة النساء ، آية ٢٨ .

الرسول النبي الإمام فذلك عنه موضوع فليصنع ما أحب »[1] . وينسب الشهرستاني إلى الكيسانية القول بأن الدين طاعة رجل (وربما المقصود به هنا الإمام) ، وأدى بهم هذا الاعتقاد إلى تأويل أركان الشريعة من صلاة وصوم بأنها تشير إلى رجال ، وزعموا أن الوصول إلى الطاعة (أي طاعة الإمام) يسقط التكاليف الشرعية[2] . وقد أول عبد الله بن عمرو الكندي ــ الذي سبق ذكره ــ قول الله تعالى ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا ﴾ ، على أن من وصل إلى الإمام وعرفه ارتفع عنه الحرج في جميع ما يطعم ووصل إلى الكمال والبلاغ ، ومن ثم أباح جماعة من أتباعه المحرمات ورفعوا عن أنفسهم التكاليف »[3] . وقريب من هذا ما نسب إلى أبي منصور العجلي الذي يبدو تأثره الواضح بالنصرانية المحرفة في زعمه أن عيسى أول من خلقه الله ، ثم من بعده خُلِقَ علي ، وزعم أن رسل الله لا تنقطع أبداً . وأظهر كفره بالجنة والنار ، وزعم أن الجنة رجل أمرنا باتباعه وموالاته وهو إمام الوقت ، وأن النار رجل أُمرنا بمعاداته وهو خصم الإمام . وتأوَّل المحرمات كلها على أسماء رجال أمرنا الله بمعاداتهم ، والفرائض على أسماء رجال أُمرنا بموالاتهم ، واستحل من ثم النساء والمحارم ، وأحلَّ ذلك لأصحابه . وزعم أن الميتة والدم ولحم الخنزير والميسر وغير ذلك من المحارم حلال . وهكذا ينتهي إلى أن معرفة الإمام تُسْقِطُ عن الإنسان التكاليف وترفع عنه الخطاب[4] . وإلى مثل هذا ذهبت طائفة من الخُرَّمية الذين يقول عنهم الشهرستاني « إنهم دانوا

---

(١) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٥١/٥٢ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٥١/١٥٢ ، والآية التي استشهد بها (المائدة : ٩٣) تشير إلى حال بعض المسلمين الذين شربوا شيئاً من الخمر قبل نزول تحريمها وتثبت أنه لا جناح عليهم فيما فعلوا من قبل . انظر تفسير ابن كثير ، جـ ٢ ، ص ٩٢/٩٧ .

(٤) مقالات الإسلاميين ، ص ٩/١٠ ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤٣/٢٤٥ ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٧٩ . المقالات والفرق ، ص ٤٧/٤٨ .

بترك الفرائض ، وقالوا : إن الدين معرفة الإمام فقط ، ومنهم من قال الدين أمران : معرفة الإمام وأداء الأمانة . ومن حصل له الأمران فقد وصل إلى الكمال وارتفع عنه التكليف[1] .

وإلى جانب هذا الكفر والمروق على شرع الله ، تأثرت طوائف من هؤلاء الغلاة ببعض المذاهب الهندية وقالوا بتناسخ الأرواح وانتقالها من شخص إلى شخص ، وفسروا الثواب والعقاب بناء على هذا ، وعدوه نوعاً من التناسخ للأرواح في أشخاص آدمية أو حيوانية . وأنكر هؤلاء ، من ثم ، البعث وما يتبعه من نعيم وعذاب[2] . وفي أوساط هذه الجماعات المارقة ظهرت فكرة « الظاهر والباطن » واستخدمت لصرف كثير من الآيات عن معانيها لتتفق مع أفكارهم الباطلة ومذاهبهم الفاسدة[3] .

وهكذا يتبين لنا أن هؤلاء المتطرفين اتخذوا من حب آل البيت والتشيع لهم ذريعة لبث آرائهم الفاسدة وهدم الصرح الإسلامي ونقض عرى الإسلام عروة عروة . ومن ناحية أخرى جعلوا من التشيع مدخلاً لإحياء عقائد الديانات الوثنية ، كالقول بالتناسخ ، وانتقال أرواح الأئمة من إمام إلى إمام ، والزعم بحلول الله تعالى في أرواح البشر . وقد سببت هذه الجماعات بانتسابها إلى الشيعة ، حرجاً شديداً لأئمة الشيعة لا سيما محمد الباقر ، وجعفر الصادق ، اللذين ظهرت في عهدهما معظم الطوائف التي انتحلت اسم التشيع لآل البيت ، ولم يكن في وسع أئمة الشيعة إلا أن يتبرأوا من هؤلاء الغلاة ويلعنونهم على الملأ ويفضحوا أكاذيبهم ، كما فعل جعفر الصادق مع الخطابية . ويذهب الشهرستاني إلى أن جعفر الصادق « قد تبرأ عما كان ينسبه إليه بعض الغلاة

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ، عن الخرمية انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ٢ ، ص ١٠٢/١٠٨ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥١ ، ١٨٠ ، المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٤٨/٥٠ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٧٧/١٧٩ ـ ١٨٠ ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٤٩ .

وبرئ منهم ولعنهم ، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه ، لكن الشيعة بعده افترقوا وانتحل كل واحد منهم مذهباً ، وأراد أن يروجه على أصحابه فنسبه إليه وربطه به وجعفر بريء من ذلك ومن الاعتزال والقدر أيضاً »[1] .

الكيسانية :

تنسب هذه الفرقة إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، وتسمى من أجل ذلك بالمختارية . وقد ذهب إلى هذا معظم مؤرخي الفرق الذين اعتبروا الكيسانية والمختارية فرقة واحدة ، وأنها سميت الكيسانية لأن المختار كان يقال له كيسان ، أو أن كيسان الذي تنسب إليه كان مولى لعلي بن أبي طالب أو تلميذاً لمحمد بن الحنفية ، وأن المختار أخذ مقالته من كيسان هذا ومن ثم أطلق على هذه الفرقة الكيسانية[2] . ولكن الشهرستاني يميز بين الكيسانية والمختارية ، وفي الوقت ذاته يذهب إلى أن المختار بعد أن كان خارجياً ، أصبح زبيرياً (أي من أتباع عبد الله بن الزبير) ثم شيعياً ثم صار كيسانياً ، وقال بكثير من الآراء المتطرفة والغالية[3] . وقد أثار هذا الخلط والاضطراب في الروايات والغموض ، كثيراً من الشكوك حول طبيعة حركة المختار وحقيقة الكيسانية ، ومدى الارتباط بين الحركتين .

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٦٦ . انظر أيضاً : الإمام جعفر الصادق ، رائد السنة والشيعة (عبد القادر محمود) . انظر إلى اتجاه أهل البيت ، وما يقولون به ، ورفضهم الغلو فيهم من قبل أدعياء التشيع وقول أهل السنة والجماعة فيهم ، كتاب (الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة) لابن حجر الهيثمي ، ص ١٣٥ ، ـ وما بعدها ـ

(٢) مقالات الإسلاميين ، ص ١٨ ، الفرق بين الفرق ، ص ٣٨ ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ / ١٤٨ .

والذي يبدو أن حركة المختار كانت حركة شيعية معتدلة سعت إلى الثأر من قتلة الحسين بن علي من ناحية، وإلى تحقيق أطماع وتطلعات قائدها المختار من ناحية ثانية. بينما الكيسانية حركة غالية منحرفة اتخذت من التشيع ستاراً نفذت من خلاله بتعاليمها ونظرياتها وآرائها المنحرفة، وتولدت عنها كثير من الحركات الباطنية. ذلك أن المختار نشأ في بيئة مسلمة بعيدة عن هذه الانحرافات، فوالده أبو عبيد بن مسعود كان ممن أسلموا مع قبيلة ثقيف، ثم انتقل من الطائف موطنه وحيث ولد المختار، إلى المدينة وانضم إلى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه تولى قيادة المسلمين في فتوحات العراق، واستشهد هو وابنه جبر في موقعة الجسر الشهيرة على نهر الفرات[1]. وقد ولد المختار في السنة الأولى من الهجرة، وانتقل مع والده إلى بلاد العراق لقتال الفرس، وبعد استشهاد والده دخل تحت كفالة عمه سعيد بن مسعود الذي كان والياً لعلي رضي الله عنه على الكوفة.

وقد وصف المختار بأنه كان من أشراف العرب، وعلى درجة عالية من الذكاء والدهاء والفطنة[2]. وقد استغل ذكاءه وفطنته في محاولة تحقيق مكانة له في الدولة الإسلامية، فاتخذ من حب آل البيت والولاء لهم ستاراً ينفذ منه إلى أهدافه ومطامعه. وقد أظهر هذا الولاء حينما طلب منه زياد بن أبيه أن يوقع عريضة الشكوى ضد حُجْر بن عَدِّي فراوغ وامتنع. وفي عهد ولاية عبيد الله بن زياد قدم المختار الكوفة في جماعة عليهم السلاح يريد نصرة الحسين بن علي، ولكن عبيد الله بن زياد علم به فأخذه وضربه حتى شتر عينه وأودع السجن، وظل فيه بعد مقتل الحسين، حتى شفع له عبد الله بن عمر بن الخطاب، زوج أخت المختار، وكتب فيه إلى يزيد بن معاوية، فأمر يزيد بإخلاء سبيله، فأُطلق سراح المختار شريطة أن يغادر الكوفة. فاتجه المختار إلى الحجاز ولحق بابن

(١) انظر تاريخ الطبري، ج٣، ص ٤٥٤ وما بعدها.

(٢) المختار بن أبي عبيد الثقفي، (علي حسن الخربوطلي) ص ٤٠.

الزبير وناصره وقاتل معه أهل الشام[1] . وقد مَنّى ابن الزبير المختار ووعده الولاية ، ولكن المختار أدرك أنَّ ابن الزبير لن يحقق له آماله ولن يجد عنده ما يطمح إليه ، ومن ثم ولى وجهه شطر آل البيت ، ويقال إنَّه اتصل بعلي بن الحسين ، وظهر له بمظهر الذي يريد أن يقتص من قتلة الحسين ، ويريد أن يبايع له بالإمامة ويظهر الدعوة له ، فرفض « علي » هذا العرض وسَبَّ المختار على ملأ من الناس . ولما يئس المختار من علي زين العابدين ، حاول الاتصال بمحمد بن الحنفية . ويذكر أنَّ المختار قال له : إني على الشخوص للطلب بدمائكم والانتصار لكم ، فلم يعطه ابن الحنفية إجابة قاطعة تدل على الرضا أو الرفض ، بل قال له : إني لأحب أن ينصرنا ربنا ويهلك من سفك دماءنا ، ولست بآمر بحرب ولا إراقة دم ، فإنه كفى بالله لنا ناصراً ، ولحقنا آخذاً ، وبدمائنا طالباً[2] .

وسواء كان المختار مخلصاً في دعواه هذه أم غير مخلص[*] ، فإنه انتهز فرصة موت يزيد بن معاوية وتفرق أمر المسلمين فعاد إلى الكوفة مدعياً هذه المرة أنه قادم إليها من قبل محمد بن الحنفية وخاطب الناس قائلاً « جئتكم من قبل المهدي محمد بن الحنفية مؤتمناً منتخباً ووزيراً » . وبدأ الدعوة إلى إمامة المهدي محمد بن الحنفية ، وأظهر مناصرة أهل البيت . وزعم أنَّه ما جاء إلى الكوفة إلا ليقيم شعارهم ويظهر منارهم ويستوفي ثأرهم[3] ، وأنه سيأخذ بثأر الحسين بن علي وآله قتلى كربلاء .

---

(١) تاريخ اليعقوبي ، جـ ٢ ، ص ٢٥٨ .

(٢) أنساب الأشراف (البلاذري) ، جـ ٥ ، ص ٢١٨ .

(٣) البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ٨ ، ص ٢٤٩ .

(*) وتجدر الإشارة إلى أنه قد فسر : ما ورد في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام الذي رواه ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : في ثقيف كذاب ومبير « بأن الكذاب هو المختار بن أبي عبيد الثقفي ، والمبير هو الحجاج بن يوسف » انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ، جـ ٦ الفتن (باب ما جاء في ثقيف كذاب ومبير) ص ٤٦٧/٤٦٨ .

واستطاع المختار أن يجمع كثيراً من الأتباع والأنصار ممن ينتمون للشيعة ، وتمكن من الاستيلاء على الكوفة ، وعقدت له البيعة فيها على كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المُحلّين والدفع عن الضعفاء . . . وبدأ المختار في تتبع قتلة الحسين وفي مقدمتهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ولم يلق منهم أحداً إلا قتله وهدم داره وأخذ الثأر منه . ويقول الدينوري : إنّ المختار ولي الشرطة كيسان أبا عَمْرة وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول ، وتتبع دور من خرج إلى قتال الحسين بن علي فهدمها ، وكان أبو عَمْرة بذلك عارفاً ، فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار في لحظة ، فمن خرج إليه منهم قتله حتى هدم دوراً كثيرةً وقتل أناساً كثيرين ، وجعل يطلب ويستقصي فمن ظفر به قتله ، وجعل ماله وعطاءه لرجل من أبناء العجم الذين كانوا معه »[1] .

وقد أكسب هذا الفعل ، المختار مكانة كبيرة لدى الشيعة وحببه إليهم ، ويقال أن محمد بن الحنفية وعلياً بن الحسين سُرَّا من ذلك وعبَّرا عن سرورهما . ويذهب الشهرستاني إلى أن المختار انتظم له ما انتظم بأمرين : أحدهما انتسابه إلى محمد بن الحنفية علماً ودعوةً ، والثاني قيامه بثأر الحسين بن علي رضي الله عنهما واشتغاله ليلاً ونهاراً بقتال الظلمة الذين اجتمعوا على قتل الحسين[2] .

إلى هنا والمختار يبدو شيعياً ينتقم لقتلى آل البيت ، ويدعو إلى إمامة محمد بن الحنفية ، بل ويعتبر أول من نادى بذلك . ولكن الشهرستاني يذكر أن المختار انتقل من هذه المرحلة وأصبح كيسانياً ، ونسب إليه القول بالبُدَاء بمعنى أنه زعم أنَّ الله سبحانه وتعالى يغير ما يريد تبعاً لتغير علمه ، وأنه يأمر بالشيء ثم يبدو له فيأمر بخلافه ، تعالى الله عن ذلك . وقد قال الشهرستاني ،

---

(١) الأخبار الطوال (الدينوري) ، ص ٢٩٢ .

(٢) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٤٨ .

إن المختار صار إلى اختيار القول بالبُداء لأنه كان يدعي علم ما يحدث من الأحوال إما بوحي يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام (محمد بن الحنفية) ، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلاً على دعواه ، وإن لم يوافقه قال قد بَدا لربكم[1] » . واستدل على ذلك بقول الله تعالى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ (سورة الرعد ــ الآية ٣٩)[2] . ويذكر البغدادي أن هذا التطور في آراء المختار حدث بعد أن تم له الاستيلاء على الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية ، فادعى نزول الوحي عليه ، وتكهن وسجع كسجع الكهان[3] . ويبدو أنَّ المختار ــ في آخر حركته ــ وقع تحت تأثير جماعات معيّنة أو من عرفوا فيما بعد بالكيسانية . إذ يقول البغدادي « إن الذي زين له ذلك جماعات من الشيعة الغلاة ، وقالوا له أنت حجة هذا الزمان ، وحملوه على دعوى النبوة فادعاها ولكن لم يصرح بهذا إلا لخاصته »[4] . ولما ذهب المختار إلى ما ذهب إليه فارقته الشيعة المعتدلة ولم يبق معه إلا الغلاة وبعض الموالي[5] ، كما تبرأ منه محمد بن الحنفية ، ويقال إن ابن الحنفية عزم على القدوم إلى العراق وتصحيح هذه المزاعم التي حاكها المختار حوله ، ولما سمع المختار بذلك خاف من قدومه العراق ذهاب رياسته وولايته فقال لجنده : « إنَّا على بيعة المهدي ، ولكن للمهدي علامة ، وهو أن يضرب بالسيف ضربة فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي » ، وانتهى قوله هذا إلى ابن الحنفية ، فأقام بمكة خوفاً من أن يقتله المختار بالكوفة[6] .

---

(١) الملل والنحل ، ص ١٤٨/١٤٩ .

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ٥١/٥٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٦ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٤٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤٨ .

(٦) نفس المصدر ، ص ٤٧ .

وسواء قال المختار بما نسب إليه أم لم يقل به ، فإن هذه الآراء لم تنته بمقتله عام (٦٧ هـ) على يد مصعب بن الزبير ، بل حملها وطورها الكيسانية فيما بعد . وربما كان هؤلاء الكيسانية أنفسهم المصدر الأساسي لهذه الآراء . فبعد مقتل المختار ظهرت فرق عديدة من الكيسانية ، سبق أن أشرنا إلى بعض منها كالبيَّانيَّة . وقد جهرت هذه الفرق بكثير من الآراء المنحرفة والدعوات الباطلة ، ويجمعها جميعاً الاعتقاد في إمامة محمد بن الحنفية ، والقول بأنه محيط بالعلوم كلها ، وعلى معرفة بأسرار علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس[1] .

ويرجح بعض الباحثين ، أن الشخص الذي كان منطلقاً لهذه الحركات الغالية والذي أعطاها اسمه هو أبو عَمْرة بن مالك الأسدي (توفي سنة ٦٧ هـ) المعروف بكيسان[2] . والذي جعله المختار صاحب شرطته ، كما سبق أن رأينا . وربما أيد هذا الرأي ما عرف عن كيسان من غلو في حب آل البيت ، وشدة في حرب خصومهم ، وأنه بلغ به الأمر أن كفر من تقدم علياً من الخلفاء كما كفر أهل صفين وأصحاب الجمل[3] .

وإذا كان الكيسانية يلتقون حول تولية محمد بن الحنفية والقول بإمامته ، فإنهم اختلفوا في رجعته على مذاهب ، فبعضهم زعم أنه مات وسيرجع ، ومنهم من ذهب إلى أنه لم يمت بل هو حي بجبل رضوى وعنده عينان تجريان بماء وعسل ، وعن يمينه أسد وعن يساره نمر يحفظانه من أعدائه إلى وقت خروجه ، وهو المهدي المنتظر الذي سيعود فيملأ الدنيا عدلا كما ملئت جوراً . وإلى هذا يشير شاعرهم كثير عزة فيقول :

ألا إن الأئمة من قريش ولاة الحق أربعة سواء

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) جـ ٢ ، ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) المقالات والفرق (سعد القمي) ص ٢٢ .

علي والثلاثة من بنيه هم الأسباط(*) ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زمانا برضوى عنده عسل وماء[1]

هذا علماً بأنَّ ابن الحنفية مات بالمدينة سنة ٨١ هـ ، وصلى عليه إبَّان بن عثمان بن عفان والي المدينة آنذاك ، ودفن بالبقيع وشهد مدفنه جمهرة من المسلمين[2] .

كما اختلفت الكيسانية أيضاً فيمن يلي الأمر بعد ابن الحنفية . وصار كل اختلاف مذهباً ، كما يقول الشهرستاني[3] . ومن أهم هذه الفرق الهاشمية : الذين قالوا بانتقال الإمامة بعد موت محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم ، وزعموا أن ابن الحنفية أفضى إلى ابنه بأسرار العلوم وأطلعه على مناهج تطبيق الآفاق على الأنفس[4] ، وتقدير التنزيل على التأويل وتصوير الظاهر على الباطن . وقالوا إن لكل ظاهر باطناً ، ولكل شخص روحاً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، ولكل مثال في هذا العالم حقيقة في ذلك العالم . والمنتشر في الآفاق من الحكم والأسرار يجتمع في الشخص الانساني ، وهو العلم الذي استأثر علي رضي الله عنه به ابنه محمد بن الحنفية[5] ، وهو الذي أفضى ذلك السر إلى ابنه أبي

---

(١) مقالات الإسلاميين ، ص ١٩ ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٠ ، الفرق بين الفرق ، ص ٤١ ، وتنسب هذه الأبيات أيضاً إلى الشاعر الشيعي الكيساني السيِّد الحميري .

(٢) الطبقات الكبرى (ابن سعد) مجلد ٥ ، ص ١١٦ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٠ .

(٤) في الفلسفة اليونانية ، هناك ارتباط تأثيري بين عالم الآفاق وهو العالم العلوي ، عالم الأفلاك أو عالم الكائنات السماوية التي تتميز بأنها بسيطة ، وبين عالم الأنفس أو العالم السفلي ويعتقد الشيعة الباطنية أن الإمام وحده هو الذي يستطيع تقدير آثار عالم الآفاق على الأنفس .

(٥) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

(*) الأسباط جمع سبط وهو ولد الولد .

هاشم ، وكل من اجتمع فيه هذا العلم فهو الإمام حقاً . وينتمي إلى الهاشمية عبد الله بن عمرو الكندي ، والخُرَّمِية ، وينتمي إلى الكيسانية أيضاً البيَّانية والرَزَّامِية وغيرهما من الحركات الغالية التي سبق أن أشرنا إليها .

وهكذا ترى أن الكيسانية كانت منطلقاً لكثير من الآراء الهدامة كالقول بالحلول والرجعة والظاهر والباطن وإبطال الشرع ورفع التكاليف الشرعية ، والقول بالتناسخ . وفي هذا يقول الشهرستاني : « وأجمع الكيسانية على القول بأن الدين طاعة رجل ، وحملهم هذا على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والصيام والزكاة والحج وغير ذلك على رجال ، فحمل بعضهم على ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل ، وحمل بعضهم على ضعف الاعتقاد بالقيامة ، وحمل بعضهم على القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت »[1] .

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٤٧ .

الفصل الرابع

الشيعة الإمامية الاثنا عشرية وأهم تعاليمهم

فيما عدا تلك الفرق الغالية وأشباهها كالكيسانية ، فإن بقية الشيعة يضمهم جميعاً اسم « الشيعة الإمامية » وقد أطلق عليهم هذا الاسم لأنهم جميعاً جعلوا من الإمامة القضية الأساسية التي شغلتهم ودارت حولها معظم عقائدهم وتعلقت بها أبحاثهم . كما أجمعوا على القول بأن علياً رضي الله عنه يستحق الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم . ولكنهم افترقوا فيما وراء هذا إلى فرق عدة ، إذ منهم من ذهب إلى أنَّ علياً استحق هذا المنصب عن طريق ما ورد عن النبي صلوات الله وسلامه عليه من أوصاف لا تنطبق إلا عليه (وهم الزيدية) ، ومنهم من ذهب إلى أن علياً استحق منصب الإمامة عن طريق الوصية والتعيين بالاسم وهم « الرافضة » وهؤلاء اتفقوا في الأئمة حتى إمامهم السادس جعفر الصادق ، ولكنهم اختلفوا فيمن بعده فذهبت طائفة منهم إلى القول بإمامة إسماعيل بن جعفر وهؤلاء هم « الإسماعيلية » ومنهم من قال بإمامة موسى الكاظم بن جعفر وساق الإمامة فيمن بعده حتى الإمام الثاني عشر فسموا « الاثنا عشرية » ولكن لقب الرافضة يشملهم مع الإسماعيلية . وداخل هذه الفرق الثلاث : الإثنا عشرية ، والزيدية والإسماعيلية نجد اختلافات كثيرة وفرقاً صغيرة يضيق عنها الحصر ويصعب التمييز بينها أحياناً كثيرة .

ويتميز الإثنا عشرية ، كما سبق أن أشرنا بسوقهم الإمامة في اثني عشر إماماً

رتبوهم تاريخياً على النحو التالي :

١ ـ علي بن أبي طالب (٢٣ ق . هـ ـ ٤٠ هـ) .

٢ ـ الحسن بن علي (٣ ـ ٥٠ هـ) .

٣ ـ الحسين بن علي (٤ ـ ٦١ هـ) .

٤ ـ علي زين العابدين بن الحسين (٣٨ ـ ٩٥ هـ) .

٥ ـ محمد الباقر بن علي (٥٧ ـ ١١٤ هـ) .

٦ ـ جعفر الصادق بن محمد (٨٣ ـ ١٤٨ هـ) .

٧ ـ موسى الكاظم بن جعفر (١٢٨ ـ ١٨٣ هـ) .

٨ ـ علي الرضا بن موسى (١٤٨ ـ ٢٠٣ هـ) .

٩ ـ محمد الجواد بن علي (١٩٥ ـ ٢٢٠ هـ) .

١٠ ـ علي الهادي بن محمد (٢١٢ ـ ٢٥٤ هـ) .

١١ ـ الحسن العسكري بن علي (٢٣٢ ـ ٢٦٠ هـ) .

١٢ ـ محمد المهدي بن الحسن (٢٥٦ هـ)[1] .

ويعتقد الاثنا عشرية بأن الإمام الثاني عشر (محمد المهدي) دخل سرادبا في دار أبيه بسامرَّاء وغاب غيبة صغرى بدأت عام ٢٥٦ هـ أو بعدها بقليل وانتهت سنة ٣٢٩ هـ ثم غيبة كبرى ، بدأت في هذا التاريخ ولم يعرف متى تنتهي ولم يخرج حتى الآن .

أما لقب الرافضة الذي يضم الإثنا عشرية والإسماعيلية معاً ، فقد ظهر

---

(١) يزعم الشيعة الاثنا عشرية أن أسماء هؤلاء الأئمة وترتيبهم سطر في لوح كان عند فاطمة رضي الله عنها أهداه لها والدها عليه الصلاة والسلام ، انظر الاحتجاج (الطبرسي) ، ص ٨٥/٨٦ . الكافي (الكليني) ، كتاب الحجة ، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم ، جـ ١ ، ص ٥٢٥ ـ ٥٣٥ ، ويورد القمي حديثاً يعزوه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه : « الأئمة بعدي اثنا عشر ، أولهم علي بن أبي طالب وآخرهم القائم ، فهم خلفائي وأوصيائي وأوليائي وحجج الله على أمتي بعدي ، المقر بهم مؤمن والمنكر لهم كافر » ، من لا يحضره الفقيه (ابن بابويه القمي) ، جـ ٤ ، ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

عندما خرج زيد بن علي بن الحسين في أوائل القرن الثاني للهجرة إبَّان خلافة هشام بن عبد الملك ، واتبعه الشيعة وناصروه ، وبينما كانت المعارك دائرة بين زيد وجيوش الخلافة ، سأله الشيعة عن رأيه في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . فقال زيد : غفر الله لهما ما سمعت أحداً من أهلي تبرأ منهما ، وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً ، قالوا فلم نقاتل إذن . فقال زيد : إنَّ هؤلاء ليسوا كأولئك إن هؤلاء (ويقصد الأمويين) ظلموا الناس وظلموا أنفسهم . وإني أدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وإحياء السنن وإماتة البدع ، فإن تسمعوا خيراً لكم ، وإن تأبوا فلست عليكم بوكيل . فرفضوه وانصرفوا ونقضوا بيعته فقال رفضتموني ، فسموا الرافضة »[1] وأطلق على أتباعه الزيدية . ويطلق على الإثنا عشرية أيضاً اسم « الجعفرية » نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد ، لِمَا كانت له من مكانة علمية وأثر روحي في مسار الحركة الشيعية .

---

(١) الفتاوى (ابن تيمية) ، جـ ١٣ ، ص ٣٥/٣٦ ، ويورد الشهرستاني سبب تسمية الشيعة بالرافضة فيقول إن زيد بن علي كان يقول « يجوز أن يكون المفضول إماماً والأفضل قائم .. ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه فسميت رافضة » . الملل والنحل جـ ١ ، ص ١٥٥ ، انظر أيضاً ، مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٦٥ ، التبصير في الدين (الأسفراييني) ، ص ٢٩ ــ ٣٠ .

تعاليم الشيعة الإمامية الاثنا عشرية

تدور معظم تعاليم الشيعة الإمامية وعقائدهم حول الإمامة وما يتصل بها من قضايا كعصمة الأئمة ورجعتهم بعد الغيبة ، والقول بمهديتهم واستخدام التقية في الدعوة إليهم . وقد أدّى بهم السعي لتأكيد هذه المعتقدات إلى الطعن في القرآن الكريم والشك في السُّنَّة المطهرة وتجريح الصحابة رضوان الله عليهم والطعن فيهم ، كل ذلك ليثبتوا أن الإمام علياً قد عينه الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه ومن بعده من الأئمة لهم صفات اختصوا بها دون غيرهم من المسلمين .

(أ) معتقد الإمامة وأدلة إثباته :

إن القضية الأساسية التي ركز عليها الشيعة الإمامية هي قضية الإمامة ، ومن ثم حاولوا أن يثبتوا إمامة علي رضي الله عنه وخلافته عن الرسول عليه الصلاة والسلام . وأنه مستحق لهذه الخلافة لا عن طريق الكفاية وحدها كما يقول بقية المسلمين ، ولا عن طريق ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام ، من أوصاف لا تنطبق إلا عليه كما يقول الزيدية ، بل عن طريق النص عليه بالاسم والتعيين المباشر ، وذهبوا إلى أن النبي صلوات الله وسلامه عليه عين علياً للإمامة ، وهو بدوره يعين من بعده بوصيته من النبي صلى الله عليه وسلم ، ويسمون بالأوصياء . ثم رأوا أن الأئمة هم علي وأبناؤه من فاطمة على التعيين واحداً بعد واحد إلى نهاية السلسلة التي أشرنا إليها من قبل ، وأن معرفة الإمام أصل من أصول الإيمان ، واحتجوا لذلك بأنه ليس في الإسلام أمر

أهم من تعيين الإمام ولم يكن للنبي أن يفارق الدنيا قبل أن يحسم هذا الأمر فإنه إنما بعث لرفع الخلاف وتقرير الوفاق فلا يجوز أن يفارق الأمة ويتركهم هملاً يرى كل واحد منهم رأياً ، ويسلك كل واحد منهم طريقاً لا يوافقه في ذلك غيره ، بل يجب أن يعيّن شخصاً هو المرجوع إليه ، وينص على واحد هو الموثوق به ، والمعول عليه ، وقد عيّن علياً رضي الله عنه في مواضع تعريفاً وفي مواضع تصريحاً[1] » . ويذهب الكاتب الشيعي سعد القمى ، إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على إمامة علي وأشار إليه باسمه ونسبه وعينه ، وقلد الأمة إمامته وأقامه ونصبه لهم علماً وعقد له عليهم امرة المؤمنين وجعله وصيه وخليفته ووزيره في مواطن كثيرة[2] .

ويعتقد الشيعة الإمامية الاثنا عشرية أن نص النبي صلى الله عليه وسلم على إمامة علي لا يقتصر عليه بل يتسلسل في الأئمة الإثني عشر من ولده ، ويذهب المسعودي إلى أن أهل الإمامة انفردوا بالقول بأن « الإمامة لا تكون إلا نصاً من الله ورسوله على عين الإمام واسمه واشتهاره كذلك . وفي سائر الأعصار لا تخلو الناس من حجة لله فيهم ظاهراً أو باطناً » . وبعد أن أورد المسعودي فضائل علي والنصوص الواردة في إمامته يقول : « وإن علياً نص على ابنه الحسن ثم الحسين ، والحسين على علي بن الحسين ، وكذلك من بعده إلى صاحب الوقت الثاني عشر »[3] .

وقد أكد الشيعة أن الإمامة لا تكون إلا بالنص من الله تعالى على لسان النبي عليه الصلاة والسلام أو لسان الإمام الذي قبله[4] وليست هي بالاختيار والانتخاب من الناس . وبناء على هذا يذهب هؤلاء إلى القول ببطلان إمامة من

---

(١) الملل والنحل (الشهرستاني) ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

(٢) المقالات والفرق ، ص ١٦ .

(٣) مروج الذهب (المسعودي) ، ج ٣ ، ص ٢٣٧ ــ ٢٣٨ .

(٤) عقائد الإمامية (محمد رضا المظفر) ، ص ٦٦ .

تقدم على علي رضي الله عنه ، فالشيعة تقول ـ كما جاء في رواية الطوسي ـ « إن من تقدم على أمير المؤمنين (ع) لا يصلح للإمامة »[1] ويرى هؤلاء الشيعة أن إمارة المؤمنين سلبت من علي بمؤامرة دبرها جماعة من بينهم أبو بكر وعمر ، وذات مرة سمع الحارث بن الحصيرة الأسدي الإمام الباقر يقول : « كنت دخلت مع أبي الكعبة فصلى على الرخامة الحمراء بين العمودين فقال : في هذا الموضع تعاقد القوم إن مات رسول الله (ص) أو قتل ألا يردوا هذا الأمر في أحد من أهل بيته أبداً ، قال ، قلت : ومن كان ؟ قال : كان الأول والثاني وأبو عبيدة بن الجراح وسالم بن الحبيبة »[2] .

وقد دافع الشيعة عن هذا المعتقد دفاعاً حاراً ، فأوردوا العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وساقوا بعض الوقائع عن النبي صلى الله عليه وسلم واستنبطوا أدلة عقلية كثيرة ، كل ذلك ليثبتوا أن علياً رضي الله عنه متميز عن غيره من الصحابة وأنه مفضل عليهم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم عيَّنه من أجل ذلك ليكون خليفة له من بعده . وسنكتفي في هذا المجال بالإشارة إلى نماذج من هذه الحجج والبراهين التي استند إليها الشيعة وبيان قيمتها ومدى حجيتها في إثبات معتقدهم[3] . فمن بين ما استدل به الشيعة ما يروونه من أنه حين نزلت الآية القرآنية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾[4] جمع النبي صلى الله عليه وسلم بني هاشم وأنذرهم قائلاً : أنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان تملكون بهما العرب والعجم وتنقاد لكم بهما الأمم

---

(١) تلخيص الشافي (الطوسي) ، ج ٣ ، ص ٩٦ .

(٢) الكافي (الكليني) ، ج ٤ ، ص ٥٤٥ .

(٣) قد تتبع شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه « منهاج السنة النبوية » وشاه عبد العزيز الدهلوي في « التحفة الإثنا عشرية » ما أورده الشيعة من حجج في هذا الصدد وبينا خطأ استنتاجهم من القرآن وما ثبت من السنّة وكذبهم في كثير من الأحاديث التي أوردوها . وكذلك فعل إحسان إلهي ظهير في كتابه « الشيعة والسنّة » .

(٤) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .

وتدخلون بهما الجنة وتنجون بهما من النار : شهادة أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله ، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويؤازرني على القيام به يكن أخي ووزيري ووصيِّي ووارثي وخليفتي من بعدي ، فلم يجبه أحد منهم ، فقال أمير المؤمنين : أنا يا رسول الله أؤازرك على هذا الأمر . فقال : اجلس ، ثم أعاد القول على القوم ثانية وثالثة فلم ينطق أحد منهم بحرف فقام علي وقال : أنا أؤازرك يا رسول الله على هذا الأمر . فقال : اجلس فأنت أخي ووزيري ووصيِّي ووارثي وخليفتي من بعدي . فنهض القوم وهم يقولون لأبي طالب ليهنك اليوم أن دخلت في دين ابن أخيك فقد جعل ابنك وزيراً عليك[1] .

وقد ذهب الشيعة إلى أن هذا نص جلي بتعيين علي خليفة من بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وقد رفض ابن تيمية رواية الشيعة للحديث ، وذكر أنها لم ترد في الكتب التي تقوم بها الحجة كالصحاح والمسانيد ، بل إنها لم ترد في كتب السنن والمغازي والتفسير ، ومن ثم فإن الحديث بالصورة التي رواه بها الشيعة كذب موضوع ونصه مفتري على النبي صلى الله عليه وسلم ولا تصح نسبته إليه[2] . وقد ذكر هذه الرواية ابن كثير في تفسيره لسورة الشعراء ، فقال « وقد رواه أبو جعفر بن جرير عن ابن حميد عن سلمة عن ابن إسحق عن عبد الغفار بن القاسم بن أبي مريم عن المنهال بن عمرو عن عبد الله بن الحارث عن ابن عباس عن علي بن أبي طالب . . . . وبعد أن ذكر الحديث كما ورد أعلاه ، عقب عليه قائلاً : « تفرد بهذا السياق عبد الغفار بن أبي مريم وهو متروك كذاب شيعي اتهمه علي بن المديني وغيره بوضع الحديث وضعفه الأئمة رحمهم الله[3] » . وقد قال الذهبي في ميزان الاعتدال : عبد الغفار بن القاسم

---

(١) مجمع البيان في تفسير القرآن (الطبرسي) ، ج ١٩ ، تفسير الآية ٢١٤ . التبيان (الطوسي) ، مجلد ٨ ، ص ٦٧ . منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٨٠ .

(٢) منهاج السنة ، ج ٤ ، ص ٨١ ـ ٨٤ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، ج ٣ ، ص ٣٥١ .

أبو مريم الأنصاري رافضي ليس بثقة . قال علي بن المديني كان يضع الحديث ويقال كان من رؤوس الشيعة » قال أحمد : كان أبو مريم يحدث ببلايا في عثمان . وقال أبو حاتم والنسائي وغيرهما متروك الحديث[1] . وهذا يؤيد ما ذهب إليه ابن تيمية من أن ما ورد من هذه الرواية ضعيف جداً ومن ثم لا يصح الاحتجاج بها . ويذهب الرازي إلى أنّه ليس في الحديث إن صحت رواية الشيعة ، دلالة على تعيين « علي » أو الوصية له ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خليفتي فيكم » ولم يقل « خليفتي فيكم من بعدي » كما زعمه الشيعة ، ولو قال ذلك لكانت نصاً جلياً ، ويشير الرازي إلى أن الشيعة الزيدية ينكرون النص الجلي على « إمامة علي » مع إنهم من أشهر الناس حباً لأمير المؤمنين[2] .

ومما احتج به الشيعة قول الله تعالى ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾[3] . إذ ذهبوا إلى أن الآية تنص على أن الذي يلي أمر الناس ، ويدبر أمورهم ويتولى مصالحهم ، هو الله تعالى ورسوله ، والذين آمنوا . وقد حدد وصف « الذين آمنوا » بأنهم الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم في حالة ركوعهم ، وقد ثبت أن هذه الآية نزلت في علي بن أبي طالب حين تصدق بخاتمه على فقير ، وهو راكع ولم يفعل غيره ذلك ، مما يدل على أنّه المعنى بولاية المؤمنين[4] . ويؤيد هذا في رأيهم ، أحاديث تذكر هذه الحادثة وتربط بها نزول هذه الآية[5] . ويقول الطوسي : أعلم أن هذه الآية من الأدلة الواضحة على إمارة أمير المؤمنين عليه

---

(١) ميزان الاعتدال (الذهبي) ، ج ٢ ، ص ٦٤٠ .

(٢) نهاية العقول (فخر الدين الرازي) ، ص ٢٥ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٥٥ .

(٤) منهاج السنّة النبوية (ابن تيمية) ، ج ٤ ، ص ٢ .

(٥) انظر ما أورده الطبرسي في أسباب نزول هذه الآية من أحاديث تربط نزول الآية بعلي وتصدقه بخاتمه وهو في الصلاة ، مجمع البيان ، ج ٢٦ ، ص ١٢٦ ــ ١٢٨ .

السلام ، ووجه الدلالة فيها أنه قد ثبت أن الولي في الآية بمعنى الأولى والأحق ، وثبت أيضاً أن المعنى بقوله والذين آمنوا أمير المؤمنين (عليه السلام) فإذا ثبت هذان الأصلان دل على إمامته ، لأن كل من قال أن معنى الولي في الآية ما ذكرناه قال أنها خاصة فيه ومن قال باختصاصها فيه (عليه السلام) قال المراد بها الإمامة[1] .

وقول الشيعة بأن هذه الآية نزلت في علي غير صحيح ، بل إن الأحاديث الثابتة الصحيحة تبيّن أن هذه الآية وما قبلها من الآيات التي تتحدث عن الولاء نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من ولاية اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين ، ولهذا قال الله تعالى بعد هذا ﴿ ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ [سورة المائدة ـ الآية ٥٦] ، فالآية إذن عامة للمسلمين جميعاً تحثهم على إخلاص الولاء لله ورسوله وولاء بعضهم لبعض[2] .

أما الآثار التي أوردها الشيعة وربطوا فيها نزول الآية بعلي وحادثة تصدقه بخاتمه وهو راكع ، فقد ذهب ابن كثير إلى أنه لا يصح فيها شيء بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها[3] . هذا بالإضافة إلى أن فهم الشيعة للآية لا يستقيم ومقررات الشرع . وقد بين ابن كثير ذلك بقوله « وقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة (وهم راكعون) في موضع الحال من قوله : ويؤتون الزكاة « أي حال ركوعهم » ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى[4] . ويذهب الشوكاني إلى أن مما يدفع هذا الفهم للآية ، عدم جواز

---

(١) التبيان (الطوسي) ، مجلد ٣ ، ص ٥٤٩ .

(٢) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، ج ٢ ، ص ٦٨/٦٩ ، منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٤ ـ ٥ .

(٣) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، ج ٢ ، ص ٧١ .

(٤) نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٧١ .

إخراج الزكاة في تلك الحال[1] . وغاية ما في الآية كما يقول ابن تيمية ، أن المؤمنين عليهم موالاة الله ورسوله والمؤمنين ، فيوالون علياً من جملة المؤمنين ، وهذا هو المعنى الواضح للولاية في هذه الآية ، وليس المراد بها الإمارة كما ذهب الشيعة[2] .

ومما استدل به الشيعة أيضاً ما يسمى بحادث « المباهلة » ، والذي ورد فيه أن وفداً من نصارى نجران سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن حقيقة المسيح عليه السلام فنزل القرآن ﴿ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل ﴾[3] ، و ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ﴾[4] . ثم دعا الوفد النجراني إلى المباهلة (الملاعنة) إن لم يقتنعوا ، وقال : ﴿ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾[5] فدعا النبي صلى الله عليه وسلم ، علياً وفاطمة والحسن والحسين ، وقال هؤلاء أهلي ، ولكن الوفد النجراني انسحب ولم يقبل المباهلة . وقد ذهب الشيعة إلى أن المراد « بأنفسنا » في هذه الآية « علي » لأن الشخص لا يدعو نفسه ، وتشير ، من ثم ، إلى أن علياً نفس الرسول بمعنى أنه مساوٍ له ، ومن كان مساوياً لنبي الزمان فهو أفضل وأولى بالتصرف بالضرورة من غيره . فالآية في رأي الشيعة دليل واضح على ثبوت الإمامة لعلي[6] . وحديث

---

(١) فتح القدير (الشوكاني) ، ج ٢ ، ص ٥١ .

(٢) منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٨ .

(٣) سورة الزخرف ، الآية ٥٩ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٥٩ .

(٥) سورة آل عمران ، الآية ٦١ . والبهل والابتهال في الدعاء الاسترسال فيه والتضرع ، وبهله بهلاً لعنه ، وباهله مباهلة ، من باب قاتل ، لعن كل منهما الآخر .

(٦) مجمع البيان (الطبرسي) ، ج ٣ ، ص ١٠٢ ، التبيان (الطوسي) ، مجلد ٢ ، ص ٤٨٤ ــ ٤٨٦ . منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٣٤/٣٣ . مختصر التحفة الاثنا عشرية، ١٥٦/١٥٥ .

المباهلة الذي أورده الشيعة صحيح وثابت رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص في حديث طويل ، أنه لما نزلت هذه الآية ﴿ فقل : تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال : اللهم هؤلاء أهلي ، ولكن لا دلالة في ذلك على الإمامة ولا على الأفضلية ، كما يقول ابن تيمية[1] .

إذ أن قول الشيعة بأن أنفسنا لا يمكن أن يكون المراد بها نفس النبي عليه الصلاة والسلام لأن الشخص لا يدعو نفسه ، مردود وغير مسلم . لأن الإنسان يمكن أن يخاطب نفسه ويدعوها ويقول دعوت نفسي إلى كذا ، ويقال دعته نفسه ، وشاورت نفسي وأمرتها ، وقد ورد في القرآن الكريم ﴿ فطوعت له نفسه قتل أخيه ﴾ وهكذا يمكن القول بأنَّ « ندع أنفسنا » تعني « نحضر أنفسنا »[2] .

وقد ورد عن جابر بن عبد الله أن المراد بـأنفسنا « علـي » ، فقد أورد ابن كثير : أنَّ جابر قال : (أنفسنا وأنفسكم) رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ، (وأبناءنا) الحسن والحسين ، و« نساءنا » فاطمة . وهكذا رواه الحاكم في مستدركه عن علي بن عيسى عن أحمد بن محمد الأزهري عن علي بن حجر عن علي بن مسهر عن داود بن أبي هندبة بمعناه ، ثم قال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه هكذا . قال وقد رواه داود الطيالسي عن شعبة عن المغيرة عن الشعبي مرسلاً وهذا أصح ، وقد روى عن ابن عباس والبراء نحو ذلك[3] .

وإطلاق كلمة أنفسنا على « علي » في الحديث لا يقتضي المساواة بينه وبين الرسول عليه الصلاة والسلام كما زعمت الشيعة ، فليس هناك أحد يساوي الرسول صلوات الله وسلامه عليه في القدر والمنزلة ، إضافة إلى أنَّ كلمة

---

(١) منهاج السنة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٣٤ .

(٢) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٥٦ .

(٣) تفسير القرآن العظيم ، (ابن كثير) ، جـ ١ ، ص ٣٧٠/٣٧١ .

« أنفس » قد تطلق من غير أنْ يقتضي ذلك المساواة بين من يندرج تحتها من الأفراد ، كما ورد في القرآن الكريم في قصة بني إسرائيل ، ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم ﴾[1] وقوله ﴿ لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾[2]. فلم يوجب ذلك تساوي الأنفس جميعاً في الآية الأولى إذ تضمنت العصاة والمطيعين ، ولا المساواة التامة بين المؤمنين في الآية الأخيرة . فغاية ما تشير إليه الآية السالفة وتؤكده ، هو فضل علي في قرابته النسبية من الرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ أنَّ النبي عليه الصلاة والسلام دعا علياً وفاطمة وابنيهما ، ولم يكن ذلك لأنهم أفضل الأمة بل لأنهم أخص أهل بيته ، وهذا تنفيذ لأمر الله في أن يدعو كل واحد من الفريقين المتلاعنين أقرباءه من الأبناء والنساء والأنفس ، ولم يكن هناك من هو أقرب نسباً إلى الرسول من هؤلاء ، ولا تستلزم هذه القرابة أفضليتهم على غيرهم . إضافة إلى أن المسألة في جملتها لا علاقة لها بالإمامة وإلا لما دخلت فيها فاطمة رضي الله عنها ، إذ لا أحد يقول بإمامتها[3] .

ومما احتج به الشيعة أيضاً حديث « الكساء » الذي ورد في إحدى رواياته عن أمّ سلمة زوج النبي عليه الصلاة والسلام أن قوله تعالى ﴿ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ﴾[4] ، نزلت في بيتها ، وقالت إنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم أليست من أهل البيت ، فقال إنَّكِ على خير ، من أزواج النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان في البيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي وفاطمة والحسن والحسين فجللهم بالكساء ، وقال اللهم أهل بيتي فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[5] ، وقد ذهب الشيعة إلى أنَّ الآية نزلت

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٤ .

(٢) سورة النور ، الآية ١٢ .

(٣) منهاج السنة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٣٤/٣٥ .

(٤) سورة الأحزاب ، الآية ٣٣ .

(٥) منهاج السنة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٢٠ .

في حق علي وفاطمة والحسن والحسين بنص هذا الحديث ، ومن ثم فهي تدل على عصمتهم دلالة مؤكدة وغير المعصوم لا يكون إماماً[1] .

وحديث « الكساء » ، كما يقول ابن تيمية ، صحيح رواه أحمد والترمذي من حديث أم سلمة ، ورواه مسلم[2] في صحيحه من حديث عائشة قالت « خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداة وعليه مِرْط[*] مُرَحَّلٌ من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ، ثم جاء الحسين فدخل معه ، ثم جاءت فاطمة فأدخلها ، ثم جاء علي فأدخله ، ثم قال « إنَّما يريد الله لِيُذْهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . ويذهب ابن تيمية إلى أن هذا الحديث قد شرك علياً فيه ، فاطمة وحسن وحسين رضي الله عنهم فليس هو من خصائصه ، ومعلوم أن المرأة لا تصلح للإمامة ، فعلم أنَّ هذه الفضيلة لا تختص بالأئمة بل يشركهم فيها غيرهم ، ثم إن مضمون الحديث لا يقتضي العصمة بل يتضمن أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا لأهل بيته المذكورين أن يذهب الله عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً ، وغاية ذلك أن يكون دعاء لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم[3] .

واستشهد الشيعة أيضاً بقول الله تعالى ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ﴾[4] وأوردوا في تفسير هذه الآية حديثاً عزوه إلى النبي صلى الله عليه وسلم حدد فيه القربى بعلي وفاطمة وأبناءهم الأمر الذي يدل في رأي الشيعة

---

(١) مجمع البيان (الطبرسي) ، جـ ٢٢ ، ص ١٣٧ ـ ١٣٩ . التبيان (الطوسي) ، مجلد ٨ ، ص ٣٤٠ . مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٤٩ .

(٢) نص الحديث من رواية مسلم ، انظر صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم ، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ، جـ ٧ ، ص ١٣٠ .

(٣) منهاج السنة النبوية ، جـ ٤ ، ص ٢٠ / ٢٣ .

(٤) سورة الشورى ، الآية ٢٣ .

(*) المِرْط ، كساء من صوف أو خز يؤتزر به أو يتلفع به .

على أفضليتهم ووجوب مودتهم ومن ثم وجوب طاعتهم واتخاذهم أئمة دون غيرهم[1] .

وقد بيَّن ابن تيمية خطأ الشيعة في هذا كله ، إذ أنَّ الحديث الذي أوردوه كذب موضوع باتفاق أهل المعرفة بالحديث ، كما أنَّ هذه الآية من سورة الشورى وهي مكية باتفاق أهل السنة ، ومن المعلوم أن علياً إنَّما تزوج فاطمة بالمدينة بعد غزوة بدر ، والحسن وُلد في السنة الثالثة للهجرة ، والحسين في السنة الرابعة للهجرة ، فتكون هذه الآية قد نزلت قبل وجود الحسن والحسين بسنين متعددة ، فكيف يفسر النبي صلى الله عليه وسلم ، الآية بوجوب مودة قرابة لا تعرف ولم تخلق » . كما أن هذه الآية قد فسرت تفسيراً ثابتاً مخالفاً للوجه الذي أورده الشيعة ، إذ ورد عن ابن عباس قوله : إنَّ هذه الآية ليس معناها مودة ذوي القربى ، لكن معناها لا أسألكم يا معشر العرب ويا معشر قريش عليه أجراً ، لكن أسألكم أن تصلوا القرابة التي بيني وبينكم ، فهو قد سأل الذين أرسل إليهم أولا ، أن يصلوا رحمه فلا يعتدوا عليه حتى يبلغ الرسالة . وقد أورد ابن تيمية العديد من الحجج التي تبين أنَّ الشيعة لا حجة لهم في الاعتماد على هذه الآية وأنَّ تفسيرها الذي ذكروه لا سند له من أثر أو لغة ولا أساس له من الصحة[2] .

وقد تتبع ابن كثير أيضاً الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية وبين أنَّ الأحاديث التي تنص على أن أُولي القربى هم فاطمة وولداها ضعيفة الإسناد . وأورد رواية عن ابن أبي حاتم قال حدثنا رجل سماه حدثنا حسين الأشقر عن قيس عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنه قال : « لما نزلت هذه

---

(١) مجمع البيان (الطبرسي) ، ج ٢٥ ، ص ٤٩ ـ ٥١ . مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٥٤ .

(٢) منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢٧/٣٠ ، انظر أيضاً مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ١٥٣/١٥٥ .

الآية ﴿ قل لا أسألكم عليه أجراً ﴾ ـ الآية ـ قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين أمر الله بمودتهم ؟ قال فاطمة وولداها (رضي الله عنهم) . وهذا إسناد ضعيف فيه متهم لا يعرف عن شيخ شيعي مخترق وهو حسين الأشقر ولا يقبل خبره في هذا المحل . وذِكْر نزول الآية في المدينة بعيد فإنها مكية ولم يكن إذ ذاك لفاطمة رضي الله عنها أولاد بالكلية فإنها لم تتزوج بعلي إلا بعد بدر من السنة الثانية من الهجرة ، والحق تفسير هذه الآية بما فسرها به حَبْر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، كما رواه عنه البخاري »[1] .

ومما تمسك به الشيعة أيضاً حديث « غَدير خُمْ » الذي يقال إنَّه حينما نزلت الآية ﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[2] ، كان الرسول عليه الصلاة والسلام في طريق عودته من حجة الوداع ، فلما بلغ « غَدير خُمْ » وهو اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة يقع بين مكة والمدينة ، أخذ بيد علي وخاطب جماعة المسلمين قائلاً : يا معشر المسلمين ألست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى . قال « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله ، وأدر الحق معه حيث دار ، ألا هل بلغت ، ثلاثاً . وزعمت الشيعة بأن هذا نص صريح في ولاية علي وفسروا المولى هنا بمعنى الأولى بالتصرف ، وذهبوا إلى

---

(١) تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، ج ٤ ، ص ١١٢ . ونص حديث ابن عباس كما ورد في البخاري قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة قال سمعت طاوساً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه سُئل عن قوله « إلا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : عجِلت إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة . فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة . صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب قوله : (إلا المودة في القربى) ، ج ٦ ، ص ٣٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

أن كونه أولى بالتصرف عين الإمامة »[1] .

والحديث بهذه الصورة لم يرد في أمهات الكتب ، وأورد الترمذي جزءاً منه وهو « من كنت مولاه فعلي مولاه » . ووصف الإمام أحمد باقي الحديث بأنه زيادة كوفية[2] ، وقال عنها ابن تيمية أنها مكذوبة[3] . وما صح من هذا الحديث ليس فيه دلالة على تعيين علي للإمامة لأن تفسير الشيعة للمولى بمعنى الأولى لا تسنده مقاييس اللغة ولا اشتقاقاتها ، وواضح أن المراد بالولاية هنا المحبة أو دخول علي في ولاية المسلمين العامة المنبثقة من الإيمان والتي تجب على كل مسلم ، وهذا مما لا غبار عليه ولا يستلزم أحقيته في خلافة الرسول صلى الله عليه وسلم دون من عداه[4] .

---

(١) مجمع البيان (الطبرسي) ، جـ ٦ ، ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ، المراجعات (الموسوي) ، ص ٢١٥ وما بعدها . مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٥٩ ، قد اهتم الشيعة بحادث الغدير وألّف فيه عبد الحسين أحمد الأميني المؤلف الشيعي المشهور كتابه « الغدير » في ١٢ مجلداً ضخماً ، كما خصص الطبرسي فصلاً بعنوان : احتجاج النبي يوم الغدير على الخلق كلهم بولاية علي ومن بعده من ولده من الأئمة المهديين . انظر الاحتجاج (الطبرسي) ص ٦٦/٨٤ .

(٢) روى الإمام أحمد في المسند (٢٨١/٤) عن البراء بن عازب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزل بغدير خُمٍّ (بضم الخاء وتشديد الميم) اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة ، أخذ بيد علي فقال : « ألستم تعلمون أني أولى المؤمنين من أنفسهم ؟ » قالوا : بلى . قال : « ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ » قالوا بلى . قال : فأخذ بيد علي فقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه » ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، فلقيه عمر بعد ذلك فقال له : هنيئاً يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة » ، وهذا الحديث سنده ضعيف . ولقد رواه الإمام أحمد من طرق أخرى (٣٧٢/٣٦٨/٤) كلها عن زيد بن أرقم نحوه ، دون قوله : فلقيه عمر . . . وبالجملة فالمرفوع من الحديث صحيح أي دون قول عمر رضي الله عنه ، ورواه الترمذي بسند صحيح بلفظ من كنت مولاه فعلي مولاه (٦٣٢/٥) ، أما زيادة وانصر من نصره إلى آخر الحديث فلم ترد عند أحمد ولا غيره .

(٣) منهاج السنة النبوية ، جـ ٤ ، ص ١٠ ، الفتاوى (ابن تيمية) ، جـ ٤ ، ص ٤١٧/٤١٨ .

(٤) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٥٩ ـ ١٦٢ .

والأحاديث التي أوردها الشيعة في فضائل علي واستندوا عليها في القول بإمامته معظمها لا أساس له ولا سند ، ومن ذلك ما رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » ، فهذا خبر مطعون فيه رغم رواية الترمذي له ، إذ أنكره البخاري ، وقال عنه يحيى بن معين لا أصل له ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وقال النووي والذهبي أنه موضوع[1] . ويقول الألباني : وحديث « أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد العلم فليأت الباب » موضوع رواه العقيلي في الضعفاء ، وابن عدي في الكامل ، والطبراني في الكبير ، والحاكم عن ابن عباس ورواه بن عدي والحاكم عن جابر رضي الله عنه[2] . وكذلك حديث « أقضاكم علي » الذي ادعت الشيعة أنه نص في الإمامة ، موضوع لم يروه أحد من أهل الكتب الستة ولا أهل المسانيد المشهورة لا أحمد ولا غيره بإسناد صحيح ولا ضعيف ، ورواته معروفون بالكذب والتدليس[3] . وكذلك حديث : « من ناصب علياً الخلافة فهو كافر » فلا أثر له بوجه في كتب أهل السنة أصلاً[4] .

وهذه النماذج تكشف عن ضعف ما استند إليه الشيعة من حجج على اختصاص علي وتعيينه دون غيره للخلافة . ويؤيد هذا ما ذهب إليه ابن خلدون من أن ما استدل به الشيعة من نصوص إنما هي نصوص ينقلونها ويؤلونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جهابذة السنة ولا نقلة الشريعة بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم[5] .

ويعترف الكاتب الشيعي ابن أبي الحديد بأثر الشيعة في وضع الأحاديث

---

(١) الفتاوى (ابن تيمية) ، ج ٤ ، ص ٤١٠ ، الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة ، (مرعي الكرمي) ، ص ٧١ ، حديث رقم ٥٧ .

(٢) ضعيف الجامع الصغير (الألباني) ٢ ــ ص ١٣ ، رقم الحديث : ١٤١٦ .

(٣) الفتاوى (ابن تيمية) ، ج ٤ ، ص ٤٠٨ .

(٤) منهاج السنّة النبوية (ابن تيمية) ، ج ٤ ، ص ١٠٧ ــ ١٠٨ .

(٥) المقدمة (ابن خلدون) ص ١٩٧ .

لتأييد مذهبهم في الإمامة فيقول : « إن أصل الأكاذيب في أحاديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا في مبدأ الأمر أحاديث مختلقة في صاحبهم حملهم على وضعها عداوة خصومهم . . فلما رأت البكرية (يريد بعض السنِّيين) ، ما صنعت الشيعة وضعت لصاحبها (أبي بكر) أحاديث في مقابلة هذه الأحاديث . . فلما رأت الشيعة ما قد وضعت البكرية . . أو سعوا في وضع الأحاديث . . ولقد كان الفريقان في غنية عما اكتسباه . . ولقد كان في فضائل علي الثابتة الصحيحة وفضائل أبي بكر المحققة المعلومة ما يغني عن تكلف العصبية لهما[1] » .

ورغم ضعف هذه الحجج وعدم قوتها فإننا نجد أن بعض الشيعة المعاصرين لا زالوا يرددونها في كتاباتهم ويستشهدون بها لإثبات معتقداتهم في الإمامة ، وهذا أحد أئمتهم يذهب إلى أن الرسول يعتبر غير مبلغ للرسالة لو لم يعين علياً خليفة من بعده ، ويقول : « إن الرسول الكريم قد كلمه الله وحياً أن يبلغ ما أنزل إليه فيمن يخلفه في الناس وبحكم هذا الأمر فقد اتبع ما أمر به وعين أمير المؤمنين علياً للخلافة[2] » . ويذهب إلى أن ولي الأمر هو الذي يتصدى لتنفيذ القوانين ، وهكذا فعل الرسول صلى الله عليه وسلم ولو لم يفعل فما بلغ رسالته . وكان تعيين خليفة من بعده ينفذ القوانين ويحميها ويعدل بين الناس ــ عاملاً متمماً ومكملاً لرسالته »[3] .

وإلى جانب ما استدل به الشيعة من آيات وأحاديث قدموا العديد من البراهين العقلية لإثبات هذا المعتقد ، وقد كرس الطوسي المعروف عند الشيعة بشيخ الطائفة كتابه الموسوم بـ « تلخيص الشافي في الإمامة » لموضوع الإمامة ، وانتهى إلى أن وجود الإمام ضروري لأن الشريعة مؤبدة وأن المصلحة ثابتة إلى

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، جـ ١١ ، ص ٤٨ ــ ٥٠ .
(٢) الحكومة الإسلامية (الخميني) ، ص ٤٢/٤٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١٩ .

قيام الساعة لجميع المكلفين ، وعلى هذا لا بد لها من حافظ ، وليس يخلو الحافظ من أن يكون جميع الأمة أو بعضها . ثم يستطرد فيقول « وليس يجوز أن يكون الحافظ لها الأمة ، لأن الأمة يجوز عليها السهو والنسيان ، وارتكاب الفساد والعدول عما علمته ، فإذن لا بد لها من حافظ معصوم يؤمن من جهته التغيير والتبديل والسهو ، ليتمكن المكلفون من المصير إلى قوله ، وهذا هو الإمام الذي نذهب إليه[1] » .

(ب) تصور الشيعة للإمام ووظيفته :

قد جعل الشيعة العقيدة في الإمام أساساً لمذهبهم وركناً من أركان الدين ، ويقول أحد كتّابهم المعاصرين بعد حديثه عن أركان الإسلام ، « ولكن الشيعة زادوا ركناً خامساً (إلى جانب أركان الإسلام الأربعة الموجبة للعمل وهي : الصلاة والصيام والزكاة والحج ، أماالشهادة بالوحدانية ونبوة محمد فمجرد قول) ، وهو الاعتقاد بالإمامة : يعني أن يعتقد أن الإمامة منصب إلٰهي كالنبوة ، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة ، ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه . . . فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه وأن ينصبه إماماً للناس من بعده للقيام بالوظائف التي كان على النبي أن يقوم بها سوى أن الإمام لا يوحى إليه كالنبي ، وإنما يتلقى الأحكام منه مع تسديد إلٰهي[2] » .

وهكذا أصبح الإيمان بالإمام عندهم جزءاً من العقيدة ، وينسب الشيعة إلى بعض أئمتهم القول بأن من أصبح من هذه الأمة لا إمام له أصبح ضالا تائهاً وإن مات على هذه الحال مات ميتة جاهلية . ويقول أحد الشيعة المعاصرين : « وترى الشيعة أن موالاة هؤلاء الأئمة جزء من الإيمان ، ويتمسكون بقوله صلى

---

(١) تلخيص الشافي (الطوسي) ، جـ ١ ، ص ١٣٤/١٣٣ .

(٢) أصل الشيعة وأصولها (محمد الحسين آل كاشف الغطاء) ، ص ١٠٢ .

الله عليه وسلم : من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية ، فالشيعي في كل زمان ومكان ملزم بالتعرف على إمام زمانه وموالاته ولا يشترط الشيعة في الإمام مباشرة الحكم وتولي السلطة الزمنية في دولة الإسلام فسواء باشر الحكم أم لم يباشره فموالاته من الفروض الشرعية عند الجعفرية[1] . ذلك لأن الإمام في تصور الشيعة يختلف اختلافاً كلياً عن تصور المسلمين جميعاً لخليفتهم . إذ أن المسلمين يعدون الإمام أو خليفة المسلمين شخصاً عادياً في تكوينه ومعارفه ، وأن دوره لا يتجاوز دور المنفذ لشرع الله ، وأنه يعرض عليه الخطأ والانحراف كما يعرض لسائر الناس فيقوم ويعارض بل ويحارب إذا خالف أمر الله ، وفوق هذا فإنَّ الخليفة يختار وينتخب من قبل الجماعة المسلمة وفقاً لمبدأ الشورى[2] .

خلافاً لهذا التصور يذهب الشيعة إلى أنَّ الإمام شخص غير عادي في تكوينه ومنزلته فيذهبون إلى أن الأئمة كانوا قبل هذا العالم أنواراً ، وأن لهم ولاية تكوينية إلى جانب الولاية الحكمية . وقد نسبوا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام حديثاً أسندوه إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «كنت أنا وعلي نوراً في جهة آدم(ع) ، فانتقلنا من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهرة الزاكية حتى صرنا في صلب عبد المطلب فانقسم النور قسمين : فصار قسم في عبد الله وقسم في أبي طالب فخرجت من عبد الله وخرج علي من أبي طالب وهو قول الله عز وجل ﴿ الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ﴾[3] . ونسبوا إلى علي بن أبي طالب من رواية جعفر بن محمد قوله « انتقل النور إلى غرائزنا ولمع في أئمتنا ، فنحن أنوار السماء وأنوار الأرض ، فبنا النجاة ومنا مكنون العلم ، وإلينا مصير

(١) أضواء على خطوط محب الدين الخطيب ، ص ٩٩/٩٨ .

(٢) انظر في النظام السياسي للدولة الإسلامية (د. محمد سليم العوا) ص ١٤٧ ــ ٢٣٦ ، ط. خامسة : ١٩٨١ .

(٣) إثبات الوصية للإمام علي . . (المسعودي) ، ص ١٠٥ .

الأمور ، وبمهدينا تنقطع الحجج . . . »[1] وقوله أيضاً « نحن أمان أهل الأرض ، كما أن النجوم أمان لأهل السماء ، ونحن الذين بنا تمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وبنا تمسك الأرض أن تميد بأهلها ، وبنا ينزل الغيث ، وتنشر الرحمة ، ولولا من في الأرض منا لساخت الأرض بأهلها ، ولم تخل الأرض منذ خلق الله آدم من حجة لله فيها ظاهر مشهور أو غائب مستور ، ولا تخلو إلى أن تقوم الساعة ولولا ذلك لم يعبد الله[2] » . ويوردون حديثاً ينسبونه إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، يسأل فيه جابر بن عبد الله الأنصاري الرسول عليه الصلاة والسلام عن حال الأوصياء بعده في الولادة : فيسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ملياً ، كما تقول الرواية الشيعية ، ثم يقول : يا جابر لقد سألت عن أمر جسيم لا يحتمله إلا ذو حظ عظيم : إن الأنبياء والأوصياء مخلوقون من نور عظمة الله جل ثناؤه يودع الله أنوارهم أصلاباً طيبة وأرحاماً طاهرة يحفظها بملائكته ويربيها بحكمته ، ويقدرها بعلمه ، فأمْرُهُم يَجِلُّ عن أن يوصف وأحوالهم تدق عن أن تُعلم ، لأنهم نجوم الله في أرضه وأعلامه في بريته وخلفاؤه على عباده وأنواره في بلاده وحججه على خلقه ، يا جابر هذا من مكنون العلم ومخزونه فاكتمه إلا من أهله[3] » .

ويقول أحد أئمة الشيعة المعاصرين : وثبوت الولاية والحاكمية للإمام (ع) لا يعني تجرده من منزلته التي هي له عند الله ، ولا تجعله مثل من عداه من الحكام . فإن للإمام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون ، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يبلغه ملك مقرّب ولا نبي مرسل ، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم والأئمة (ع) كانوا قبل هذا

---

(١) مروج الذهب (المسعودي) ، ج ١ ، ص ٣٣ .

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ .

(٣) كتاب من لا يحضره الفقيه (القمي) ، ج ٤ ، ص ٤١٤ ــ ٤١٥ .

العالم أنواراً ، فجعلهم الله بعرشه محدقين ، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله . وقد قال جبرئيل ـ كما ورد في روايات المعراج ـ لو دنوت أنملة لاحترقت . وقد ورد عنهم (ع) أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل »[1] . ودار الجدل في دوائر الشيعة حول أفضلية الأئمة على الأنبياء والرسل وفي ذلك يقول أحد أعلامهم « قد قطع قوم من الإمامية بفضل الأئمة (ع) من آل محمد صلى الله عليه وسلم على سائر من تقدم من الرسل والأنبياء سوى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وأوجب فريق منهم لهم الفضل على جميع الأنبياء سوى أولي العزم منهم عليهم السلام . وأبى القولين فريق منهم آخر قطعوا بفضل الأنبياء كلهم على سائر الأئمة (ع) . وهذا باب ليس للعقول في إيجابه والمنع منه مجال ولا على أحد الأقوال فيه إجماع ، وقد جاءت آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم في أمير المؤمنين عليه السلام وذريته من الأئمة والأخبار عن الأئمة الصادقين أيضاً من بعد وفي القرآن مواضع تقوى العزم على ما قاله الفريق الأول في هذا المعنى »[2] .

وبناءً على هذا التصور للإمام فإن دوره لا يقف عند حد تنفيذ شرع الله بل له هيمنة على شئون الكون ومجرياته ، فعلي عندهم الحاكم المهيمن الشرعي على شئون البلاد والعباد وأن الملائكة تخضع له ، ويخضع له الناس حتى الأعداء منهم ، لأنهم يخضعون للحق في قيامه وقعوده وفي كلامه وصمته وفي خطبه وصلواته وحروبه[3] . والإمام عندهم له الولاية العامة على الناس والتي هي في مرتبة النبوة ، ويقول صاحب « عقائد الإمامية » : لا بد أن يكون في كل عصر إمام هاد يخلف النبي في وظائفه من هداية البشر وإرشادهم إلى ما فيه الصلاح والسعادة في الشأنين ، وله ما للنبي من الولاية العامة على الناس لتدبير شئونهم

---

(١) الحكومة الإسلامية (آية الله الخميني) ، ص ٥٢ .

(٢) أوائل المقالات في المذاهب المختارات (الشيخ المفيد محمد بن النعمان) ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٣) الحكومة الإسلامية ، ص ١٤١ .

ومصالحهم وإقامة العدل بينهم ورفع الظلم والعدوان عنهم[1] » .

وبالنسبة للشريعة فإن دور الإمام يتجاوز دور التنفيذ ، ليكمل الشريعة وينشر ما استتر منها ويأتي بما أوكل إليه تبليغه ، ويقول أحد الشيعة في هذا : « ويعتقد الشيعة أن الله تعالى في كل واقعة حكماً ، وما من عمل من أعمال المكلفين إلا ولله فيه حكم من الأحكام الخمسة الوجوب والحرمة والكراهة والندب والإباحة . . وقد أودع الله سبحانه جميع تلك الأحكام عند نبيه خاتم الأنبياء وعرفها النبي بالوحي من الله أو بالإلهام ، وبين كثيراً منها لأصحابه ليكونوا هم المبلغين لسائر المسلمين في الآفاق ، وبقيت أحكام كثيرة لم تحصل الدواعي والبواعث لقيامها ، وإن حكمة التدرج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة ، وكان سلام الله عليه أودعها عند أوصيائه كل وصي يعهد بها إلى الآخر لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة ، فقد يذكر النبي صلى الله عليه وسلم لفظاً عاماً ويذكر مخصصه بعد برهة من حياته ، وربما لا يذكره أصلاً بل يودعه عند وصيه إلى وقته[2] » . فهذا النص يتضمن أن الأئمة استودعهم النبي عليه الصلاة والسلام أسرار الشريعة وأنه لم يبينها كلها بل بين بعضها ــ وهو ما اقتضاه زمانه ــ وترك للأوصياء أن يبينوا للناس ما تقتضيه الأزمنة من بعده . ومن ثم كانت أقوال الأئمة شرعاً إسلامياً لأنها تتميم للرسالة ، ومن أجل ذلك نسب الشيعة إلى الأئمة علماً خاصاً ورثوه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوجبوا على الأمة طاعتهم فيه . ويقول الطبرسي ــ أحد أئمتهم ــ في ذلك : « أنه قد ثبت أن الإمام إمام في سائر الدين ومتول الحكم في جميعه : جليله ودقيقه وظاهره وغامضه ، وليس يجوز ألا يكون عالماً بجميع الأحكام ، وأن هذا العلم وديعة نبوية ليس باجتهاد أو كسب بل هو علم لدني ثابت »[3] .

---

(١) عقائد الإمامية (محمد رضا المظفر) ، ص ٦٥/٦٦ .

(٢) أصل الشيعة وأصولها ، ص ٨٩ ــ ٩٠ .

(٣) الاحتجاج (الطبرسي) .

ويقول حجتهم الكليني « وقد ورث الأئمة علم النبي وعلم الأنبياء جميعاً ، فعندهم علم جميع الكتب المنزلة التي نزلت من عند الله ، وأنهم يعرفونها على اختلاف ألسنتها[1] ، وهم يعلمون القرآن كله ، وتفسيره وتأويله وناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ، بل يذهب الكليني إلى : « أن الأئمة يعلمون أكثر من الأنبياء ، وينسب إلى جعفر الصادق قوله : ورب الكعبة ورب البنية لو كنت بين موسى والخضر لأخبرتهما أني أعلم منهما ولأنبأتهما بما ليس في أيديهما ، لأن موسى والخضر عليهما السلام أعطيا علم ما كان ولم يعطيا علم ما يكون وما هو كائن حتى تقوم الساعة ، وقد ورثناه من رسول الله وراثة[2] » ويذهب الكليني إلى أن الله لم يعلم نبيه علماً إلا أمره أن يعلمه أمير المؤمنين فهو شريكه في العلم[3] » . وينسبون إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما قوله : « إنا نعلم المكنون والمخزون والمكتوم الذي لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل غير محمد وذريته[4] » . كما ينسبون إلى هؤلاء الأئمة نوعين من العلم الإلهي : فالإمام يتلقى المعارف والأحكام الإلهية وجميع المعلومات من طريق النبي أو الإمام قبله ، وإذا استجد شيء لا بد أن يعلمه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية التي أودعها الله تعالى فيه ، فإن توجه إلى شيء وشاء أن يعلمه على وجهه الحقيقي لا يخطأ فيه ولا يشتبه ، ولا يحتاج في كل ذلك إلى البراهين العقلية ولا إلى تلقينات المعلمين[5] ، وإضافة إلى ذلك ، فقد نسب الشيعة إلى أئمتهم مصادر علم معيّنة يستقون منها علومهم كالاسم الأعظم ، ومصحف فاطمة الذي فيه علم الأولين والآخرين ، وكتاب الجفر وصحيفة الجامعة التي تحوي

---

(١) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦ ، ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٠ ـ ٢٦١ .

(٣) نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ٢٦٣ .

(٤) دلائل الإمامة (أبو جعفر الطبري الشيعي) ، ص ٦٧ .

(٥) عقائد الإمامية ، ص ٦٧/٦٨ .

علوم الأنبياء جميعاً ، وهذان ينسبونهما إلى علي رضي الله عنه ، والجفر الأبيض والجفر الأحمر اللذين ينسبونهما إلى جعفر الصادق[1] .

ولم يقف الشيعة عند هذا الحد ، بل جعلوا لأئمتهم صلة متجددة بالوحي بعد انقطاعه ، وزعموا أن انقطاع الوحي بعدم نزول الملائكة لا يعني انقطاع علم الله عن الأئمة ــ لأن الله سدد خطى الأئمة بروح من عنده كما قال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾[2] .

وينسبون إلى الصادق قوله : « منذ أنزل الله عز وجل ذلك الروح على محمد ما صعد إلى السماء وإنه لفينا[3] » .

ونتيجة لهذه المكانة وهذه الدرجة من المعرفة المنسوبة إلى الأئمة أصبحت أوامرهم ونواهيهم شرعاً ، وصاروا حجة لله على الخلق تجب طاعتهم ويجب اتباعهم . ويقول الشيعة في ذلك : « نحن نعلم أن أوامر الأئمة تختلف عن أوامر غيرهم ، وعلى مذهبنا فإن جميع الأوامر الصادرة عن الأئمة في حياتهم نافذة المفعول وواجبة الاتباع حتى بعد وفاتهم » . وحجة الله تعني أن الإمام مرجع للناس في جميع الأمور والله قد عيّنه وأناط به كل تصرف وتدبير من شأنه أن ينفع الناس ويسعدهم ، فحجة الله هو الذي عينه الله للقيام بأمور المسلمين فتكون أفعاله وأقواله حجة على المسلمين يجب إنفاذها ، ولا يسمح بالتخلف عنها . وفسروا أولي الأمر المشار إليهم في الآية القرآنية ﴿ يٰأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ﴾ . . . بأنهم هم الأئمة الأطهار الذين كلفوا ببيان الأحكام والأنظمة الإسلامية ونشرها في المسلمين إلخ ، ومن

---

(١) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٢٣٩ ــ ٢٤٢ ، المعارف الحسينية ، ص ١٨٩ ــ ١٩١ ، تاريخ الفقه الجعفري (هاشم معروف الحسني) ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) سورة الشورى ، الآية ٥٢ .

(٣) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٢٧٣ .

ثم فرض الله طاعتهم »[1] . ويصور شيعي آخر تصورهم لمكانة الإمام فيقول : « بل نعتقد أن أمرهم أمر الله تعالى ، ونهيهم نهيه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته ، ووليهم وليه ، وعدوهم عدوه ، ولا يجوز الرد عليهم ، والراد عليهم كالراد على الرسول والراد على الرسول كالراد على الله تعالى فيجب التسليم لهم والانقياد لأمرهم والأخذ بقولهم[2] » .

وتصور الشيعة للإمام ومكانته ودوره ، غريب عن التصور الإسلامي ، وكل ما نسبوه إلى الأئمة في هذا الشأن لا سند له ولا أساس ، فهذا علي « قد ثبت عنه في الصحيح عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قلت لعلي رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن وما في هذه الصحيفة ، قلت : وما في الصحيفة ؟ قال : العُقُل وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر[3] » . فأين هذا مما ينسبه إليه الشيعة من علم يتجاوز علوم الأنبياء والمرسلين ويتعدى الماضي والحاضر ليعلم الغيب . هذا بالإضافة إلى أن أحداً من أئمتهم لم يدع مثل هذا النوع من العلم ، أو يأتي بأحكام تخالف ما ورد في القرآن والسنة . وسيرة هؤلاء الأئمة الثابتة من غير المصادر الشيعية تدل على فضلهم وعلمهم وتقواهم ، على تفاوت فيما بينهم في الدرجة والمنزلة[4] » .

---

(١) الحكومة الإسلامية (الخميني) ، ص ٣٤ هامش (أ) ، كذلك يذهب صاحب دلائل الإمامة إلى أن المراد بأولي الأمر الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى أن تقوم الساعة . دلائل الإمامة ، ص ٢٣١ .

(٢) عقائد الإمامية ، ص ٧٠ ، وقد عقد الكليني فصلاً خاصاً عن وجوب طاعة الأئمة : الكافي ، ج ١ ، ص ١٨٥ ـ ١٩٠ .

(٣) صحيح البخاري « باب فكاك الأسير » ، ج ٤ ، ص ٣٠ .

(٤) انظر منهاج السنة النبوية ، ج ٢ ، ص ١٤٠ ـ ١٦٦ .

عصمة الأئمة :

نتيجة لما أضفاه الشيعة على الأئمة من صفات ومواهب علمية غير محدودة ، ذهبوا إلى أن الإمام ليس مسئولا أمام أحد من الناس ولا مجال للخطأ في أفعاله مهما أتى من أفعال . بل يجب تصديقه والإيمان بأن كل ما يفعله خير لا شر فيه لأن عنده من العلم ما لا قبل لأحد بمعرفته . ومن هنا قرر الشيعة للإمام من ضمن ما قرروا العصمة . فذهبوا إلى أن الأئمة معصومون في كل حياتهم لا يرتكبون صغيرة ولا كبيرة ولا يصدر عنهم أية معصية ، ولا يجوز عليهم خطأ ولا نسيان ، ويقول محمد باقر المجلسي (توفي سنة ١١١٠ هـ) ـ أحد علمائهم ـ « أعلم أن إجماع علماء الإمامية قد انعقد على أن الإمام معصوم من جميع الذنوب صغيرة كانت أم كبيرة ، من أول العمر إلى آخره فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمداً ولا نسياناً ولا سهواً ولا غير ذلك(١) » ، ويقول عالم آخر من علمائهم : « إن الأئمة القائمين مقام الأنبياء في تنفيذ الأحكام ، وإقامة الحدود ، وحفظ الشرائع ، وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء وأنهم لا يجوز منهم كبيرة ولا صغيرة وأنه لا يجوز منهم سهو في شيء في الدين ولا ينسون شيئاً من الأحكام وعلى هذا مذهب سائر الإمامية إلا من شذ منهم(٢) » ويقول صاحب عقائد الإمامية : « إن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمداً وسهواً . كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان(٣) » بل إن جماعة من الشيعة يزعمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم جائز عليه أن يعصي الله وأن النبي قد عصى في أخذ الفداء يوم بدر ، أما الأئمة فلا يجوز ذلك

---

(١) حياة القلوب (المجلسي)، جـ ٧ ، ص ٢٧ نقلاً عن عقيدة الشيعة (دونلدسن) ،ص : ٣١٧ ، ظهر الإسلام (أحمد أمين) جـ ٤ ، ص ١١٠ .

(٢) أوائل المقالات (الشيخ المفيد) باب القول في عصمة الأئمة ، ص ٣٥ .

(٣) عقائد الإمامية (محمد رضا المظفر) ص ٦٧ .

عليهم ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم إذا عصى فالوحي يأتيه من قبل الله فينبهه على وجه الخطأ فيتوب منه ، والأئمة لا يوحى إليهم ولا تهبط الملائكة عليهم وهم من أجل ذلك معصومون لا يجوز أن يسهوا أو يغلطوا وإن جاز على الرسول العصيان »[1] .

والذي دعا الشيعة إلى القول بعصمة الأئمة هو خطؤهم في إعطاء الأئمة وظائف لم يقل بها أهل السنة لأمير المؤمنين أو الخليفة . إذ أسند الشيعة إلى الإمام ــ كما سبق أن أشرنا ــ حفظ الشريعة والقيام عليها بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهو الذي يفسرها ويقيد مطلقها ويوضح غامضها ، ويمنع عنها التحريف والتزييف والضلال . ولا ينبغي أن يكون مثل هذا الشخص عرضة للخطأ وإلا لما أمن أن يقوم بوظيفته . يقول الشريف المرتضى : « لقد ثبت عندنا وعند مخالفينا أنه لا بد من إمام في الشريعة يقوم بالحدود وتنفيذ الأحكام . . . وإذا ثبت ذلك وجبت عصمته ، لأنه لو لم يكن معصوماً وهو إمام فيما قام به من الدين الذي من جملته إقامة الحدود وغيرها وواجب الاقتداء به من حيث قام وفعل ، لجاز وقوع الخطأ منه في الدين ولكنا إذا وقع منه ذلك مأمورين باتباعه والاقتداء به في فعله وهذا يؤدي إلى أن نكون مأمورين بالقبيح على وجه من الوجوه . وإذا فسد أن نكون مأمورين بالقبيح وجب عصمة من أمرنا باتباعه والاقتداء به في الدين »[2] . ويقول الحلي في « نهج الحق » (ذهب الإمامية إلى أن الأئمة كالأنبياء في وجوب عصمتهم عن جميع القبائح والفواحش ، من الصغر

---

(١) مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٤٨ ، الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٨٥ وبينما ينسب الأشعري هذا الرأي إلى هشام بن الحكم ، ينسبه الشهرستاني إلى هشام بن سالم ، الذي نقل عنه كما يقول الشهرستاني : أنه أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة ، ويفرق بينهما بأن النبي يوحى إليه فينبه على وجه الخطأ فيتوب عنه ، والإمام لا يوحى إليه فيجب عصمته .

(٢) كتاب الشافي ، ص ٤٠ نقلاً عن الإمام الصادق (محمد أبو زهرة) ، ص ١٩٠ ، انظر أيضاً : عقائد الإمامية ، ص ٦٧ .

إلى الموت ، عمداً وسهواً ، لأنهم حفظة الشرع والقوامون به ، حالهم في ذلك كحال الأنبياء ، ولأن الحاجة إلى الإمام إنما هي للإنتصاف للمظلوم من الظالم ، ورفع الفساد وحسم مادة الفتن ، ولأن الإمام لطف يمنع القاهر من التعدي ، ويحمل الناس على فعل الطاعات واجتناب المحرمات ، ويقيم الحدود والفرائض ، ويؤاخذ الفساق ، ويعزر من يستحق التعزير فلو جازت عليه المعصية وصدرت عنه ، انتفت هذه الفوائد وافتقر إلى إمام آخر[1]) . وهكذا يحتج الشيعة لمعتقدهم هذا بأن العلة التي لأجلها كانت الحاجة للإمام هو عدم عصمة الأمة ، فلو لم يكن الإمام معصوماً لكانت الحاجة إلى إمام معصوم آخر[2] .

ويمكن الرد على الشيعة بأن وظيفة الإمام وواجبه حفظ مصالح الأمة وتطبيق شرع الله فيها عن طريق إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام ودرء المفاسد وهذا كله لا يحتاج إلى عصمة من يقوم به . أما الذي يحفظ الشريعة ويقوم عليها ، بعد النبي صلى الله عليه وسلم ، فهم علماء الأمة وذلك عن طريق الدراسة والاجتهاد وفقاً لقوله تعالى ﴿ والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ﴾[3] وقوله تعالى ﴿ وكونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[4] .

هذا بالإضافة إلى أن الأئمة الذين نسبوا لهم العصمة قد باشروا كثيراً من الأعمال فكانت أعمالهم واضحة للناس بعضها صواب وبعضها خطأ . فلم يكن هناك مجال لادعاء عصمتهم بل أنهم هم أنفسهم قد شهدوا باحتمال الخطأ منهم . . إذ أنه قد روي عن علي رضي الله عنه أنه قال لأصحابه : لا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل فإني لست آمن أن أخطئ[5] . وما ورد من أن

(١) الشيعة في الميزان ، ص ٣٩/٣٨ .

(٢) كتاب الغيبة (الطوسي) ، ص ١٥ .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٤ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية ٧٩ ، انظر مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ١٢١ .

(٥) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، ج ١١ ، ص ١٠٢ .

الحسين كان يظهر الكراهية لصلح أخيه الحسن مع معاوية ، وأبدى لومه لأخيه على ذلك ، بل وحثَّه على قتال أهل الشام[1] . ولو كان علي معصوماً من الخطأ أو عالماً بالغيب كما قالوا ـ ما قبل التحكيم ـ . ولو كان الحسين كذلك لما انتهى إلى المصير الذي انتهى إليه . وتاريخ أئمة الشيعة واضح ومليء بالأخطاء والمواقف التي لا يمكن تبريرها ، مما يدل على عدم عصمتهم بل أنهم لو كانوا معصومين لتغير وجه التاريخ .

وعلى كل فإن العصمة بهذا المفهوم الشيعي غريبة على التصور الإسلامي بعيدة عن تعاليم القرآن الذي لم ينسب العصمة إلا للأنبياء . لأن العصمة المطلقة بعيدة عن الطبائع البشرية التي ركبت فيها الشهوات ، وركب فيها الخير والشر . والذي يبدو أن الأئمة الأولين كعلي والحسن والحسين لم تعرف لديهم العصمة التي ادعاها الشيعة ونسبوها لهم كما يتضح من أقوالهم التي سبق أن أشرنا إليها .

الرجعة :

قد نادى الشيعة أيضاً برجعة الأئمة وأرادوا بذلك أن يعود الإمام إلى الظهور بعد الغيبة أو الاختفاء أو إلى الحياة بعد الموت .

والرجعة بهذا المعنى لها جذور في اليهودية كما في قصة عزير وهارون[2] ، وفي النصرانية التي يقول منتحلوها بأن صلب المسيح وقتله المزعوم ، وقع على

---

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ٨ ، ص ١٦ و ١٥٠ .

(٢) يقول الشهرستاني عن اليهود : « وأما جواز الرجعة فإنما وقع لهم من أمرين أحدهما حديث عزير عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه ، والثاني حديث هارون عليه السلام إذ مات في التيه وقد نسبوا موسى إلى قتله بألواحه قالوا حسده لأن اليهود كانوا أميل إليه منهم إلى موسى ، واختلفوا في حال موته فمنهم من قال أنه مات وسيرجع ، ومنهم من قال غاب وسيرجع . الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ٢١٢ ، ولقصة عزير : انظر تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ، جـ ١ ، ص ٣١٤ .

جزئه الناسوتي دون اللاهوتي ، وأنه قام بعد ثلاثة أيام من صَلْبه وصعد إلى السماء وأنه سيعود مرة ثانية للقضاء بين الأموات والأحياء[1] .

وقد ظهرت فكرة الرجعة أول ما ظهرت في دوائر الشيعة على يد عبد الله بن سبأ الذي نادى برجعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم زعم رجعة « علي » قائلاً إنه لم يقتل بل رُفع إلى السماء كما رفع عيسى وأن ما ادعته الخوارج من قتله فكذب إذ أن شيطاناً تمثل لهم في صورته فظنوا أنه « علي » وأنه سيعود إلى الأرض فيملؤها عدلا بعد أن ملئت جوراً[2] .

وقد أصبحت فكرة الرجعة معتقداً لدى طوائف كثيرة من الشيعة ونادت كل فرقة باستثناء « الزيدية » ـ بعودة الإمام الذي آمنت به فنادى الكيسانية ، كما رأينا ، بعودة محمد بن الحنفية بعد موته أو بظهوره بعد اختفائه عند من لم يؤمن بموته . وقالت الإسماعيلية برجعة إمامهم محمد بن إسماعيل وتقول الإمامية الاثنا عشرية برجعة آخر أئمتهم الإمام محمد المهدي المنتظر ، الذي يعتقدون أنه دخل سرداباً بدار أبيه « بسامراء » وأنه سيخرج آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا . ويقول ابن خلدون (توفي سنة ٨٠٨ هـ) ، عن انتظارهم لخروج الإمام : « وهم إلى الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك يقفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب وقد قدموا مركباً فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج ، حتى تشتبك النجوم ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ، وهم على ذلك لهذا العهد[3] » . ويردد الشيعة نداء يتوجهون به إلى الإمام الغائب ويتوسلون إليه بالظهور ويقولون : « أشهد أنك الحق الثابت الذي لا ريب فيه

---

(١) محاضرات في النصرانية (محمد أبو زهرة) ص ١٠٦/١٠٩ المسيحية (أحمد شلبي) ص ١٥٤/١٦٦ .

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ٢٣٣/٢٣٤ .

(٣) المقدمة (ابن خلدون) ص ١٩٩ ولا يزال أهل العراق يلاحظون مثل هذا التصرف من بعض الشيعة الذين يذهبون إلى السرداب في سامراء لانتظار خروج المهدي !!!

وأن وعد الله فيك حق ، لا أرتاب فيك لطول الغيبة وبعد الأمد ، اللهم طال الانتظار وشمت بنا الأعداء الفجار ، وصعب علينا الانتظار ، اللهم أرنا وجه إمامك في حياتنا وبعد المنون ، اللهم إني أدين لك بالرجعة بين يدي صاحب هذه البقعة . . . . الغوث . . الغوث . . الغوث »[1] .

وقد عطل الشيعة حتى عهد قريب صلاة الجمعة بل حرم بعضهم أداءها حتى يخرج الإمام المنتظر[2] . كما أنهم علقوا الجهاد بخروج الإمام ولم يجيزوه إلا معه[3] . ولكن بعض علماء الشيعة المعاصرين بذلوا جهداً في سبيل تغيير هذه الأفكار عن الغيبة وارتباط تطبيق الأحكام بنهايتها . واستطاعوا تحقيق بعض النجاح في ذلك ، وفتحت بعض مساجد الجمعة والجماعة ، وسعوا إلى تطبيق أحكام الفقه الشيعي . وقد احتاج هذا الأمر إلى جهود كبيرة لإقناع بعض الشيعة به . وهذا أحد علماء الشيعة يناقش في هذا الصدد فيقول : « فقد ثبت بضرورة الشرع والعقل أن ما كان ضرورياً أيام الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) من وجود الحكومة لا يزال ضرورياً إلى يومنا هذا . ولتوضيح ذلك أتوجه إليكم بالسؤال التالي : قد مرّ على الغيبة الكبرى لإمامنا المهدي أكثر من ألف عام ، وقد تمر ألوف السنين قبل أن تقتضي المصلحة قدوم الإمام المنتظر ، في طول هذه المدة المديدة هل تبقى أحكام الإسلام معطلة يعمل الناس في خلالها ما يشاؤون ؟ ألا يلزم من ذلك الهرج والمرج ؟ القوانين التي صدع بها نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ، وجهد في نشرها وبيانها وتنفيذها طيلة ثلاثة وعشرين عاماً ، هل كان كل ذلك لمدة محدودة ؟ هل حدد الله عمر الشريعة بمائتي عام مثلاً ؟ هل ينبغي أن يخسر الإسلام من بعد

---

(١) بحار الأنوار (المجلسي) مجلد ثاني ، ص ٢٥٢ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) جـ ٢ ، ص ٣٠١ .

(٢) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ٢١٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٢١ .

الغيبة الصغرى كل شيء . الذهاب إلى هذا الرأي أسوأ في نظري من الاعتقاد بأن الإسلام منسوخ[1] » . ويقول أيضاً : « واليوم في عهد الغيبة لا يوجد نص على شخص معيّن يدير شئون الدولة فما هو الرأي ؟ هل نترك أحكام الإسلام معطلة أم نرغب بأنفسنا عن الإسلام ؟ أم نقول إن الإسلام جاء ليحكم الناس قرنين من الزمان فحسب ليهملهم بعد ذلك ؟ أو نقول إن الإسلام قد أهمل أمور تنظيم الدولة ، ونحن نعلم أن عدم وجود الحكومة يعني ضياع ثغور الإسلام وانتهاكها ويعني تخاذلنا عن حقنا وعن أرضنا هل يسمح بذلك في ديننا ؟ أليست الحكومة ضرورة من ضروريات الحياة ؟ وبالرغم من عدم وجود نص على شخص من ينوب عن الإمام (ع) حال غيبته إلا أن خصائص الحاكم الشرعي لا يزال يعتبر توفرها في أي شخص مؤهلاً إياه ليحكم في الناس وهذه الخصائص التي هي عبارة عن العلم بالقانون ، والعدالة ، موجودة في معظم فقهائنا في هذا العصر »[2] . وهكذا يدعو هذا المفكر الشيعي فقهاء الشيعة إلى السعي لتولي السلطة وتنفيذ الأحكام الشرعية نيابة عن الإمام الغائب إلى حين ظهوره وعدم تعطيل هذه الأحكام بحجة انتظار رجعته . ومن قبل ذلك ذهب شيعي آخر إلى أنه ليس معنى انتظار هذا المصلح المنقذ « المهدي » أن يقف المسلمون مكتوفي الأيدي فيما يعود إلى الحق من دينهم ، وما يجب عليهم من نصرته والجهاد في سبيله والأخذ بأحكامه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل المسلم أبداً مكلف بالعمل بما أُنزل من الأحكام الشرعية[3] » .

وقد غالت طوائف من الشيعة في عقيدة الرجعة ، ونادوا بعودة الأئمة وعودة أعدائهم معهم إلى الحياة الدنيا لكي ينال كل جزاءه الدنيوي ويعذب من اعتدى

---

(١) الحكومة الإسلامية (الخميني) ، ص ٢٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٨ ــ ٤٩ .

(٣) عقائد الشيعة (محمد رضا المظفر) ص ٥٨/٥٧ . انظر تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (د. عبد الله فياض) ، ص ١٦٤ .

على الأئمة وغصبهم حقوقهم أو قتلهم[1] . واستشهد هؤلاء بقول الله تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ممن يكذب بآياتنا فهم يوزعون ﴾ (سورة النمل ـ الآية ٨٣) . ويقول الطبرسي في تفسير هذه الآية « واستدل بهذه الآية على صحة الرجعة من ذهب إلى ذلك من الإمامية بأن قال : إن دخول « من » في الكلام يوجب التبعيض فدل ذلك على أنَّ اليوم المشار إليه في الآية يحشر فيه قوم دون قوم وليس ذلك صفة يوم القيامة الذي يقول فيه سبحانه ﴿ وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً ﴾ (سورة الكهف ـ الآية ٤٧) . وقد تظاهرت الأخبار عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى سيعيد عند قيام المهدي قوماً ممن تقدم موتهم من أوليائه وشيعته ليفوزوا بثواب نصرته ومعونته ويبتهجوا بظهور دولته ، ويعيد أيضاً قوماً من أعدائه لينتقم منهم وينالوا بعض ما يستحقونه من العذاب في القتل على أيدي شيعته . . على أن جماعة من الإمامية تأولوا ما ورد من الأخبار في الرجعة على رجوع الدولة والأمر والنهي دون رجوع الأشخاص وإحياء الأموات وأوَّلوا الأخبار الواردة في ذلك لما ظنوا أن الرجعة تنافي التكاليف وليس كذلك . . . ومن قال إن قوله تعالى ﴿ ويوم نحشر من كل أمة فوجاً ﴾ المراد به يوم القيامة ، قال المراد بالفوج الجماعة من الرؤساء والمتبوعين في الكفر حشروا وجمعوا لإقامة الحجة عليهم[2] » .

وهذا التفسير الأخير للآية هو ما عليه جميع المفسرين من غير الشيعة[3] . وقد زعم بعض الشيعة المعاصرين ، أن الشيعة عدلوا عن هذه العقيدة في العصور الأخيرة[4] ، ولكن يدحض هذا الزعم ما أثبته صاحب عقائد الإمامية

(١) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ٢٠٠/٢٠١ .

(٢) مجمع البيان (الطبرسي) تفسير الآية ٨٣ من سورة النمل ، ج ٢٠ ، ص ٢٥١ ـ ٢٥٢ .

(٣) انظر تفسير القرآن العظيم (ابن كثير) ج ٣ ، ص ٣٧٦ . الكشاف (الزمخشري) ، ج ٣ ، ص ١٦٠/١٦١ .

(٤) أضواء على خطوط محب الدين ، ص ١٤٨ .

من أن الذي تذهب إليه الإمامية أخذاً بما جاء عن آل البيت عليهم السلام أنَّ الله تعالى يعيد قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها فيُعِزُّ فريقاً ويُذلُّ فريقاً آخر، ويديل المحقين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عند قيام مهدي آل محمد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام، ولا يرجع إلا من علت درجته في الإيمان أو من بلغ الغاية في الفساد، ثم يصيرون بعد ذلك إلى الموت ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من الثواب والعقاب ويستشهد بالآية القرآنية ﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين ﴾ .. (سورة المؤمنون ـ الآية ١١)[1] ولا شك أن مثل هذه الأفكار التي قال بها فريق من الشيعة مناقضة للتصور الإسلامي الذي لا يقر بعودة أي إنسان إلى الحياة قبل يوم البعث، اللهم إلا في الحالات التي وردت في القرآن والمرتبطة بإظهار الإعجاز الإلٰهي في الخلق والإعادة.

التقية :

يراد بالتقية اتخاذ الحيطة والحذر حفاظاً على النفس والمال أو العرض، وذلك بأن يظهر الإنسان غير ما يضمر لا سيما إذا اجتمع بمخالفيه في المعتقد. فيتظاهر بالموافقة واتباع ما عليه الجميع من منهج حتى لا ينكشف أمره أو يفشو سره فيتعرض للأذى أو الشر، وقد عرف الشيعة التقية بأنها كتمان الحق وستر الاعتقاد فيه ومكاتمة المخالفين وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا »[2].

وقد عد الشيعة التقية مبدأ أساسياً في حياتهم الخاصة والعامة. وجعلوها ركناً من أركان مذهبهم ورووا فيها الكثير من الأقوال عن أئمتهم كقولهم « تسعة

---

(١) عقائد الإمامية (محمد رضا المظفر)، ص ٨٠، أوائل المقالات (الشيخ المفيد)، ص ٥٠ ـ ٥١.

(٢) شرح عقائد الصدوق، ص ٦٦.

أعشار الدين في التقية » ولا دين لمن لا تقية له . ونسب الشيعة من ضمن ما نسبوا إلى أحد أهل البيت أنه قال : من صلى وراء سني تقية فكأنما صلى وراء نبي . وأن جعفر الصادق قال : « التقية ديني ودين أبائي »[1] .

وقد استخدم الشيعة مبدأ التقية لتفسير أحداث تاريخهم فذهبوا إلى أن سكوت « علي » عن أبي بكر وعمر وعثمان كان تقية ، وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية كان تقية . واختفاء أئمتهم وسترهم كان تقية منهم . وهكذا يمكن تفسير كل الأحداث . وتمثل التقية نظاماً سرياً يلجأ إليه الشيعة دفاعاً عن أنفسهم ، أو في حروبهم لخصومهم . وهي منهج اتخذه أئمة الشيعة في ثوراتهم ، فإذا أراد الإمام الخروج والثورة على الحكومة القائمة ، وضع لذلك نظاماً سرياً لا يعلم به إلا خاصة أنصاره الذين يتكتمون عليه ويظهرون الخضوع والطاعة للحكام حتى تتم الخطة المرسومة وتنضج الثورة ويحين الوقت الملائم فيعلنون الخروج ويحملون السلاح ، ولذلك كان للتقية شأن خطير في كل أحداث الشيعة التاريخية . ومن ناحية أخرى استغلت التقية كذريعة للاستسلام والخضوع للسلطة الحاكمة ، وقد ناهض بعض علماء الشيعة المعاصرين هذا المفهوم الأخير للتقية والذي يحمل معنى الخنوع وحثوا اتباعهم ، لا سيما الفقهاء منهم ، على رفض هذا المبدأ وعدم التمسك به . ويقول أحد هؤلاء العلماء : « فرض الأئمة عليهم السلام على العلماء فرائض مهمة جداً وألزموهم أداء الأمانة وحفظها ، فلا ينبغي التمسك بالتقية في كل صغيرة وكبيرة . فقد شرعت التقية للحفاظ على النفس أو الغير من الضرر في مجال فروع الأحكام .

أما إذا كان الإسلام كله في خطر ، فليس في ذلك متسع للتقية والسكوت . ماذا ترون لو أجبروا فقيهاً على أن يشرع أو يبتدع فهل ترون أنه يجوز له ذلك

---

(١) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ٢٨٩ ــ ٢٩٠ . وانظر ص ١١٦ من الوشيعة في نقد عقائد الشيعة لموسى جار الله وكذلك ص ٢٠ من الرد على الرافضة لمحمد بن عبد الوهاب من منشورات دار طيبة بالرياض .

تمسكاً بقوله (ع) التقية ديني ودين آبائي . ليس هذا من موارد التقية أو من مواضعها ، وإذا كانت ظروف التقية تلزم أحداً منا بالدخول في ركب السلاطين ، فهنا يجب الامتناع عن ذلك حتى لو أدى الامتناع إلى قتله ، إلا أن يكون في دخوله الشكلي نصر حقيقي للإسلام والمسلمين »[1] .

ويبدو أن الذي شجع هؤلاء العلماء على اتخاذ هذا الموقف ، اضطراب آراء الشيعة حول قضية التقية . إذ ذهب بعضهم إلى أن التقية جائزة في الأقوال كلها عند الضرورة وربما وجبت فيها ، ولا تحبذ في الأفعال كقتل المؤمن ، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه فساد في الدين . وقال الشيخ المفيد[2] : إنه قد تجب أحياناً وقد يكون فعلها في وقت أفضل من تركها ، وقد يكون تركها أفضل من فعلها . وقال أبو جعفر الطوسي : إن ظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس ، وقال غيره واجبة عند الخوف على المال أيضاً ، ومستحبة لصيانة العرض حتى يسنوا لمن اجتمع مع أهل السنة أن يوافقهم في صلاتهم وسائر ما يتدينون به[3] .

وقد اتخذ الشيعة التقية وسيلة لتحميل الكلام معاني خفية وجعلهم للكلام ظاهراً يفهمه الناس وباطناً يفهمه الخاصة ، وقصدهم في كلامهم إلى الرمز والكناية[4] ، وقد نسبوا إلى علي زين العابدين قوله في هذا :

إني لأكتم من علمي جواهره ... كي لا يرى الحق ذو جهل فيفتتنا
وقد تقدم في هذا أبو حسن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنا

---

(١) الحكومة الإسلامية ، ص ١٤٢ .

(٢) محمد بن محمد بن النعمان بن عبد السلام العكبري أبو عبد الله ويعرف بابن المعلم ويلقب بالشيخ المفيد ، وُلد سنة ٣٣٨ هـ وتوفي ببغداد عام ٤١٣ هـ .

(٣) أضواء على خطوط محب الدين ، ص ١٦٥/١٦٤ وفي هذا الكتاب تخبط وتعسف ومحاولة يائسة لرد ما ذكره الخطيب في رسالته « الخطوط العريضة » ، عن عقائد الشيعة ، انظر أيضاً أوائل المقالات (المفيد) ص ٩٦ .

(٤) ضحى الإسلام (أحمد أمين) ، جـ ٣ ، ص ٢٤٨ .

فرب جوهر علـم لـو أبـوح بـه لقيل لي أنـت ممـن يعبـد الـوثنا
ولاستحل رجـال مسـلمون دمـي يرون أقبـح مـا يـأتونه حسـنا[1]

عقيدة المهدي :

كلمة مهدي من حيث مدلولها العام تشير إلى رجـل هـداه الله الـطريق أي عرفه عليه وبينه له فهو (مهدي) . وهذه الكلمة لم ترد في القرآن الكريم ولكن وردت في بعض الأحاديث ، وفي بعض الأشعار التي وصف بهـا النبـي صلى الله عليه وسلم ، والحسين بن علي ، وسليمان بن عبد الملك تتضمن المعنى اللغـوي والديني العام (رجل هداه الله فاهتدى)[2] .

ولكن هذه الكلمة أخذت معنى جديداً وأصبحت تدل على إمام منتظر يـأتي في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . وكلمة مهدي بهذا المدلـول المحدد لم ترد في صحيحي البخاري ومسلم ، ولـكن وردت في أحـاديث في كل من الترمذي ، وابن ماجه وأبـي داود والحاكم والإمـام أحمـد والـطبراني وأبـي يعلى وغيرهم . وقد حددت هذه الأحاديث بعض أوصاف المهدي ، ونسبه ، وما يقوم به من أعمال . ومن هذه الأحاديث ما رواه عبد الله بن مسـعود أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يبق مـن الـدنيا إلا يـوم لـطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي ، يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً » ، ومنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو لم يبق من الدهر إلا يوم لبعث الله رجـلاً مـن أهـل

---

(١) الفتوحات المكية (ابن عربي) ، جـ١ ، ص ٢٠٠ ، وينكر مصطفى الشيبـي نسبة هذه الأبيات إلى علي زين العابدين لما تحمله من طابع غنوصي في المعرفة ، وهو أمر متأخر عن هذه الفترة ، انظر الصلة بين التصوف والتشيع (الشيبـي) ، ص ١٥٥ ، نشأة الفـكر الفلسـفي في الإسلام (النشار) ، جـ٢ ، ص ١٢٧ .

(٢) انظر : المهدية في الإسلام (سعد محمد حسن) ، ص ٤٥ ــ ٤٨ . ضحى الإسلام (أحمد أمين) ، جـ٣ ، ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦ .

بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جوراً[1] » . وقد أشارت بعض هـذه الأحـاديث إلى أن المهدي يخرج في وقت فتنة وزلازل واختلاف وفرقة بين الناس ، وأنـه يخـرج في آخر الزمان ، كشرط من أشراط الساعة ، ويبايع بيـن الـركن والمقـام . وأنــه يكون في ولد الحسن بن علي ، وفي عهده يظهر المسيح الـدجال ، وينـزل بعـده عيسى فيقتل الدجال إلخ[2] .

وقد تعرضت أحاديث المهدي إلى نقد شديد من رجال الحـديث وعلمـائه ، إذ فحصوا أسانيدها ، وأبانوا ما فيها من قوة وضعف ، وميزوا فيها بين الصحيح والحسن والضعيف . وقد ذهب ابن خلدون ــ بعد استعراضه لما وجه لأسـانيد هذه الأحاديث من نقد ــ إلى أنه لم يخلص منها من النقـد إلا القليـل والأقـل منه[3] » . ولكننا نجد أن كثيراً من علماء المسلمين ممن لهم دراية بالسنة ومعرفة بها ، قد قبل هذه الأحاديث أو بعضاً منها . ومن بين هـؤلاء ابـن تيميـة الـذي يقول : « وأحاديث المهدي معروفة رواها الإمــام أحمـــد وأبـــو داود والتـــرمذي وغيرهم[4] » ويقول أيضاً : « وأما الحديث الذي رواه ــ أي الرافضي ــ عن ابـن عمر عن النبـي صلى الله عليه وسلم : « يخرج في آخر الزمان رجل مـن ولـدي اسمه كاسمي ، وكنيته كنيتي يملأ الأرض عدلا كما ملئـت جـوراً ، وذلك هـو المهدي » فالجواب أن الأحاديث التي يحتج بهـا على خـروج المهــدي أحــاديث صحيحة رواها أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم من حديث ابن مسعود وغيـره كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن مسعود ، « لو لم يبق من

---

(١) سنن أبـي داود ، كتاب المهدي ، جـ ٤ ، ص ١٠٦ ــ ١٠٩ ، سنن الترمذي ، كتاب الفتن باب ما جاء في المهدي ، جـ ٤ ، ص ٥٠٥ ــ ٥٠٦ .

(٢) سنن ابن ماجه ، كتاب الفتن ، باب خروج المهدي ، جـ ٢ ، ص ١٣٦٦/٣٦٨ ، أحاديث رقم ٤٠٨٢ ــ ٤٠٨٨ .

(٣) المقدمة (ابن خلدون) ، ص ٣٢٢ .

(٤) منهاج السنة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ .

الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج فيه رجل مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت جوراً وظلماً » ، ورواه الترمذي وأبو داود من رواية أم سلمة وأيضاً فيه « المهدي من عترتي من ولد فاطمة » ورواه أبو داود من طريق أبي سعيد وفيه « يملك الأرض سبع سنين » ، ورواه عن علي رضي الله عنه أنه نظر إلى الحسن وقال : « إن ابني هذا سيد ــ كما سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ وسيخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم ، يشبهه في الخلق ولا يشبهه في الخلق ، يملأ الأرض قسطاً » . وهذه الأحاديث غلط فيها طوائف . طائفة أنكروها واحتجوا بحديث ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا مهدي إلا عيسى بن مريم » ، وهذا الحديث ضعيف . . وليس مما يعتمد عليه[1] » . كما قبلها أيضاً ابن القيم ، الذي ذكر أنَّ أحاديث المهدي أربعة أقسام : صحاح وحسان وغرائب وموضوعة[2] . ونقل عن أبي الحسين محمد بن الحسين الآبُري صاحب كتاب مناقب الشافعي قوله : إنه قد تواترت الأخبار واستفاضت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذكر المهدي وأنه من أهل بيته وأنه يملك سبع سنين وأنه يملأ الأرض عدلا وأن عيسى يخرج فيساعده على قتل الدجال وأنه يؤم هذه الأمة ويصلي عيسى خلفه[3] . ويقول ابن القيم ، وهذه الأحاديث وإن كان في إسنادها بعض الضعف والغرابة ، فهي مما يقوى بعضها بعضاً ويُشدّ بعضها ببعض[4] » . وقبل ذلك ذكر القرطبي في كتابه « التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة » بعد ذكر حديث (لا مهدي إلا عيسى بن مريم) ، أن إسناده ضعيف ، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في التنصيص على خروج

(١) منهاج السنة النبوية ، ج ٤ ، ص ٢١١ .

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ابن قيم الجوزية) ، ص ١٤٨ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٥٢ .

المهدي من عترته من ولد فاطمة ثابتة أصح من هذا الحديث ، فالحكم لها دونه »[1] .

وقد استفادت الشيعة من فكرة المهدي هذه ونسبوها إلى أئمتهم وأول من فعل ذلك الكيسانية الذين زعموا بأن محمد بن الحنفية الذي يقولون بأنه غاب في جبل رضوى ، هو المهدي المنتظر ويصفه شاعرهم كثير عزة بذلك فيقول :

هو المهدي خبرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي[2]

أما الشيعة الاثنا عشرية فقد أسندوا « المهدوية » إلى آخر أئمتهم محمد بن الحسن العسكري الذي يقولون بأنه دخل السرداب بسامراء بعد موت أبيه وعمره إما سنتان وإما ثلاث وإما خمس ــ علماً بأن بعض المؤرخين وعلماء الأنساب كالطبري وغيره يشكون في وجود محمد بن الحسن أساساً . ويذهبون إلى أن الحسن بن علي العسكري لم ينسل ولم يعقب . هذا بالإضافة إلى أن « محمد بن الحسن » إن وجد فهو من نسل الحسين وليس من نسل الحسن[3] ، وإن اتفق اسمه مع اسم النبي صلى الله عليه وسلم فإن اسم أبيه « الحسن » وليس « عبد الله » كاسم والد النبي كما وردت بذلك الأحاديث . ونسب الإسماعيلية « المهدية » إلى عبيد الله المهدي (توفي سنة ٣٢٤ هـ) الذي ظهرت على يده الدولة العبيدية أو « الفاطمية »[4] . والذي دعا الشيعة إلى تبني فكرة « المهدي المنتظر »

---

(١) التذكرة (القرطبي) ، ص ٧٢٢ ــ ٧٢٣ ، وقد استقصى عبد المحسن بن حمد العباد أسماء العلماء الذين صححوا أحاديث المهدي وقبلوها ومن بينهم إلى جانب من ذكرنا القاضي عياض ، والذهبي ، وابن كثير وابن حجر والسيوطي وغيرهم . انظر : الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي ، وعقيدة أهل السنة والأثر في المهدي المنتظر ، ص ١٤١ ــ ١٤٣ ، ١٦٦/١٦٨ كما ذكر أيضاً أسماء العلماء الذين ألفوا كتباً خاصة تبنوا فيها القول بظهور المهدي وأثبتوا ذلك ، ص ١٦٨ ــ ١٧١ .

(٢) مذاهب الإسلاميين (عبد الرحمن بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٧٦ .

(٣) يورد الشيعة بعض الأحاديث التي تنص على أن المهدي من نسل الحسين ، انظر : دلائل الإمامة ، ص ٢٣٤ .

(٤) منهاج السنة النبوية ، جـ ٢ ، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .

والتركيز عليها هو ما آلت إليه أحوالهم بعد مقتل علي وتولي معاوية الأمر ومبايعة الحسن له ، ثم استشهاد الحسين وفشل الحركات الثورية التي قاموا بها ضد الأمويين ، إذ خشي الشيعة أن يدب اليأس إلى نفوس أتباعهم وأن تتلاشى حركتهم أمام ضغط الأمويين وقوة شوكتهم ، فعملوا على تحويل دعوتهم إلى دعوة سرية تعمل في الخفاء على الإطاحة بالحكم الأموي وتقويض أركانه ، ولكنهم أدركوا أن هذا لا يتم إلا بعد جهود مضنية ووقت طويل ، فكان لا بد من ربط الأتباع بأمل يتطلعون إليه ، وكان ذلك الأمل هو « الإمام الغائب » أو « المهدي المنتظر » محمد بن الحنفية » أو « محمد بن الحسن العسكري » أو « عبيد الله المهدي » وفقاً لاختلاف فرق الشيعة[1] .

وفي غير دوائر الشيعة استفاد بعض الأفراد من الأحاديث التي وردت عن المهدي فادَّعوا المهدية وقاموا بدعوات إصلاحية في فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي ومن بين هؤلاء أبو عبد الله محمد بن تومرت الذي ظهر بالمغرب[2] ،

---

(١) انظر : ضحى الإسلام (أحمد أمين) ، ج ٣ ، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ .

(٢) تباينت الآراء حول ابن تومرت وحقيقة دعوته ، فهناك من اعتبره مصلحاً أحدث ثورة اجتماعية وفكرية في المغرب الإسلامي ، انظر : المهدي بن تومرت : (عبد المجيد النجار) ، ص ١٣ وما بعدها ، دراسات في تاريخ المهدية ، المجلد الأول ، ص ١ ـ ٣٨ . تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية (يحيى هويدي) ، ج ١ ، ص ٢٢٣ ـ ٢٧٤ . بينما يرى آخرون أنه دَعِيٌّ اتخذ من دعوى المهدية وسيلة لإرواء ظمئه إلى الدماء ونشر أفكاره التي لم تكن تتفق مع أهل السنة والجماعة . وربما دفع إلى الطعن فيه ، أسلوبه القاسي في معاملة خصومه وأنصاره على السواء ، واعتقاده لمذهب الأشاعرة في بعض العقائد ، وتبعيته لمذهب المعتزلة في نفي الصفات ، وإبطانه بعض المعتقدات الشيعية والتي تتمثل في ادعائه العصمة ودفاعه عنها . انظر : الفتاوي (ابن تيمية) ، مجلد ١١ ، ص ٤٧٦ ـ ٤٩١ . المنار المنيف (ابن القيم) ، ص ١٥٣ ، حيث يقول ابن القيم « أما مهدي المغاربة محمد بن تومرت فإنه رجل كذاب ظالم متغلب بالباطل ملك بالظلم والتغلب والتحيل فقتل النفوس وأباح حريم المسلمين ، وسبى ذراريهم وأخذ أموالهم وكان شراً على الملة من الحجاج بن يوسف بكثير » . وقد بين ابن تومرت معتقداته وآرائه في كتبه : « كالمرشدة » ، وكتاب « أعز ما يطلب » ، و « المرشدة » عبارة عن عقيدة موجزة ، بينما كتاب « أعز ما يطلب » ، فيه عرض لآرائه في الإمامة

(توفي سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠ م) وادعى المهدوية ، وأثمرت دعوته بتأسيس دولة الموحدين ، ومحمد أحمد المهدي بالسودان الذي ظهر في نهاية القرن الماضي ، وادعى أنه المهدي المنتظر وخاض معارك عديدة ضد الأتراك والإنجليز وأسس دولة بالسودان لم يكتب لها الاستمرار طويلاً[1] .

وعلى كل فإن عقيدة أهل السنة الصحيحة في « المهدي المنتظر » تختلف عن عقيدة الشيعة فيه ، إذ أنهم لا يذهبون كما ذهب الشيعة إلى أن المهدي وجد في لحظة تاريخية ، ثم غاب في سرداب ، أو اختفى بجبل رضوى ، ثم يظهر بعد غيبته ، بل يلتزمون بما ورد في الأحاديث من أن المهدي سيظهر في آخر الزمان وأنه سيجدد أمر الدين ويملأ الأرض عدلا ، ويتولى امرة المسلمين . ويخرج في زمانه الدجال وينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام كما أن المهدي عند أهل السنة غير معصوم .

وقد حاول بعض المستشرقين رد عقيدة المهدي إلى أُصول يهودية أو نصرانية ، كما وصف فريق منهم فكرة المهدي بأنها مجرد أسطورة وأنها كانت سبباً في إثارة الفتن وإشاعة الفوضى في العالم الإسلامي[2] . وقد سبق أن رأينا أن هذه الفكرة لها سند قوي من الأحاديث والآثار رغم الخلاف حول صحتها . ومن ثم فليس هناك ما يبرر تلمس جذور أجنبية لها ، لا سيما إذا ما جردت الفكرة من الأوصاف الأسطورية التي نسبت إلى المهدي ، والدور الذي سيؤديه ، وأبعد عنها بعض الخرافات والأباطيل التي نسبت إلى بعض مدعي المهدية . أما الحركات

وضرورتها ، ووجوب العلم والمعرفة ، ثم يتناول قضايا التوحيد بمنهج كلامي جدلي .

(١) عن تاريخ الحركة المهدية في السودان انظر : جغرافية وتاريخ السودان (نعوم شقير) ، تاريخ الثورة المهدية ، ص ٦٣١ وما بعدها . المهدية في السودان (ب . هولت) ، ترجمة د . جميل عبيد . السودان والثورة المهدية ، جـ ١ ـ ٢ (مكي شبيكة) ، دار النشر ، جامعة الخرطوم ، ط. أولى (١٩٧٨/١٩٧٩) .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام (جولد زيهر) ، ص ٢١٨/٢١٩ Shorter Encyclopedia of Islam, art. (Al-Mahdi), pp. 310-313.

التي ظهرت فلم تكن جميعها مثيرة للفتن والفوضى ، صحيح إن بعضاً ممن قاموا بهذه الدعوات كانوا مجرد دجالين ضَلُّوا وأضلُّوا الناس ، ولكن بعض هؤلاء لم يظهروا إلا على أثر ظروف استشرى فيها الشر وانتشر فيها الفساد ، فظهر هؤلاء للناس كمصلحين يحاولون إنقاذهم . وكانوا مخلصين في دعوتهم ، ولكنهم تبنوا فكرة « المهدوية » ، ونسبوها إلى أنفسهم أو نسبت إليهم ، ليضفوا على حركاتهم الإصلاحية صفة الشرعية ، ولكي يضمنوا التأييد والدعم من عامة الناس . وقد قام بعضهم بإزالة المفاسد وإحياء الإسلام في نفوس الناس وحثهم على الجهاد ضد الظلم والطغيان والاستبداد . وأقرب مثل لهذا « مهدي السودان » الذي ظهر كثائر على الفساد الإجتماعي والأخلاقي والإنحراف العقائدي الذي انتشر آنذاك ، واستطاع أن يرفع الظلم عن كاهل الناس ولو لفترة وجيزة . . وأن يصحح إلى حد ما . . معتقدات الناس ويحررها من الخرافة والدجل[1] . فقد جاء في منشورات المهدي ، الدعوة إلى إماتة ما حدث من البدع والضلال ، والإنابة إليه تعالى في كل حال ، . . ونبه إلى أن دسائس أهل الكفر التي أدخلوها على أهل الإسلام وضلالتهم التي مكنوها في قلوب الأنام ، قد أفضت إلى اندراس الدين ، وعطلت أحكام الكتاب والسنة بيقين ، فصارت شعائر الإسلام غريبة بين الأنام ، وتراكمت الظلمات وانتشرت البدع ، وأبيحت محارم الإسلام . كما دعا المهدي إلى أن يكون الجميع يداً واحدة على إقامة الدين وإخراج أعداء الله من بلاد المسلمين . وقد قاتل المهدي الأتراك ثم الإنجليز وطهّر السودان من طغيانهم وفسادهم واستبدادهم . كما عمل على تنفيذ أحكام الله وتطبيق شريعته ، فأبطل السحر والتمائم وكتابة الأحجبة ، والنياحة على الميت ، وحرم شرب الدخان ونهى عن الاستعانة بالأولياء وزيارة قبورهم ، ودعا إلى الزهد والتقلل من الدنيا ، وألزم الرجال والنساء آداب

---

(١) يسألونك عن المهدية (الصادق المهدي) ، ص ١١٥ وما بعدها .

الإسلام في الزي والاجتماع . كما نفذ الحدود الإسلامية في كل من انتهك حرمة توجب حداً فجلد شارب الخمر وحد الزاني والسارق ، وفي نفس الوقت أمر بالمحافظة على الصلوات الخمس في جماعة ، وجمع الزكاة وأمضى فريضة الجهاد وصار يأخذ من الغنائم الخمس[1] .

وأكد المهدي أن دعوته مرتبطة بالكتاب والسنة ، ودعا من ثم إلى استنباط الأحكام الشرعية من هذين المصدرين وطرح ما سواهما من الآراء والمذاهب ، وقال حينما سئل عن مذهبه : طريقتنا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، ومذهبنا الكتاب والسنة ، ما جاء من عند الله على رؤوسنا ، وما جاء من النبي صلى الله عليه وسلم على رقابنا ، وما جاء من الصحابة إن شئنا عملنا به وإن لم نشأ لم نعمل به » . وقال أيضاً : الأئمة الأربعة جزاهم الله خيراً ، قد درجوا الناس ووصلوهم إلينا ، كمثل الراوية وصلت الماء من منهل إلى منهل حتى وصلت صاحبها ، فهم رجال ونحن رجال ولو أدركونا لاتبعونا . وإن مذهبنا الكتاب والسنة والتوكل على الله ، وقد طرحنا العمل بالمذاهب ورأي المشايخ[2] .

ورغم هذا فهناك بعض المآخذ التي أخذت على المهدي : كزعمه أنه يتلقى تعاليمه من الرسول صلى الله عليه وسلم . وقد وردت كثيراً في أقواله عبارة : « أخبرني سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، يقظة في حال الصحة خالياً من الموانع الشرعية لا بنوم ولا جذب ولا سكر ولا جنون ، متصفاً بصفات العقل ، اقفوا أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بما أمر به والنهي عما نهى عنه » . ومن ذلك أيضاً تكفيره من شك في مهديته واستباحة قتاله ، مع أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . كما أنه غالى في استخفافه بالعلماء وتحقيرهم ، ووصفهم بأنهم علماء السوء الذين يقولون ما لا يفعلون . كما أنَّ المهدي أصدر بعض الأحكام التي قد لا تتفق مع

---

(١) انظر : منشورات المهدية ، تحقيق د. محمد إبراهيم أبو سليم الخرطوم (١٩٦٩) .

(٢) يسألونك عن المهدية (صادق المهدي) ، ص ١٧٢ .

الشريعة الإسلامية وشدد في هذه الأحكام لمعالجة بعض الإنحرافات[1] .

موقف الإمامية الإثنا عشرية من القرآن ، والسنة والصحابة :

قد كان لمعتقد الشيعة في الإمامة ومحاولة الدفاع عنه أثر كبير في دفع بعض الشيعة إلى تبني أفكار خطيرة حول القرآن والسنة والصحابة رضوان الله عليهم ، فشككوا في القرآن[2] وأنكروا كثيراً من الأحاديث الثابتة ، وطعنوا في الصحابة وجرحوهم ونسبوا إليهم تعمد الكذب وتحريف كتاب الله تعالى .

أما القرآن فقد زعم بعض الشيعة أنه قد حرف وأسقطت منه بعض السور وكثير من الآيات التي أنزلت في فضائل أهل البيت والأمر باتباعهم ، والنهي عن مخالفتهم وإيجاب محبتهم ، وأسماء أعدائهم والطعن فيهم ، ولعنهم . وقد اتهم الشيعة الصحابة رضوان الله عليهم ، بأنهم أسقطوا من القرآن من جملة ما أسقطوه « وجعلنا علياً صهرك » من سورة « الشرح » والتي تشير إلى تخصيص علي بمصاهرة الرسول عليه السلام دون عثمان[3] . وقد جهل هؤلاء أن هذه السورة مكية ، وأنها حين نزلت لم يكن علي صهراً للرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ أن علياً تزوج فاطمة بالمدينة وبعد غزوة بدر كما سبق أن أشرنا . ويذهب الشيعة أيضاً إلى أنه من بين ما أسقط من القرآن ، « سورة الولاية »

---

(١) يسألونك عن المهدية ، ص ٢٠٢/٢٢٨ ، إيديولوجية المهدية (صادق المهدي) في : دراسات في تاريخ المهدية ، المجلد الأول ، ص ٥٥/٧٢ .

(٢) انظر : الشيعة والقرآن (إحسان إلهي ظهير) .

(٣) مختصر التحفة الاثنا عشرية ، ص ٣٠/٣١ . ومسألة إسقاط آيات من القرآن ينكرها علماء الشيعة المعروفين الآن في العراق وفي إيران . إذ يعتقدون أن القرآن لا يعتريه التبديل والتغيير والتحريف ، وهذا الذي بين أيدينا نتلوه هو نفس القرآن المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم ، ومن ادعى غير ذلك فهو محترف أو مغالط أو مشتبه وكلهم على غير هدى ، فإنه كلام الله الذي « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » ، انظر عقائد الإمامية ، ص ٥٩ ــ ٦٠ .

ويزعمون أنها سورة طويلة قد ذكر فيها فضائل أهل البيت[1] . وهكذا تدور معظم مزاعم الشيعة في القرآن حول هذه القضايا ، إذ أنهم لم ينكروا حكماً من أحكامه أو قاعدة من قواعده ، ولكن تدور آراؤهم حول إسقاط بعض الآيات التي تشير إلى ولاية علي ومن بعده من الأئمة .

وقد ردد هذه الافتراءات على القرآن العديد من علماء الشيعة الإمامية ، وعلى رأسهم حجتهم المشهور ، أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (توفي سنة ٣٢٩ هـ) صاحب كتاب « الكافي » الذي يعتبر في حجيته ، لدى الشيعة ، في مرتبة كتاب البخاري عند أهل السنة . وقد ذكر صاحب تفسير الصافي الشيعي : إن الظاهر من ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني طاب ثراه ، أنه كان يعتقد أيضاً في التحريف والنقصان في القرآن لأنه روى روايات في هذا المعنى في كتابه « الكافي » ولم يتعرض بقدح فيها . على أنه ذكر في أول كتابه أنه يثق بما رواه فيه[2] . وكتاب الكليني هذا مليئ بهذه المزاعم المنحرفة ، والتي تهدف في الأساس إلى إثبات إمامة علي بن أبي طالب والأئمة من بعده . ومن ذلك ما رواه الكليني عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل ﴿ ومن يطع الله ورسوله (في ولاية علي والأئمة بعده) فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾ هكذا نزلت[3] . ويروى أيضاً عن جابر[*] عن أبي جعفر عليه السلام قال ، قلت له لم سمى (علي بن أبي طالب) أمير المؤمنين ؟ قال الله سماه ، وهكذا أنزل في كتابه ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على

---

(١) مختصر التحفة الإثنا عشرية ، ص ٣٢/٣١ ، وتوجد صورة فوتوغرافية لسورة الولاية التي زعم الشيعة أنها من القرآن .

(٢) تفسير الصافي ، ص ١٣ ، نقلاً عن الإمام الصادق (محمد أبو زهرة) ، ص ٣٣٣ .

(٣) الكافي الحجة (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٤١٤ .

(*) جابر بن يزيد الجعفي ، انظر : رجال الشيعة في الميزان (عبد الرحمٰن عبد الله الزرعي) ، ص ٧٢ ــ ٧٧ .

أنفسهم ألست بربكم (وأن محمداً رسولي وأن علياً أمير المؤمنين[1]) ﴾ .

ويروي الكليني عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال : رفع إليَّ أبو الحسن عليه السلام مصحفاً وقال : لا تنظر فيه ، ففتحته وقرأت فيه ﴿ لم يكن الذين كفروا ﴾ فوجدت فيهم اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم قال : فبعث إليَّ : أبعث إليَّ بالمصحف »[2] .

وقد زعم الكليني أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة ، وأنهم (أي الأئمة) يعلمون علمه كله ، فما جمعه وحفظه كما أنزل إلا علي بن أبي طالب والأئمة من بعده[3] . وقد ردد معظم الشيعة هذه الفرية التي ربطت جمع القرآن بعلي رضي الله عنه . وقد ذهب صاحب الاحتجاج إلى « أنه لما توفي الرسول صلى الله عليه سلم ، جمع علي (ع) القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فتحه أبو بكر خرج في أول صفحة فتحها فضائح القوم فوثب عمر وقال : يا علي أردده فلا حاجة لنا فيه . فأخذه (عليه السلام) وانصرف . ثم أحضروا زيد بن ثابت وكان قارئاً للقرآن . فقال له عمر إن علياً جاء بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار وقد رأينا أن نؤلف القرآن ونسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار . فأجابه زيد إلى ذلك ثم قال : فإن أنا فرغت من القرآن على ما سألتم وأظهر عليٌّ القرآن الذي ألفه أليس قد بطل كل ما عملتم ؟ قال عمر فما الحيلة ؟ قال زيد : أنتم أعلم بالحيلة . فقال عمر : ما حيلته دون أن نقتله ونستريح منه فدبر في قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك »[4]. ولا

---

(١) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٤١٢ ، انظر أيضاً كتاب « السنة والشيعة » (إحسان إلٰهي ظهير) ، ص ١٠٣ .

(٢) الكافي (الكليني) كتاب فضل القرآن ، جـ ٢ ، ص ٦٣١ ، انظر : السنة والشيعة . ص ٨٧ .

(٣) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ٢٢٨ .

(٤) الاحتجاج (الطبرسي) ، ص ٢٢٥/٢٢٨ .

شك أن مثل هذه الرواية من نسج خيال مريض فاسد أراد أن يتهم الصحابة بتحريف القرآن ، والتآمر على حرمان علي من إمامة المسلمين ، وهو إذ يمدح علياً يذمه إذ يصفه بالسكوت السلبي حينما رفض الصحابة الأخذ بقرآنه!!! ، فكيف يتفق هذا مع مواقف علي رضي الله عنه البطولية في سبيل الدفاع عن الإسلام . ويرد على مثل هذه الترهات قول علي رضي الله عنه « أعظم الناس أجراً في المصحف أبو بكر ، رحمة الله على أبي بكر ، هو أول من جمع بين اللوحين »[1] .

ولم يكتف الكليني بهذا ، بل نسب هذه الافتراءات والمزاعم الباطلة حول التحريف في القرآن إلى جعفر الصادق ، إذ ينسب إليه أنه قال : « إن القرآن الذي نزل به الوحي على محمد سبعة آلاف آية ، والآيات التي نتلوها ثلاث وستون ومئتان وست آلاف فقط ، والباقي مخزون عند آل البيت[2] » . وزعم الكليني أن الصادق قال عن القرآن الذي جمعه علي بن أبي طالب في زعمه « قيل هو مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد » . ويقولون إن فاطمة رضي الله عنها مكثت بعد النبي خمسة وسبعين يوماً ، صبت عليها مصائب من الحزن لا يعلمها إلا الله فأرسل الله إليها جبريل يسليها ويعزيها ويحدثها عن أبيها . وعما يحدث لذريتها ، وكان علي يستمع ويكتب ما يسمع حتى جاء به مصحف قدر القرآن ثلاث مرات ليس فيه شيء من حلال وحرام ولكن فيه علم ما يكون . ويروي الكليني أيضاً عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إن القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله سبعة عشر ألف آية[3] .

---

(١) كتاب المصاحف (السجستاني) ١/ ص ٥ .

(٢) الإمام الصادق (محمد أبو زهرة) ، ص ٣٢٣ .

(٣) الكافي (الكليني) ، جـ ١ ، ص ١١٥ ، انظر أيضاً : أضواء على خطوط محب الدين ، ص ٤٧/٤٨ .

ويردد عالم شيعي آخر وهو علي بن إبراهيم القمى ، نفس المزاعم التي ذهب إليها الكليني ، ويورد عنه محمد محسن الملقب بالفيض الكاشي في تفسيره فيقول : المستفاد من الروايات عن طريق آل البيت أن القرآن الذي بين أظهرنا ليس بتمامه كما أُنزل على محمد بل منه ما هو خلاف ما أنزل الله ، ومنه ما هو مغير محرف ، وأنه قد حذف منه أشياء كثيرة منها اسم « علي » في كثير من المواضع ومنها لفظ « آل محمد » غير مرة ، ومنها أسماء المنافقين في مواضعها ، ومنها غير ذلك وأنه ليس على الترتيب المرضي عند الله ورسوله . وبه (أي بهذا الرأي) قال علي بن إبراهيم (المسمى بالقمى له تفسير مليء بهذه الدعاوي والغلو فيها) . فقال في تفسيره : قرئ على أبي عبد الله (جعفر الصادق) ﴿ والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين ، واجعلنا للمتقين إماماً ﴾[1] . فقال أبو عبد الله : لقد سألوا أمراً عظيماً . فقيل له يا ابن رسول الله كيف نزلت؟ فقال : إنما نزلت « واجعل لنا من المتقين إماماً » . وقوله تعالى ﴿ له معقبات من بين يديه ومن خلفه بحفظونه من أمر الله ﴾[2] فقيل له يا ابن رسول الله كيف نزلت؟ فقال : « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه بأمر الله » ومثله كثير ، وأما ما هو محذوف منه فهو قوله تعالى ﴿ لكن الله يشهد بما أُنزل إليك (في علي) كذا نزلت ، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون ، وكفى بالله شهيداً ﴾[3] . وقوله ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أُنزل إليك من ربك (في علي) فإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾[4] وقوله ﴿ إن الذين كفروا وظلموا (آل محمد في حقهم) لم يكن الله ليغفر لهم ﴾[5] وقوله

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٧٤ .

(٢) سورة الرعد ، الآية ١١ .

(٣) سورة النساء ، الآية ١٦٦ .

(٤) سورة المائدة ، الآية ٦٧ .

(٥) سورة النساء ، الآية ١٦٨ .

﴿ وسيعلم الذين ظلموا (آل محمد حقهم) . . أيَّ مُنْقلب ينقلبون ﴾[1] وقوله ﴿ ولو ترى إذ الظالمون (آل محمد حقهم) في غمرات الموت ﴾ ومثله كثير »[2] ، وهكذا نرى التمحل والافتراء في هذه المزاعم ، وكيف أن هذا النفر من الشيعة وجهوا هذه المزاعم لخدمة فكرتهم الأساسية وهي النص على « علي » بالإمامة وتفضيله وآل بيته على غيرهم . وقد سيطرت هذه الأفكار سيطرة كاملة على عقليات بعض الشيعة فأعمتهم عن الحق وجعلتهم يرددون مثل هذه الافتراءات بل وينسبوها إلى أئمتهم ، كجعفر الصادق ، وهم بريئون من مثل هذه الأقوال والمعتقدات .

وقد جمع حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي ، أحد مشاهير علمائهم ، أقوال الشيعة ومزاعمهم حول القرآن في كتابه المشهور « فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب »[3] . ويذكر الطبري الشيعي أن الشيعة يعتقدون « أنه كان لأمير المؤمنين (عليه السلام) قرآن مخصوص جمعه بنفسه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وعرضه على القوم فأعرضوا عنه فحجبه عن أعينهم ، وكان عند ولده (عليهم السلام) يتوارثه إمام عن إمام ، كسائر خصائص الإمامة ، وخزائن النبوة ، وهو عند الحجة عجل الله فرجه ، يظهره للناس بعد ظهوره ويأمرهم بقراءته ، وهو مخالف لهذا القرآن الموجود من حيث التأليف وترتيب السور والآيات ، بل الكلمات ، ومن جهة الزيادة والنقيصة »[4] .

وقد أدرك بعض علماء الشيعة خطورة هذه المزاعم وخطلها ، فنفوا عن

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧ .

(٢) الصافي في تفسير القرآن (الفيض الكاشي) ، ص ١٣ نقلاً عن الإمام الصادق (أبو زهرة) ، ص ٣٢٤/٣٢٥ ، انظر أيضاً « الشيعة والسنة » (إحسان إلهي ظهير) ، ص ١٣٦ .

(٣) انظر : الخطوط العريضة (محب الدين الخطيب) ، ص ٨/٩ .

(٤) فصل الخطاب ، ص ٩٧ ، نقلاً عن تاريخ القرآن (عبد الصبور شاهين) ، ص ١٦٧ ، انظر : الشيعة والقرآن (إحسان الهي ظهير) ، ص ١٤١ وما بعدها .

القرآن التحريف زيادة أو نقصاً ، ومن هؤلاء محمد بن علي بن بابويه القمي الملقب بالصدوق عند الشيعة (توفي سنة ٣٨١ هـ) ومؤلف كتاب « من لا يحضره الفقيه » وهو أول من قال من الشيعة بعدم التحريف في القرآن ، ومنهم أيضاً السيد المرتضى (توفي سنة ٣٤٦ هـ) وقد نقل عنه هذا الموقف المفسر الشيعي أبو علي الطبرسي (توفي سنة ٥٤٨ هـ) ، الذي ذهب هو نفسه هذا المذهب فأنكر التحريف عن القرآن وقال : فأما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه ، وأما النقصان فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً ونقصاناً ، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه وهو الذي نصره المرتضى[1] » .

وحذا حذو هؤلاء أبو جعفر الطوسي (توفي سنة ٤٦٠ هـ) فقال في تفسيره « التبيان » : « أما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به .. إلى أن قال : وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم رواية لا يدفعها أحد أنه قال : « إني مخلف فيكم الثقلين ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. وهذا يدل على أنه موجود في كل عصر لأنه لا يجوز أن يأمر بالتمسك بما لا نقدر التمسك به[2] » . ولكن هؤلاء كانوا الاستثناء من القاعدة ، حتى أن صاحب كتاب « فصل الخطاب » يقول بعد عرض آرائهم : « لم يعرف الخلاف صريحاً إلا من هذه المشايخ الأربعة » . هذا بالإضافة إلى أنَّه لم يتعرض واحد من هؤلاء الذين زعموا التحريف في القرآن إلى نقد من قبل الشيعة ، إذ ظل الكليني موضع الثقة والتبجيل والإكرام والمرجع الأول عند جميع الشيعة حتى اليوم .

وتجدر الإشارة إلى أنَّ بعض الشيعة حاولوا تفسير الزعم بالنقصان في القرآن بأنه لا يعني نقص لفظ منه ، ولكن المراد به نقصاً في ما هو ثابت (عندهم) من تفسير القرآن أو تأويله . وممن ذهب إلى ذلك الشيخ المفيد الذي

---

(١) مجمع البيان (الطبرسي) ، المجلد الأول ، ص ٣١/٣٠ .

(٢) التبيان (الطوسي) ، مجلد ١ ، ص ٤/٣ .

يقرر أن « القول في تأليف القرآن وما ذكر قوم من الزيادة فيه والنقصان ، أقول إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان . فأما القول في التأليف فالموجود يقضي فيه بتقديم المتأخر وتأخير المتقدم ، ومن عرف الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني لم يَرْتَب بما ذكرناه .

وأما النقصان فإن العقول لا تحيله ولا تمنع من وقوعه . وقد قال جماعة من أهل الإمامة إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة ، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين (ع) من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله ، وذلك كان ثابتاً منزلا ، وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز . . . وعنده أن هذا القول أشبه من مقال من ادعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل وإليه أميل »[1] .

ورغم أن الشيعة المعاصرين أكدوا نفي التحريف عن القرآن زيادة ونقصاً ، فإننا لا نجد أحداً منهم يرد على الكليني رداً صريحاً أو يظهر عدم الثقة به أو يرفض ما ذهب إليه ، بل أن البعض حاول بطريقة ملتوية أن يدافع عنه ويجد له المعاذير[2] . بينما أكد آخرون أنهم لا يترددون في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن ، وأن جحود البعض تماماً كجحود الكل ، لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي بضرورة الدين واتفاق المسلمين . وفي الوقت نفسه يذهب محمد جواد مغنية (أحد علماء الشيعه المعاصرين) إلى أن النقصان بمعنى أن هذا القرآن لا يحتوي جميع الآيات التي نزلت على محمد ، فقد قال به أفراد من السنة[3] ، والشيعة في العصر البائد ، وأنكر عليهم يومذاك المحققون وشيوخ

---

(١) أوائل المقالات (الشيخ المفيد) ، ص ٥٤ ــ ٥٦ .

(٢) أضواء على خطوط محب الدين ، ص ٤٢ وما بعدها .

(٣) هذا زعم باطل ، ودعوى لم يقدم عليها صاحبها برهاناً فلم يثبت أن أحداً من أهل السنة قال بأن القرآن فيه زيادة أو نقصان بينما شاع الطعن في القرآن في دوائر الشيعة وانتشر أمره حتى

الإسلام من الفريقين وخرجوا بكلمة قاطعة أن ما بين الدفتين هو القرآن المنزل دون زيادة أو نقصان للآية ٨ من سورة الحجرات : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ وللآية ٤٦ من سورة فصلت ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ . واليوم أصبح هذا القول ضرورة من ضرورات الدين وعقيدة لجميع المسلمين إذ لا أحد قائل بالنقيصة لا من السنة ولا من الشيعة[1] » ونأمل أن يكون هذا هو موقف الشيعة جميعاً ، حتى لا نعطي الفرصة لمتشكك أو طاعن في القرآن .

وهناك قضية أخرى خطيرة تتعلق بموقف الشيعة من القرآن ولكنها لا تبلغ درجة القول بتحريف القرآن وزيادته ونقصانه ، ذلك أن الشيعة قد أوكلوا أمر فهم القرآن ومعرفة أسراره وبواطنه إلى أئمتهم . فذهبوا إلى أن الأئمة أُوتوا علم القرآن كله ظاهره وباطنه محكمه ومتشابهه ، بل إنهم يقولون : إن المتشابه إنَّما يعد متشابهاً بالنسبة لعامة الناس ، أما بالنسبة للأئمة فإنَّه لا متشابه قط ، لأنهم هم الراسخون في العلم الذين أسند إليهم الله تعالى علم تأويل القرآن وفقاً لقوله تعالى ﴿ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هُنَّ أُمُّ الكتاب وآخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم ﴾[2] .

فعلم القرآن كله عند الأئمة ، وكل إمام منهم في عصره هو المرجع في بيان القرآن ، يبين منه ما يرى تبيانه ويكتم ما يرى كتمانه ، وينسبون إلى جعفر الصادق أنه قال في ذلك : « إنَّا أهل البيت لم يزل الله يبعث فينا من يعلم كتابه من أوله إلى آخره ، وإن عندنا من حلال الله وحرامه ما يسعنا كتمانه ، ما

احتاج إلى اعتذار من بعض الشيعة المعاصرين ، انظر : كتاب « الشيعة والقرآن » (إحسان الهي ظهير) .

(١) السنة والشيعة (محمد جواد مغنية) ، ص ٥٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ٧ .

نستطيع أن نحدث به أحداً »[1] . وقد قسم الشيعة فهم القرآن إلى مراتب لا يصل إلى المرتبة العليا منها ، وهي إدراك الحقائق ومعرفة مراد الله سبحانه وتعالى ، إلا الأوصياء ، هذا في الوقت الذي ثبت فيه أن علياً حينما سُئل هل عنده من علم أوتيه غير ما في القرآن أنكر ذلك ، كما سبق أن أشرنا . وقد أورد مسلم في صحيحه عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : خطبنا علي بن أبي طالب فقال : من زعم أن عندنا شيئاً نقرأه إلا كتاب الله وهذه الصحيفة (قال وصحيفة معلقة في قراب سيفه) فقد كذب ، فيها أسنان الإبل ، وأشياء من الجراحات ، وفيها قال النبي صلى الله عليه وسلم المدينة حرام . . . إلى آخر الحديث »[2] .

وقد ذهب الشيعة كذلك إلى أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وأن الناس لا يعلمون إلا الظاهر ، وأما الباطن فلا يعلمه إلا الأئمة ومن يستقي منهم[3] . وبمثل هذه الأفكار فتح الشيعة الباب للزنادقة والملحدين وأصحاب الأهواء والمذاهب الهدامة لكي يتلاعبوا بالقرآن . وحاولوا جميعاً الكيد له وأرادوا أن يطفئوا نور الإسلام بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون . وقد استغل الشيعة فكرة الظاهر والباطن هذه وحاولوا بها تفسير القرآن لكي يوافق معتقداتهم ويخدم مذهبهم في الإمامة ، كما اتخذوا القرآن تكأة لهجومهم على الصحابة رضوان الله عليهم وتجريحهم ، في الوقت الذي يمجدون فيه أهل البيت وينسبون إليهم أشياء يدفعونها هم عن أنفسهم . وقد أتى الشيعة في هذا الباب بآراء تخالف كل ما أُثر في تفسير القرآن ، ولا يسندها أثر ولا عقل ولا لغة ولا منطق . وكتاب « الكافي » للكليني ، حجة الشيعة ، مليء بمثل هذه

---

(١) الإمام الصادق (أبو زهرة) ، ص ٣٠٦ .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ، جـ ٤ ، ص ١١٥ .

(٣) انظر نماذج من تفسير الشيعة على اختلاف طوائفهم للقرآن واستغلالهم لفكرة الظاهر والباطن وتطبيقهم لها في كتاب : التفسير والمفسرون (محمد حسين الذهبي) ، الجزء الثاني .

التأويلات التي ينسبها إلى أبي عبد الله جعفر بن محمد، ومن ذلك مثلاً قوله في تفسير الآية ٣٥ من سورة النور: ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾ إلخ إنَّ «المشكاة» فاطمة عليها السلام، «فيها مصباح»: الحسن، «المصباح في زجاجة»: الحسين، «الزجاجة كأنها كوكب دري»: فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا. «توقد من شجرة مباركة»: إبراهيم عليه السلام، «زيتونة لا شرقية ولا غربية»: لا يهودية ولا نصرانية، «يكاد زيتها يضيء»: يكاد العلم يتفجر منها، «ولو لم تمسسه نار نور على نور» إمام بعد إمام، «يهدي الله لنوره من يشاء»: يهدي الله للأئمة من يشاء[1]. كما فسر الشيعة أيضاً: «مرج البحرين» بعلي وفاطمة، و«اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين.. وأن النبأ في قوله تعالى ﴿ عم يتساءلون عن النبأ العظيم ﴾ بأنه علي بن أبي طالب[2]. ويروي الكليني عن أبي الحسن أنه سأل أبي عبد الله عن قوله تعالى ﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ﴾ فقال يريدون ليطفئوا ولاية أمير المؤمنين بأفواههم. قلت قوله تعالى ﴿ والله متم نوره ﴾ قال يقول: والله متم الإمامة، والإمامة هي النور، وذلك قوله عز وجل ﴿ آمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا ﴾ قال: النور هو الإمام[3]. كما نسب الكليني أيضاً إلى الصادق بأنه فسر العلامات والنجم في قوله تعالى ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون ﴾، بأن النجم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعلامات هم الأئمة[4]. كما فسر الحكمة في قول الله تعالى ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ﴾ بأن الحكمة هي طاعة الله ومعرفة الإمام. وأنَّ الحسنة الواردة في قوله تعالى ﴿ من جاء بالحسنة ﴾ بأنها معرفة الولاية وحبنا

---

(١) الكافي (الكليني)، ج ١، ص ١٩٥.

(٢) الفتاوى (ابن تيمية)، ج ١٣، ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

(٣) الكافي (الكليني)، ج ١، ص ١٩٥ ـ ١٩٦.

(٤) نفس المرجع، ج ١، ص ٢٠٦/٢٠٧.

أهل البيت ، وأن « السيئة » إنكار الولايةِ وبغضنا أهل البيت[1] .

واستخدم بعض الشيعة نفس هذا المنهج المنحرف في تأويل القرآن للطعن في الصحابة وتجريحهم ، وأوردوا كثيراً من التأويلات التي تنم عن جهل فاضح وسوء قصد بين . ومن ذلك تفسيرهم للآية ﴿ تبت يدا أبي لهب وتب ﴾ بأن يدا أبي لهب هما أبو بكر وعمر ، وقوله تعالى ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ﴾ أي أشركت بين أبي بكر وعلي في الخلافة . وقوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ بأن البقرة هي عائشة ، وأن أئمة الكفر في قوله تعالى ﴿ وقاتلوا أئمة الكفر ﴾ هما طلحة والزبير[2] . ويروي الكليني عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ﴾ قال نزلت في فلان وفلان وفلان آمنوا بالنبي صلى الله عليه وآله في أول الأمر ، وكفروا حيث عرضت عليهم الولاية حين قال النبي صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا علي مولاه » ثم آمنوا بالبيعة لأمير المؤمنين عليه السلام ثم كفروا حين مضى رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يقروا بالبيعة ، ثم ازدادوا كفراً بأخذهم من بايعه بالبيعة لهم ، فهؤلاء لم يبق فيهم في الإيمان شيء ، وبين شارح الكافي أن المراد بفلان وفلان وفلان أبو بكر وعمر وعثمان[3] » .

وهكذا وضع الشيعة صورة قاتمة لحياة الصحابة فيها كثير من التجني

---

(١) الكافي (الكليني) ، ج ١ ، ص ١٨٥ .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) ، ج ١٣ ، ص ٣٥٩ .

(٣) الكافي ، ج ١ ، ص ٤٢٠ ، الصافي شرح الكافي ، نقلاً عن السنة والشيعة (إحسان الهي ظهير) ، ص ٤٢/٤١ ، وكاتب الشيعة الكشي يروى عن أبي جعفر أنه قال : كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة ، فقلت : ومن الثلاثة ؟ فقال : المقداد بن الأسود ، وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي ، وذلك قول الله عز وجل ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ﴾ ، انظر : رجال الكشي ، ص ١٣/١٢ ، السنة والشيعة ، ص ٤٩ .

والتجريح لشخصياتهم، واستخدموا في ذلك أقبح الأوصاف وأقذع الألفاظ مما يعف اللسان عن ذكره. فاتهموا الصحابة بأنهم تآمروا على إبعاد علي عن الخلافة بل وتآمروا على قتله والتخلص منه، وأنهم حاربوا فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكادوا يحرقون عليها منزلها، وهموا بنبش قبرها بعد وفاتها ودفنها، إلى غير ذلك من الترهات والأباطيل[1]. ولا شك أن هذا كله من نسج خيال مريض سيطرت عليه فكرة معيّنة فأعمته عن كل حق وحقيقة، وأن هذه القصص والأساطير التي يرددها بعض الشيعة في هذا الصدد وليدة الصراع الذي دار بين الشيعة وخصومهم في عصور متأخرة، وعملت بعض الأيدي المتآمرة على الإسلام عملها سعياً إلى هدم الإسلام وتشويه صورة من حملوه إلى الدنيا بأسرها. إذ أن أوائل الشيعة كانوا يقدرون الصحابة حق قدرهم ويتولونهم جميعاً بل ويفضلون أبا بكر وعمر على علي، كما ورد عن شريك بن عبد الله القاضي، الذي قيل له: أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر، فقال: كل شيعة علي على هذا، هو يقول هذا على أعواد هذا المنبر «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر» أفكنا نكذبه والله ما كان كذاباً[2]. وقول علي رضي الله عنه هذا، قول مشهور تواتر. كما أورد البخاري في صحيحه من حديث محمد بن الحنفية أنه قال له يا أبت مَن خير الناس بعد رسول الله؟ فقال يا بني أو ما تعرف؟ قال لا. قال أبو بكر، قال ثم من؟ قال: ثم عمر. كما روي عنه أنه قال: لا أوتي بأحد يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حد المفتري. وقيل أنه بلغه أن ابن السوداء يسب أبا بكر وعمر فطلب قتله فهرب منه[3]. هذا بالإضافة إلى أن علياً رضي الله عنه لم يرم بالكفر حتى من

(١) انظر: الاحتجاج (الطبرسي)، ص ١٠٤ ــ ١٠٥، دلائل الإمامة (الطبري الشيعي)، ص ٤٧/٤٦. أضواء على خطوط محب الدين، ص ١٠٣/١٠٢.

(٢) النبوات (ابن تيمية)، ص ١٣٢.

(٣) نفس المرجع، ص ١٣٢. لنص حديث محمد بن الحنفية، انظر: صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب فضل أبي بكر، ج ٤، ص ١٩٥.

حاربوه وحملوا السلاح في وجهه ، من أهل الشام وغيرهم . وقد ورد أنه قال في كتابه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين : وكان بدءُ أمرنا أنّا التقينا بالقوم من أهل الشام ، والظاهر أن ربنا واحد ونبينا واحد ، ودعوتنا في الإسلام واحدة ، لا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله ، ولا يستزيدوننا والأمر واحد ، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه بُراء[1] . فأين هذه الروح العالية والنظرة السامية التي يمثلها علي رضي الله عنه ، وشريك بن عبد الله وأمثالهم ، تجاه الصحابة رضوان الله عليهم ، من تلك النظرة الضيقة والروح الخبيثة التي شاعت فيما بعد بين من ادعوا التشيع لعلي وتلبسوا به ، واتخذوه ساتراً للهجوم على أئمة الإسلام وصالحي المسلمين .

وقد كان لنظرة الشيعة ورأيهم في الصحابة أثر كبير في موقفهم من السنة النبوية ، إذ أنكر الشيعة كل الأحاديث التي وردت عن طريق هؤلاء الصحابة بل إنهم شنوا هجوماً عنيفاً على رواة الحديث كأبي هريرة ، وسمرة بن جندب ، وعروة بن الزبير ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة وغيرهم ، واتهموهم بالوضع والتزوير والكذب[2] . ولم يقبل الشيعة ، من ثم ، إلا الأحاديث الواردة عن طريق الأئمة من أهل البيت ، أو ممن نسبوهم إلى التشيع كسلمان الفارسي وعمار بن ياسر . ويقول في ذلك أحد الشيعة المعاصرون « إنَّ كل من قرأ كتب الشيعة الإمامية الاثني عشرية ومؤلفاتهم في مختلف العلوم الإسلامية كالحديث والفقه والتفسير ، وجد نقولها تكاد تنحصر عن النبي صلى الله عليه وآله عن الإمام علي (ع) عن شيعة الإمام الأربعة : سلمان الفارسي ، أبا ذر الغفاري ،

---

(١) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، ج ١٧ ، ص ١٤١ .

(٢) أضواء على خطوط محب الدين ، ص ٤٨/٦٥ ، ٦٨ ، ٩٠ ، الحكومة الإسلامية (الخميني) ، ص ٦٠ ، الشهادة (د. علي شريعتي) ، وهذا الكاتب الأخير يتهم الصحابي الجليل أبا هريرة بأنه وأمثاله سلكوا طريق ابتداع الأحاديث واختلاق المتون لإسناد وتدعيم حكم معاوية !! انظر ص ٢٦ .

عمار بن ياسر ، المقداد بن الأسود وغيرهم من الصحابة الكرام أمثال جابر بن عبد الله الأنصاري ، وابن تيهان ، وعبد الله بن مسعود ، وحذيفة بن اليمان وأبي رافع مولى النبي صلى الله عليه وسلم وغيرهم ، وعلى رأسهم حبر الأمة عبد الله بن عباس[1] » .

وقد اتسع مدلول السنة عند الشيعة ، فلم تعد تقتصر على ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل جعلوا أقوال الأئمة في مرتبة واحدة مع أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام ، «فالإمامية ــ كما يقول أحد كُتَّاب الشيعة ــ يأخذون بكل حديث يرويه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أحد أئمتهم الأطهار . ويعتقدون أن أقوال الإمام في الشريعة هي عين أقوال جدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سواء أسندها إليه أم أرسلها بدون إسناد ، وأن الكذب والخطأ محال في حقه » ، وبهذا كان عندهم من الأحاديث ما يغنيهم عن الرأي بشتى أقسامه[2] . ونتيجة لهذا لم يهتم الشيعة بصحة الإسناد وتقويم الرجال كما اهتم علماء الحديث من أهل السنة . وفي الوقت الذي رفض فيه الشيعة صحيحي البخاري ومسلم وكتب السنة المعتمدة الموثقة ، اعتمدوا في أحاديثهم على ما نقله الكليني ، الذي سبق أن أوردنا أقواله في القرآن ، واعتبروه حجة ، ويعتبر كتابه « الكافي » من أقدم كتب الشيعة في الحديث وأوثقها عندهم ، علماً بأن جُلّ ما في الكافي ، كما يقول أبو زهرة ، أخبار تنتهي عند الأئمة ، ولا يصح أن نقول أنه يذكر سنداً متصلاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يدعي أن هذه أقوال النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا على أساس أن أقوال أئمتهم هي أقوال النبي صلى الله عليه وسلم . وأنها دين الله تعالى . . . . وأكثر ما يروى في الكافي واقف عند الصادق وقليل منه ما يعلو

---

(١) أضواء على خطوط محب الدين ، ص ٦٤ .

(٢) الشيعة في الميزان (مغنية) ، ص ٨١ .

إلى أبيه الباقر وأقل من ذلك ما يعلو إلى أمير المؤمنين علي رضي الله عنه ، ونادراً ما يقف عند النبي صلى الله عليه وسلم[1] » .

كما أن هناك كتاب « من لا يحضره الفقيه » ، جمعه أبو جعفر محمد بن علي بن موسى بن بابويه ، الذي يلقبونه بالشيخ الصدوق ، وهو أيضاً من أكبر علمائهم بخراسان (توفي سنة ٣٨١ هـ) . ومن الكتب المعتمدة عند الشيعة كتابي « تهذيب الأحكام » و « الاستبصار فيما اختلف من الأخبار » لمحمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ ــ ٤٦٠ هـ)[2] . وهذه الكتب الشيعية مليئة بعشرات الألوف من الأحاديث التي لا يمكن إثبات صحتها ، بل معظمها موضوع مختلق[3] ، مثل ما سبق أن أشرنا إليه ، من الأحاديث التي اعتمدوا عليها في دفاعهم عن أحقية علي بالإمامة .

(١) الإمام الصادق (أبو زهرة) ، ص ٤٢٩ .

(٢) انظر : نفس المرجع ، ص ٤٤٨ ، ونجد تحليلاً لهذه الكتب الأربعة في صفحات ٤٢٩ ــ ٤٥٧ .

(٣) الخطوط العريضة ، ص ٤٩ .



(الفصل الخامس)

الشيعة الزيدية : (نشأتهم ، عقائدهم ، أهم فرقهم)

نشأة الزيدية :

الشيعة الزيدية هم أصحاب زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (٧٩ ـ ١٢٢ هـ/ ٦٩٨ ـ ٧٤٠ م)[1] . وقد خرج زيد على بني أمية ، ووقف من هشام بن عبد الملك (٧١ ـ ١٢٥ هـ) موقفاً شبيهاً بموقف جده الحسين (٤ ـ ٦١ هـ) مع يزيد بن معاوية (٢٥ ـ ٦٤ هـ) وقد تلقى زيد العلم في المدينة والبصرة والعراق ، وبلغ درجة عالية في العلم والفقه ، وأصبح إماماً لمذهب فقهي يتبعه الزيود[2] . ويقال بأن زيداً كان على صلة بواصل بن عطاء رأس المعتزلة[3] . وربما كان لهذا أثر على بعض آراء الزيدية الكلامية ، كما قيل أيضاً أن أبا حنيفة تتلمذ على زيد وأخذ العلم عنه وكان يتعصب له[4] . ولم يقنع زيد بهذه المكانة العلمية التي بلغها بل انصرفت جهوده إلى السياسة والخوض في غمارها . ويقال أنه دُفِعَ دَفْعاً إلى هذا ، إذ استثاره ظلم الأمويين لقومه

---

(١) المعارف (ابن قتيبة) ، ص ٢١٦ .

(٢) الإمام زيد (أبو زهرة) ، ص ٤ ـ ٥ .

(٣) طبقات المعتزلة (أحمد بن يحيى بن المرتضى) ، ص ٣٣ ، الملل والنحل (الشهرستاني) ، ج ١ ، ص ١٥٥ .

(٤) المذاهب الإسلامية (أبو زهرة) ، ص ٧٣ .

واضطهادهم لآله ، كما أنه شخصياً تعرض للمهانة والإذلال من قبل الخليفة هشام بن عبد الملك وولاته ، إذ كان هشام يخشى جانب زيد ويخاف أثره بين الشيعة ، ومن ثم عمل على اضطهاده من ناحية وإثارته من ناحية أخرى ، وذكر أن هشام قال مرة لزيد : لقد بلغني يا زيد أنك تذكر الخلافة وتتمناها ولست هناك وأنت ابن أَمَة (كانت أم زيد سندية) ، فقال له زيد : يا أمير المؤمنين لقد كان إسحاق ابن حرة وإسماعيل ابن أَمَة ، فاختص الله ولد إسماعيل فجعل منهم العرب ، فما زال ذلك ينمو حتى كان منهم أفضل الخلق أجمعين محمد عليه الصلاة والسلام[1] . ولقد أثارت مثل هذه المواقف الإمام زيد ، وشعر بأنه أُوذي في كرامته ومروءته ، وأنه لا بد له من أن يثأر لهما . والتف حوله أهل الكوفة وأعلنوا له الولاء ، بل ألحوا عليه في الخروج ووعدوه بالنصر والمؤازرة ، ولكن زيداً تردد كثيراً ، إذ تذكر التجارب التي مر بها كل من « علي » و« الحسين » رضوان الله عليهما مع الكوفيين وخذلانهم لهما . وأخيراً لم يجد زيد بدًا من الخروج فاستجاب لأهل الكوفة . وخرج على الخليفة هشام . وخاض عدة معارك ضد جيوش الخلافة كان النصر فيها حليفه . وبينما كان زيد يعد العدة لإحدى المعارك خطب أصحابه حاثاً لهم على الاستعداد للحرب فتوقفت طائفة منهم وطالبوه بأن يوضح لهم رأيه في أبي بكر وعمر اللذين ظلما جده كما يزعمون .

ولم يكن لزيد التقي العالم إلا أن يقول : إني لا أقول فيهما إلا خيراً ، وبين لهم أنه إنما خرج على بني أمية الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وظلموا أهل بيت نبيهم ، وأنه يخرج داعياً إلى كتاب الله ليُعْمَل به ، وإلى السنة أن يعمل بها ، وإلى البدع أن تطفأ وإلى الظلمة من بني أمية أن تخلع وتنفى .

ولم ينل هذا الرد استحسان الشيعة جميعاً ففارقوه ولم يبق معه إلا بضع مئات واجه بها جيش الخلافة المكون من اثني عشر ألفاً ، وكاد النصر أن يكون

---

(١) انظر نص هذه المحاورة في : مروج الذهب (المسعودي) ، ج ٣ ، ص ٢١٨ .

حليف زيد ، رغم قلة قوته ، لولا أن أصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته وهزيمة أتباعه عام ١٢٢ هـ[١] . وكان مع زيد في هذه المعارك ابنه يحيى الذي استطاع الفرار إلى خراسان ، ولكن جيوش الأمويين طاردته حتى قتل بعد ثلاث سنوات من مقتل أبيه عام ١٢٥ هـ[٢] .

ورغم هذه النهاية المريرة لزيد وابنه فقد استمر الزيدية في الخروج ، فخرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي المعروف (بالنفس الزكية) بالمدينة ضد بني العباس وقتل في ١٤ رمضان عام ١٤٥ هـ[٣] . كما خرج من بعده أخوه إبراهيم بالبصرة وقتل بها في ٢٥ ذي القعدة عام ١٤٥[٤] وخرج أخوه يحيى بن عبد الله أيام الهادي والرشيد[٥] . وخرج أيضاً الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي في خلافة الهادي وقتل عام ١٦٩ هـ[٦] . واستطاع أحد أئمة الزيدية ، ويسمى الحسن بن زيد ، ويلقب بالحسن الأطروش ، أن يؤسس دولة زيدية في أرض الديلم جنوب بحر الخزر عام ٢٥٠ هـ[٧] . كما استطاع الزيدية أيضاً إقامة دولة لهم في اليمن ، أقامها الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين من ولد القاسم الرسي حفيد إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، ذلك أن الهادي ذهب إلى اليمن عام ٢٨٠ هـ ودعا إلى مذهبه هناك ولكن لم يجد عوناً من اليمنيين ، ثم عاد إلى اليمن ثانية عام ٢٨٤ هـ وذهب إلى صعدة وكان التوفيق حليفه فبويع بالإمامة وسعى إلى إقامة حكم إسلامي ، وعمل على جمع شمل الناس على

---

(١) تاريخ الطبري ، جـ٧ ، ص ١٨٠ / ١٨١ ، الكامل (ابن الأثير) جـ٥ ، ص ٢٤٢ / ٢٤٣ .

(٢) تاريخ الطبري ، جـ٧ ، ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ ، الكامل (ابن الأثير) جـ٥ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢ .

(٣) الكامل (ابن الأثير) جـ٥ ، ص ٥٢٩ ـ ٥٥٠ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٦٠ ـ ٥٧٠ .

(٥) نفس المرجع ، جـ٦ ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٩٠ ـ ٩٤ .

(٧) أنظر ، تاريخ الفرقة الزيدية بين القرنين الثاني والثالث للهجرة (فضيلة عبد الأمير الشامي) ، ص ٢٢٩ ـ ٢٦٠ .

كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، واستطاع إقامة العدل وإصلاح أمر الناس وإقامة حدود الله . ودخل في حروب شديدة ضد القرامطة وظل يقاتلهم نحواً من خمس سنين حتى مات عام ٢٩٨ هـ ، وتولى الأمر من بعده ابنه أحمد بن يحيى وصارع القرامطة الاسماعيلية أكثر من سبع وعشرين سنة وتوفي بصعدة عام ٣٢٥ هـ[1] وأخيراً تغلب الإسماعيلية على اليمن وانتهت دولة الزيود .

وبعد حوالي ألف عام من هذا التاريخ استطاع الزيدية استرداد اليمن مرة ثانية ، إذ قاد الإمام يحيى بن منصور بن حميد الدين ثورة ضد الأتراك عام ١٣٢٢ هـ[2] . واستطاع أن يؤسس دولة زيدية استمرت حتى سبتمبر عام ١٩٦٢ م حيث قامت الثورة اليمنية ، وانتهى بذلك حكم الزيود ، ولكن لا زالت اليمن معقل الزيود ومركز ثقلهم .

عقائد الشيعة الزيدية :

يعتبر الزيدية أكثر الشيعة اعتدالا وأقربهم إلى أهل السنة والجماعة ، بل يذهب البعض إلى أن زيداً لم يكن شيعياً على الإطلاق ولم تكن حركته للشيعة وإنما هي حركة إسلامية استهدفت الخروج على الإمام الظالم من عالم من علماء المسلمين يمتاز عن غيره من العلماء بأنه من دوحة النبوة ومن أبناء علي رضي الله عنه . ويؤيد ذلك ـ كما يقول صاحب هذا الرأي أن دعوة زيد كانت إلى الكتاب والسنة وإحياء السنن وإماتة البدع ، وأنها خلت من المفاهيم الشيعية : كالنص ، والوصية ، والحق الإلهي للأئمة . بل إن من حاربوا معه لم يكونوا شيعة بالمفهوم الاصطلاحي ، بل ضم أتباعه جماعات من الفقهاء وأهل العلم والمعتزلة وجماعة من أهل الكوفة ممن أحبوا علياً[3] .

---

(١) تاريخ اليمن السياسي (محمد يحيى حداد) ، ط. ثالثة ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦ ، دار الهناء للطباعة ، ص ١٧٤ ـ ١٧٧ .

(٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه (محمد بن الحسين الديلمي) ، مقدمة الناشر ، ص و ، ز .

(٣) انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ٢ ، ص ١٥٦/١٦٠ .

ويذهب إلى نفس هذا الرأي بعض الشيعة الاثنا عشرية المعاصرين الذين نفوا انتماء الزيدية إلى الشيعة ، ويقول أحدهم في هذا الصدد : « الزيدية ليسوا من فرق الشيعة في شيء ، كما أنهم ليسوا من السنة ولا من الخوارج ، وأنهم طائفة مستقلة بين السنة والشيعة ، ليسوا من السنة ولا من الخوارج لأنهم حصروا الإمامة في ولد فاطمة وليسوا من الشيعة لأنهم لا يوجبون النص على الخليفة ، هذا إلى أنهم يأخذون فقه أبي حنيفة ، أو أن فقههم أقرب إلى الفقه الحنفي منه إلى الفقه الشيعي[1] » . هذا إضافة إلى أن الزيدية تجنبوا تكفير أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم أو سبهم خصوصاً أولئك الذين بايعهم علي واعترف بإمامتهم ، كما أنهم اتخذوا موقفاً معتدلا إلى حد ما في نظرتهم إلى أئمتهم ، ويمكن تلخيص مبادئ الزيدية فيما يأتي .

١ ــ بالنسبة لقضية الإمامة يذهب الزيدية إلى أن الإمام الذي أوصى له النبي صلى الله عليه وسلم لم يعيّنه بالاسم ، كما قالت الرافضة ، بل عرفه بالوصف . وأن الأوصاف ، التي ذكرت لم تكتمل في أحد اكتمالها في (علي) ، ومن ثم كان ينبغي أن يكون هو الإمام والخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد حدد الزيدية أوصاف الإمام بأن يكون هاشمياً ورعاً تقياً عالماً سخياً ، وأن يخرج داعياً لنفسه . واشترطوا بعد (علي) أن يكون الإمام فاطمياً (أي من ذرية فاطمة رضي الله عنها) دون غيرهم سواء كان في أولاد الحسن أم الحسين[2] . ويبين الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين (٢٤٥ ــ ٢٩٨ هـ) في إحدى رسائله رأي الزيدية حول قضية الإمامة فيقول : « يجب أن يعلم أن علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وسيد المسلمين ووصي رسول رب العالمين ووزيره وقاضي دينه وأحق الناس بمقام رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ، وأفضل الخلق بعده وأعلمهم بما جاء به مخمد وأقومهم بأمر

---

(١) الشيعة في الميزان ، ص ٣٦ .

(٢) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٥٤ ــ ١٥٥ .

الله في خلقه » ، ثم يورد ما أورده الشيعة من أدلة على أحقية علي في الإمامة ، كقوله تعالى ﴿ إنما وليكم الله ورسوله ﴾ و﴿ يأيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ وما يرتبط بها من أحاديث « الغدير » ، وما ورد من أحاديث تبين فضل علي واستدل بها الشيعة على إمامته مثل « أنت مني بمنزل هارون » . . و « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وحديث المباهلة ، الذي يبين ، في رأيه ، أحقية الحسن والحسين بالإمامة بعد والدهما ، ويقول : إن الإمامة لا تجوز إلا في ولد الحسن والحسين بتفضيل الله لهما وجعله ذلك فيهما وفي ذريتهما[1] . ثم يبين الشروط التي ينبغي توفرها في الإمام فيقول : « وإن الإمام من بعد الحسن والحسين من ذريتهما من سار سيرتهما وكان مثلهما واحتذى بحذوهما فكان ورعاً تقياً صحيحاً نقياً ، وفي أمر الله مجاهداً وفي حطام الدنيا زاهداً ، وكان فهماً لما يحتاج إليه ، عالماً بتفسير ما يرد عليه ، شجاعاً كمياً بذولا سخياً . . . فمن كان كذلك من ذرية الحسن والحسين فهو الإمام المفترض طاعته الواجبة على الأئمة نصرته »[2] . وقد خالف زيداً في شرط الخروج ودعوة الإمام لنفسه ، كثير من الشيعة ومن آل بيته وعلى رأسهم أخوه محمد الباقر . ويروى أنه قال لزيد محتجاً : « على مقتضى مذهبك والدك ليس بإمام ، فإنه لم يخرج قط ، ولا تعرض للخروج » ، وخروج زيد ربما كان تطبيقاً لهذا المبدأ الذي شرطه[3] .

٢ ــ وقد ذهب الإمام زيد إلى جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . إذ أن هذه الصفات التي اشترطت في الإمام ليست الصفات الواجب توفرها لصحة الإمامة ، بل هي صفات الإمام الكامل والذي هو أولى بالإمامة من غيره ، فإن اختارت الأمة إماماً لم يستوف بعض هذه الصفات وبايعوه ، صحت إمامته ولزمت بيعته . وبناء على هذا فقد أقر زيد إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ، ولم

---

(١) رسائل العدل والتوحيد ، جـ ٢ ، ص ٧٤ ــ ٧٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٨ ــ ٧٩ .

(٣) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٥٦ .

يقل بتكفير أحد من الصحابة ، وقال في ذلك : كان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أفضل الصحابة إلا أن الخلافة فوضت لأبي بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التي جرت في أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين (علي) عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد ، والضغائن في صدور القوم من طلب الثأر كما هي . فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن ، وبالسبق في الإسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

جـ ــ وقد جوز الزيدية البيعة لإمامين في إقليمين مختلفين كل في إقليمه الذي خرج فيه إذا ما توفرت الشروط التي شرطوها فيه أو اختير من قبل أهل الحل والعقد[2] . ويتضمن هذا الرأي أنه لا تجوز البيعة لإمامين في إقليم واحد لما يؤدي إليه من الفتنة ولما ورد في الأثر من النهي عن ذلك .

د ــ وقد أنكر جمهور الزيدية ما ذهب إليه « الروافض » من القول بعصمة الأئمة والرجعة والتقية وردوا ما استدلوا به من أحاديث وروايات في هذا الصدد وأوردوا عن أئمة أهل البيت من الروايات ما يعارض روايات الرافضة . كما أنكر جمهور الزيدية مزاعم الرافضة حول القرآن والسنة ، وتجريحهم للصحابة رضوان الله عليهم والطعن فيهم .

هـ ــ وقد كان لصلة التلمذة التي أشرنا إليها ، بين زيد وواصل بن عطاء أثر في ربط الفكر الزيدي في مسائل الاعتقاد بآراء المعتزلة ، وإلى وجود اتفاق بين الفريقين في الأصول الخمسة جميعاً . فنجد الزيدية مثلاً يتبنون فكرة المعتزلة في أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار ، وقد ذهب الشهرستاني إلى أن تلمذة زيد

---

(١) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٥٥ .

(٢) المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .

لواصل كان لها أثر أخطر من هذا ، إذ أدت إلى اقتباس زيد الاعتزال من واصل وصارت أصحابه كلهم معتزلة[1] ، وعلى كل فإن الارتباط بين المذهب الزيدي في العقائد وبين آراء المعتزلة واضح تماماً ، بل إن المعتزلة يعتبرون أعلام الزيدية من متقدمي طبقاتهم ، كما أن الكتب التي حفظت من تراث الزيدية المبكر تدل بما لا يدع مجالا للشك على مدى التوافق بين فكر الطائفتين . فرسائل القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الرسي (١٦٩ ـ ٢٤٦ هـ / ٧٨٥ ـ ٨٦٠ م) تتطابق ، حتى في عناوينها ، مع فكر المعتزلة ، فله مثلاً ، كتاب في أصول العدل والتوحيد . وكتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد المجيد ، وكتاب الأصول الخمسة . والرد على المجبرة في التوحيد . . . إلخ .

كما نجد منهجه يتفق مع منهج المعتزلة القائم على التأويل ، فالتوحيد عنده يعني تنزيه الله تعالى ، ويقوم على تأويل الآيات التي تدل على رؤية الله تعالى ، ويفسر النظر الوارد في قوله تعالى ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ بأنه يعني انتظار ثواب الله تعالى وكرامته ورحمته وما يأتيهم من خيره وفوائده[2] . ويؤول اليد بالقدرة أو النعمة ، والوجه بالذات[3] . والمجيء بأنه مجيء الملائكة ، أو مجيء آيات الله تعالى من الزلازل والأهوال[4] . ويذهب في تفسير كلام الله

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٥٥ . ويذهب المقبلي إلى أن الزيدية المتأخرين في اليمن معتزلة في كل الموارد إلا في شيء من مسائل الإمامة ، ويورد أقوال أئمة الزيدية التي تؤيد هذا ، انظر : العلم الشامخ (المقبلي) ، ص ٧ ـ ٨ . ويذكر المقبلي في عدة أماكن من كتابه هذا بعض الانحرافات المنسوبة إلى بعض الزيدية ، كالطعن في الصحابة (ص ١٧ ، ٣٢١) والقول بعصمة علي وفاطمة والحسين (ص ٣٨٦) ، وردهم لبعض الأحاديث الصحيحة (ص ٣٩٣ ـ ٢٩٣) كما ينسب لبعضهم بعض الآراء الفقهية التي يبدو فيها التعصب المذهبي (ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ، ٣٥٢) ولكن جمهور الزيدية وعلمائهم على غير هذا تماماً كما ذكرنا .

(٢) رسائل العدل والتوحيد ـ كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الله الواحد الحميد ، جـ ١ ، ص ١٠٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٠٨ ـ ١٠٩ .

تعالى ، كما ذهبت المعتزلة ، إلى أن الله أنشأ كلاماً خلقه كما شاء ، فسمعه موسى صلى الله عليه وسلم ، وفهمه . وكل مسموع من الله فهو مخلوق لأنه غير الخالق له[1] . وآراء القاسم الرسي في العدل مطابقة لآراء المعتزلة ، فيذهب إلى أن الله لم يقض أفعال الإنسان ولم يُقَدِّر ما يقع فيه من آثام ، بل أن قضاؤه لها ، النهي عنها ، والحكم على أهلها بالعقوبة والنكال في الدنيا والآخرة إلا أن يتوبوا[2] . وبناء على هذا يفسر الهدى والضلال بأن الله تعالى يضل من يشاء ، بأنه لا يضل أحداً حتى يبين لهم ما يتقون فإذا بيَّن لهم ما يتقون وما يأتون وما يذرون فأعرضوا عن الهدى وصاروا إلى الضلالة والردى أضلهم بأعمالهم الخبيثة حتى ضلوا . . . . وقد يجوز أن يكون معنى ذلك أن سماهم ضلالا وشهد عليهم بالضلال ووصفهم به من غير أن يدخلهم في الضلالة ويقرهم عليها . فإن رجعوا عن الضلالة وتابوا وصاروا إلى الهدى ، سماهم مهتدين وأزال عنهم اسم الضلالة والفسق . ولم يبتدئ ربنا جل ثناؤه أحداً بالضلالة من عباده ، ولا وصف بها أحداً من قبل أن يستحقها . فأفعال العباد ، من طاعة الله ومعصيته ، هي فعلهم ، وأن الله جل ثناؤه لم يخلق ذلك[3] » .

وفي الوعد والوعيد ، يرد القاسم الرسي على المرجئة الذين شككوا ــ كما قال ــ الخلق في وعيد الله[4] . « فكل من مات على معاصي الله مصرًّا غير تائب إلى الله ، فهو من أهل وعيد الله وعقابه . وكل من أتى كبيرة من الكبائر ، أو ترك شيئاً من الفروض المنصوصة على الاستحلال لذلك ، فهو كافر مرتد ، حكمه حكم المرتدين . ومن فعل شيئاً من ذلك اتباعاً لهواه وإيثاراً لشهواته كان فاسقاً فاجراً ما أقام على خطيئته ، فإن مات عليها غير تائب منها كان من أهل

---

(١) رسائل العدل والتوحيد ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١١ ــ ١١٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٣ ــ ١١٤ ، ١١٧ ــ ١١٨ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٠ ــ ١٢٢ .

النار خالداً فيها وبئس المصير[1] » . فلا يغتر مغتر ولا يتكل متكل على قول من يقول ، من الكاذبين على الله وعلى رسوله صلوات الله عليه وعلى أهله : أن قوماً يخرجون من النار بعد ما يدخلونها يعذبون بقدر ذنوبهم ، هيهات أبى الله جل ثناؤه ذلك ، وذلك أن الآخرة دار جزاء والدنيا دار عمل وبلواء ، فمن خرج من دار البلوى إلى دار الجزاء على طاعة الله أو معصيته فهو صائر إلى ما أعد الله له خالداً فيها أبداً[2] » . ويقول : « إن الأصل الثالث من أصولهم أن الله صادق الوعد والوعيد يجزي بمثقال ذرة خيراً ويجزي بمثقال ذرة شراً ، من صيّره إلى العذاب فهو فيه أبداً خالداً مخلداً كخلود من صيّره إلى الثواب الذي لا ينفد[3] » .

ونجد هذا الفكر نفسه يتكرر بحججه وبراهينه لدى حفيد القاسم الرسي يحيى بن الحسين ابن القاسم (٢٤٥ ــ ٢٩٨ هـ/ ٨٥٩ ــ ٩١٠ م) الملقب بالهادي إلى الحق والذي ورد ذكره من قبل ، ويتجلى التطابق بين آرائه أيضاً وآراء المعتزلة في رسائله وكتبه عن : التوحيد والعدل وتصديق الوعد والوعيد ، وإثبات النبوة والإمامة[4] .

فِرق الزيدية :

قد خلف من بعد زيد جماعات متعددة التزم بعضها بالآراء التي نادى بها زيد ، وانحرف بعضها ومال عن تلك الآراء ، ويذكر من هذه الجماعات أو

---

(١) رسائل العدل والتوحيد ، جـ ١ ، ص ١٢٧ ــ ١٢٨ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

(٣) نفس المرجع ، الأصول الخمسة ، ص ١٤٢ .

(٤) رسائل العدل والتوحيد ، جـ ٢ ، ويتضمن الرسائل التالية :
الرد على المجبرة القدرية ، كتاب فيه معرفة الله من العدل والتوحيد وتصديق الوعد والوعيد وإثبات النبوة والإمامة في النبي وآله ، كتاب الرد والاحتجاج على الحسن بن محمد بن الحنفية في الجبر وإثبات الحق ونقض قوله ، كتاب الجملة ، جملة التوحيد ، الرد على أهل الزيغ من المشبهين .

الفرق الجارودية ، والسليمانية ، والصالحية :

ــ أما الجارودية فهم أتباع أبي الجارود زياد بن المنذر الكوفي (توفي سنة ١٥٠ أو ١٦٠ هـ) . وقد وصف المُحدِّثون أبا الجارود بأنه كذاب ليس بثقة ، وأنه كان رافضياً ، يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضي الله عنهم ، ويروى في فضائل أهل البيت أشياء ما لها أصول[١] . وقال عنه ابن حجر رافضي ، كذبه يحيى بن معين[٢] . ويبدو أن أبا الجارود وقع تحت تأثير الرافضة ومن ثم جاءت آراؤه وفيها كثير من التطرف والانحراف ، فرغم قوله بأن النبي صلى الله عليه وسلم نص على (علي) بالوصف دون التسمية ، ذهب إلى أن الناس قصروا حيث لم يتعرفوا الوصف ، ولم يطلبوا الموصوف ، ونصبوا أبا بكر باختيارهم ، فكفروا بذلك[٣] . وتطرفت جماعات من الجارودية أكثر من ذلك فقالت بغيبة الأئمة ونادت برجعتهم وذهبوا إلى أن محمد بن عبد الله الإمام لم يقتل وهو بعد (حي) وسيخرج ويملأ الأرض عدلا ، وزعمت طائفة أخرى من الجارودية أن علم ولد الحسن والحسين رضي الله عنهم كعلم النبي صلى الله عليه وسلم فيحصل لهم العلم قبل التعلم فطرة وضرورة[٤] . بل ردد بعضهم عبارات شبيهة بعبارات الرافضة في هذا الصدد فقالوا مثلاً : « الحلال حلال آل محمد صلى الله عليه وسلم ، والحرام حرامهم والأحكام أحكامهم ، وعندهم جميع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم كله كاملاً عند صغيرهم وكبيرهم ، الصغير منهم والكبير في العلم سواء . لا يفضل الكبير منهم الصغير[٥] » .

ــ أما السليمانية أو الجريرية : فهم أتباع سليمان بن جرير ، وقد ذهبوا إلى

(١) تهذيب التهذيب (ابن حجر) ، جـ ٣ ، ص ٣٨٦ ــ ٣٨٧ .

(٢) تقريب التهذيب (ابن حجر) ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(٣) الملل والنحل (الشهرستاني)، جـ ١، ص ١٥٧ــ ١٥٨. الحور العين (نشوان الحميري)، ص ١٥٥ .

(٤) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٥٩ .

(٥) المقالات والفرق (سعد القمي) ، ص ٧٢ .

أن الإمامة شورى وأنها تصلح بعقد رجلين من خيار المسلمين ، وأنها قد تصلح في المفضول وإن كان الفاضل أفضل في كل حال . كما يثبتون إمامة الشيخين : أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[1] ، ولكن ذهبوا إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم ، تركوا الأصلح بتركهم مبايعة « علي » لأنه أولاهم بذلك وكان ذلك خطأ ، ولكنه لا يوجب كفراً ولا فسقاً ، إذ أنه خطأ اجتهادي . غير أن ابن جرير ذهب إلى تكفير عثمان رضي الله عنه للأحداث التي أحدثها ، كما أكفر عائشة والزبير وطلحة رضي الله عنهم ، بإقدامهم على قتال « علي » رضي الله عنه[2] . هذا في الوقت الذي رفض فيه آراء الرافضة في التقية والبداء[3] .

ـ أما الصالحية : فهم أتباع الحسن بن صالح بن حي ، وهو كوفي وُلد عام ١٠٠ وتوفي عام ١٦٠ هـ . وخَرَّج له البخاري ومسلم في باب الأدب ووثقه الجمهور وقيل إنه ثقة فقيه عابد ، ولكنه رمي بالتشيع[4] . وقد ذهب الصالحية مذهب السليمانية في الإمامة ، ولكنهم توقفوا في أمر عثمان والحكم عليه بالإيمان أو الكفر ، وقالوا إن الأخبار الواردة في حقه وكونه من المبشرين بالجنة توجب الحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة ، بينما الأحداث التي أحدثها من استهتاره بتربية بني أمية وبني مروان ، واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة توجب الحكم بكفره . فقالوا إنا تحيَّرنا في أمره وتوقفنا في حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين[5] .

وقد انقرضت هذه الفِرق المتطرفة من الزيدية أو ذابت في فِرق الشيعة الأخرى ، وما بقى من الزيود فهم متمسكون بآراء زيد المعتدلة نسبياً في الإمامة والإعتقاد ، كما يتبعون زيداً في آرائه وأحكامه الفقهية .

---

(١) مقالات الإسلاميين (الأشعري) ، ص ٦٨ .

(٢) إن هذا من الجهل الفاضح والعصبية العمياء فإن علياً الذي قاتله هؤلاء لم يحكم بكفرهم .

(٣) الملل والنحل ج ١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ . الحور العين ، ص ١٥٥ .

(٤) تقريب التهذيب (ابن حجر) ، ج ١، ص ١٦٧ . تهذيب التهذيب ج ٢ ، ص ٢٨٥ ـ ٢٨٩ .

(٥) الملل والنحل ج ١ ، ص ١٦١ . الحور العين ، ص ١٥٥ .

(الفصل السادس)

الإسماعيلية (الباطنية)*: أصولهم، عقائدهم وأهم فِرقهم

أصل الإسماعيلية:

ينتسب الإسماعيلية إلى إسماعيل[1]، الابن الأكبر لجعفر الصادق. وقد تفرعت هذه الطائفة من الشيعة الإمامية بعد موت جعفر عام ١٤٨ هـ. إذ أن من تسموا بالإسماعيلية لم يعترفوا بإمامة موسى الكاظم، الإمام السابع للاثنا

(١) يعرف إسماعيل بالأعرج، وكان أكبر إخوته وتوفي في حياة أبيه جعفر الصادق بالعريض في المدينة المنورة، ودفن بالبقيع في سنة ١٤٥ هـ، وهو الراجح، وقيل في سنة ١٣٨ هـ، انظر: عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن وطه شرف)، ص ٣٠، هامش (١).

* الباطنية: لقب عام تنطوي تحته طوائف عديدة تلتقي جميعها في تأويل النصوص الظاهرة وإثبات معان باطنة لها، وتلجأ إلى الرموز والإشارات في تفسير النصوص الدينية وإخراجها عن معانيها الظاهرة، مستهدفين بذلك هدم الدين وإبطال شعائره وأحكامه العملية. ويقول الغزالي في ذلك: «وأما الباطنية فإنما لقبوا بها لدعواهم أن لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري مجرى اللب من القشر، وأنها بصورها توهم عند الجهال الأغبياء صوراً جلية، وهي عند العقلاء والأذكياء رموز وإشارات إلى حقائق معيّنة. وأن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها مسارعاً إلى الاغترار، كان تحت الأواصر والأغلال مُعَنًّى بالأوزار والأثقال. وأرادوا بالأغلال التكليفات الشرعية، فإن من ارتقى إلى علم الباطن انحط عنه التكليف واستراح من أعبائه... إلخ. وغرضهم الأقصى إبطال الشرائع، فإنهم إذا انتزعوا عن العقائد موجب الظواهر، قدروا على الحكم بدعوى الباطن على حسب ما يوجب الانسلاخ عن قواعد الدين، إذ سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة فلا يبقى للشرع عصام يُرْجَع إليه ويُعَوَّل عليه». انظر: فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ١٢/١١، وقد أدرك مؤرخو

عشرية ، وساقوا الإمامة بدلا عنه إلى إسماعيل أو ابنه محمد . وقد اختلف الشيعة أنفسهم في الأسباب التي دعت بجعفر الصادق إلى تحويل الإمامة من ابنه إسماعيل إلى ابنه الآخر موسى : فهناك من يذهب إلى أن جعفراً قد تبين له

الفرق الإسلامية الارتباط الفكري والحركي بين هذه الحركات الباطنية ، ومن ثم اعتبروها واجهات مختلفة لمذهب واحد . فابن الجوزي يقول عن القرامطة : « وأما ألقابهم فإنهم يسمون الإسماعيلية والباطنية والقرامطة والخُرّمية والبابكية والمُحَمِّرة والسبعية والتعليمية » . انظر : القرامطة (ابن الجوزي) ص ٣٥ ، ويورد الغزالي قبله نفس هذا الرأي ، فيقول عن ألقابهم التي تداولتها الألسنة على اختلاف الأعصار والأزمنة وهي عشرة ألقاب : الباطنية والقرامطة والقرمطية والخُرَّمية والخُرَّمْدينية والإسماعيلية والسبعية والبابكية والمُحَمِّرة والتعليمية ولكل لقب سبب . . إلخ » . فضائح الباطنية ، ص ١١ ، ويرى الشهرستاني أن أشهر ألقابهم الباطنية ، وإنما لزمهم هذا اللقب لحكمهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلاً ، ولهم ألقاب كثيرة سوى هذا على لسان قوم قوم . فبالعراق يسمون الباطنية والقرامطة والمزدكية وبخراسان : التعليمية والملحدة » ، الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٢ ، فالإسماعيلية إذن سموا بالباطنية لارتباطهم بالتيار الباطني العام القائم على فكرة الظاهر والباطن ، ولأنه في ظل الحركة الإسماعيلية نمت وفرخت العديد من الحركات الباطنية ، كالقرامطة والأغاخانية والدروز والبهرة . . . إلخ .

وقد صور محمد زاهد الكوثري واجهات هذا التيار الباطني على اختلاف البلاد والأمصار فقال : « ولمذهب هؤلاء ألقاب على اختلاف البلدان ، أشهرها الباطنية لزعمهم أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلاً . . انسلاخاً من الدين . ويعرفون في العراق باسم القرامطة ، جمع قرمطي ، نسبة إلى قرمط ، وباسم المزدقية (المزدكية) أيضاً بالنظر إلى أنهم يدينون بدين الاشتراك في الابضاع والأموال الذي ابتدعه مزدق (مزدك) في عهد قباذ الساساني . ويسمون في خراسان بالتعليمية والملاحدة والميمونية نسبة إلى ميمون أخي قرمط السابق ذكره دون ميمون بن ديصان لأنه ليس بفرع بل هو أصل البلاء كله . ويدعون في مصر بالعبيدية نسبة إلى عبيد الله المعروف . وفي الشام بالنصيرية والدروز والتيامنة ، وفي فلسطين بالبهائية ، وفي الهند بالبهرة والإسماعيلية ، وفي اليمن باليامية نسبة إلى القبيلة المعروفة ، وفي بلاد الأكراد بالبكداشية والقزلباشية ، على اختلاف منازعهم . وفي بلاد العجم بالبابية ، ولهم فروع إلى يومنا هذا تلبس لكل قرن لبوسه ، وتظهر لكل قوم بمظهر تقضي به البيئة . وقدماؤهم كانوا يسمون أنفسهم بالإسماعيلية باعتبار تميزهم عن فرق الشيعة بهذا الاسم » . انظر : كشف أسرار الباطنية (محمد بن مالك الحمادي) ، ص ٨ .

بعد أن عقد البيعة لإسماعيل ، أنه لم يكن بالرجل الذي يصلح لتولي الإمامة من بعده ، إما لسلوكه الأخلاقي لإدمانه الخمر وولعه بالنساء أو لارتباطه ببعض المذاهب المنحرفة والدعوات المتطرفة كالخطابية[1] ، التي ادعى أتباعها ألوهية جعفر بن محمد كما سبق أن أشرنا . وقد أنكر الإسماعيلية فيما بعد هذه التهمة وما بُنِيَ عليها من رأي ، وقالوا إنها لو ثبتت فإنها لا تفسد العصمة ولا تسقط حق من مارسها في الإمامة ، بل يمكن أن تؤول في إطار المفهوم العام لعصمة الأئمة ، ومن ثم تمسك الإسماعيلية بإمامة إسماعيل واعتبروه الإمام المشروع بعد جعفر . وهناك رواية تذهب إلى أن إسماعيل توفي في حياة أبيه ، ومن ثم نقلت الإمامة إلى أخيه موسى . وقد رفض الإسماعيلية هذا الزعم منكرين وفاة إسماعيل قبل أبيه ، وقالوا حتى لو ثبتت وفاة إسماعيل قبل أبيه ، فإن الإمامة لا ينبغي أن تنتقل إلى أخيه ، بل ينبغي أن تذهب إلى ولده محمد ، لأن الإمامة لا تكون إلا في أعقاب الأئمة وأولادهم وغير جائز أن تنتقل من أخ إلى أخيه إلا في حالة واحدة هي حالة الحسن والحسين ، واستشهدوا لهذا بالآية الكريمة ﴿ وجعلها كلمة باقية في عقبه ﴾[2] ، مفسرين الكلمة بأنها تعني الإمامة . ورواية ثالثة يرويها الإسماعيلية ويدافعون عنها ، تذهب إلى أنَّ إسماعيل لم يمت في حياة أبيه ، بل أطلق أبوه خبر وفاته وأثبتها بوثائق مكتوبة ، تقيةً ، وخوفاً على حياة ابنه من العباسيين الذين كانوا يلاحقون أهل البيت ويضطهدونهم . ويزعم هؤلاء أن إسماعيل رؤي بالبصرة بعد وفاة أبيه ومن ثم لا مبرر للقول بسقوط الإمامة عنه[3] .

ولم تختلف الآراء وتتعدد حول هذه القضية فحسب ، بل إننا نجد

---

(١) انظر : عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن) ص ٣٤/٣٣ ، أصول الإسماعيلية (برنارد لويس) ، ص ٧٨/٧٠ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية ٢٨ .

(٣) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين) ، ص ١٣/١١ .

اضطراباً في الرأي ، واختلافاً في وجهات النظر حول أشياء عدة تتصل بتاريخ طائفة الإسماعيلية وبداية تكونها ، وحقيقتها ، والأهداف التي ترمي إليها . ذلك أنه لم يرد في التاريخ ما يحدد كيف بدأت الدعوة إلى إمامة إسماعيل ومن الذين تبنوا هذه الدعوة . ويقال إنَّ هذه الدعوة الإسماعيلية بدأت في أحضان الخطابية ، الذين سبق أن أشرنا إلى اتهام إسماعيل بالارتباط بهم ، وأنهم هم الذين نادوا بإمامته ، وأغروا ابنه محمداً بالدعوة لنفسه بعد أبيه ، كما ذكر أيضاً أن محمد بن إسماعيل قد اضطر إلى الهجرة من المدينة إلى خوزستان ثم إلى بلاد الديلم[1] . وأنَّ أخباره قد انقطعت في تلك النواحي ولم يسمع عنه شيء . بل لم يسمع شيء عن ما يسمى بالإسماعيلية حتى أواخر القرن الثالث للهجرة ، حيث ظهر القرامطة يدعون إلى أئمتهم ، كما تنوقلت الأخبار ، عن أن أسرة محمد بن إسماعيل وفدت على بلاد الشام واستقرت في مدينة سلمية بالقرب من حمص . . السورية ، وكانوا متسترين في هيئة تجار ، ومن هناك بدأوا يرسلون دعاتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي يبشرون بقرب ظهور « المهدي المنتظر » من نسل إسماعيل بن جعفر[2] .

وقد أطلق مؤرخو الإسماعيلية على هذه الفترة الغامضة من تاريخهم « دور الستر » ويستمر هذا الدور حتى ظهور الدولة الفاطمية التي تولى فيها الأمر أئمة يَدَّعُون ، الانتساب إلى « محمد بن إسماعيل » . ولكن روايات المؤرخين عن دور الستر هذا غامضة ومضطربة وتبدو الأحداث فيها مختلفة ومشوشة ، بل إن

---

(١) يقال أن محمد بن إسماعيل استقر في قرية من قرى الري تسمى سمحلا ، ثم نسبت إليه فيما بعد وسميت بمحمد أباد ، كما قيل أن الذي دفعه إلى الهجرة عدة أسباب من بينها المراقبة الشديدة التي فرضت عليه من عيون الخليفة هارون الرشيد ، فآثر الهجرة تفلتاً من هذه المراقبة ، انظر : نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٨٢ وما بعدها ، عبيد الله المهدي ، ص ٣٨/٣٧ .

(٢) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين) ، ص ١٥/٤ .

الروايات اختلفت اختلافاً بيّناً حول عدد أئمة هذه الفترة وأسمائهم ، فذهب بعضهم إلى أنهم ثلاثة ، وقال آخرون بأنهم خمسة وبلغ بهم فريق آخر إلى سبعة أئمة .

وقد أثار هذا الاضطراب والغموض كثيراً من الشكوك حول بداية هذه الدعوة من ناحية ، وحول الأئمة القائمين بأمرها ومدى ارتباطهم بإسماعيل بن جعفر وارتباط الأئمة الفاطميين بهم من ناحية أخرى .

وأمام انعدام مصادر تاريخية موثوق بها عن هذه الفترة قدمت العديد من النظريات والآراء حول هذه القضايا ليس هناك ما يرجح إحداها على الأخرى ، ومن بين هذه الآراء حول بداية ظهور الإسماعيلية ، ما ذهب إليه أحد دارسي الإسماعيلية ، من احتمال أن يكون بعض الإمامية الاثنا عشرية هم الذين دفعوا هذه الدعوة الإسماعيلية إلى الظهور لا سيما وأن ظهورها تزامن مع اختفاء آخر إمام من أئمتهم (٢٦٠ هـ) فأدى هذا الاختفاء أو الغيبة إلى أن يتجه الاثنا عشرية إلى فرع إسماعيل فيعترفوا بأئمتهم ويدعون لهم[١] . وإلى مثل هذا الرأي يذهب حسن إبراهيم حسن ، الذي يرى أن الإمامية الاثنا عشرية ملوا عودة الإمام الثاني عشر ، فعملوا على تحقيق آمالهم في ظل إمام الإسماعيلية المستور الذي يترقب الفرص المواتية لكي يظهر للناس ويملأ الأرض عدلا ، ويؤثرون ذلك على انتظار الإمام الثاني عشر الذي طالت غيبته وغدا ظهوره في نظرهم أمراً بعيد الوقوع[٢] . وهذا قد يكون صحيحاً في وقت متأخر عن القرن الثالث الهجري ، وبعد أن طالت الغيبة وقنط البعض من الانتظار ، قد يكون بعض الإمامية الاثنا عشرية انضم إلى الاسماعيلية ودعم حركتهم مفضلاً لإمام حي يعمل للدنيا ، عن إمام مخفي في سرداب ، كما يقول النشار[٣] . ولكن لا يتوقع

---

(١) طائفة الإسماعيلية ، ص ٢١ .

(٢) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إبراهيم حسن) ، ص ٣٧/٣٦ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ ٢ ، ص ٣٦٣ .

أن يكون هذا التحول قد حدث في بداية الدعوة الإسماعيلية التي أخذت وقتاً طويلاً تعمل في الكتمان والسر . والذي يظهر من استقراء ما ورد عن الحركة الإسماعيلية ، أن هذه الدعوة لها جذور عميقة تمثلت في الحركات الباطنية ابتداء من الخطابية ، وما شابهها من حركات هدامة كالبابكية ، والتي ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني ، والنصف الأول من القرن الثالث للهجرة[1] . وقد اتخذت هذه الحركات من التشيع ستاراً جَمَّعت من خلفه قواها للهجوم على الإسلام ، ثم ظهرت على حقيقتها في حركات القرامطة وابن حوشب باليمن ، وأخيراً في الدولة الفاطمية (أو العبيدية) . وهذا التفسير قد يوضح لنا الارتباط بين هذه الحركات جميعها على اختلاف أسمائها ، والتقائها جميعاً في الغاية والهدف والأسلوب والمنهج .

أما أئمة الإسماعيلية فقد أثيرت شكوك كثيرة حولهم وحول مدى ارتباطهم بإسماعيل بن جعفر ، ومما أكد هذه الشكوك ، ما أورده بعض المؤرخين من أنَّ محمد بن إسماعيل لم يعقب ولم يخلف ابناً . وعليه فإن دعوى عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية أنه من نسل إسماعيل يعتبرها البعض دعوى زائفة . ولحل هذا المشكل ، والكشف عن هوية عبيد الله المهدي وبيان كيف انتقلت إليه الإمامة من محمد بن إسماعيل ، قدمت العديد من النظريات من بينها : أن عبيد الله المهدي ابن لرجل يهودي كان حداداً « بسلمية » وترملت أمه فتزوجها أحد الأشراف العلويين وربى هذا الغلام ، فلما كبر ادعى لنفسه نسباً علوياً ودعا الناس إليه[2] .

وإذا استبعدنا هذا الرأي على أساس أنه محاولة لتجريح « الفاطميين » فإن

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٢٨٢/٢٨٥ .

(٢) وممن ذهب إلى هذا الرأي الشريف العلوي محسن محمد بن علي بن الحسن بن أحمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وتبعه الباقلاني ، وابن خلكان والذهبي في تاريخ الإسلام وغيرهم .

هناك رأياً آخر يبدو فيه كثير من الصدق وأوجه الصحة إذ أنه يحاول ربط الإسماعيلية بالحركات الباطنية نسباً وفكراً ، ويستند إلى رواية تذهب إلى أن عبيد الله المهدي من نسل ميمون بن ديصان القداح ، الذي كان مولى لجعفر الصادق ، وكان على صلة ما ـ كما كان إسماعيل بن جعفر ـ بالخطابية . وتقول هذه الرواية إن الذي تولى الأمر بعد ميمون ابنه عبد الله الذي ادعى النبوة وكان له نشاط واسع ودعاة منتشرون في فارس وأنحاء البصرة وخراسان وكان هو نفسه يتنقل من مكان إلى آخر حتى استقر به المقام في « سلمية » ، ومنها بث بعض دعاته إلى الكوفة حيث وجدت دعوته تربة صالحة إذ تبناها حمدان قرمط ونمت وأثمرت حركة القرامطة . وكان عبد الله بن ميمون القداح يدعو للإمام المستور من نسل إسماعيل ، ولما توفي خلفه في الدعوة ابنه محمد بن عبد الله ، وبعد وفاة محمد حدث اختلاف حول من يلي الأمر بعده ، وانتهى بأن تولى الأمر سعيد بن الحسن بن عبد الله بن ميمون ، حفيد عبد الله بن ميمون القداح . وسعيد هذا هو الذي تقمص شخصية عبيد الله المهدي وأطلقها على نفسه وادعى الانتساب إلى محمد بن إسماعيل وانتقل من سلمية إلى اليمن ومنها إلى مصر وشمال إفريقية حيث سبقته الدعوة هناك ، ونجح في تأسيس الدولة الفاطمية في واقع الأمر . وهذه الرواية تكشف أنَّ الأيدي الخفية التي أظهرت القرامطة والفاطميين وغيرهم من الحركات الباطنية آنذاك تتصل جميعها بشخصية عبد الله بن ميمون القداح . وبناء على هذا الرأي فإن أئمة الدولة « الفاطمية » ينحدرون من سلالة ميمون القداح ، وأنه لا صلة لهم بمحمد بن إسماعيل ونسل فاطمة ، وينبغي من ثم تسمية هذه الدولة بالدولة العبيدية نسبة إلى مؤسسها عبيد الله المهدي ، بدلا من تسميتها بالدولة الفاطمية[1] .

وفي مقابل هذا التفسير وما بني عليه من نتائج ، يذهب رأي آخر إلى الإقرار بأن عبيد الله المهدي من نسل ميمون القداح وأنه لا صلة له بسلالة

---

(١) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إبراهيم حسن) ، ص ٥٩/٦٥ .

محمد بن إسماعيل ، ولكن من أتى بعده من الخلفاء ينتمون إلى سلالة محمد بن إسماعيل . ويحاول أصحاب هذا الرأي إثبات ذلك في ضوء نظريات الإسماعيلية حول التبني الروحي ، ومبدأ الإمام المستقر والمستودع[1] . إذ أن الإسماعيلية يؤمنون بمبدأ التبني الروحي ، وحينما يقولون إن فلاناً بن فلان يقصدون بُنوته الروحية لا الجسمانية ، كما يقولون أن فلاناً أبو فلان ويقصدون الناحية الروحانية . وعليه فإن انتماء أبناء ميمون القداح ومنهم عبيد الله المهدي إلى بيت إسماعيل إنما هو انتماء روحي . كما يعتقد الإسماعيلية أيضاً أن هناك أئمة استيداع يقومون بحمل الوديعة (الإمامة) دون نقلها إلى سواهم من سلالتهم ويميزون بين الإمام المستودع الذي يتسلم الإمامة لظروف استثنائية ولا يحق له توريثها لأحد من ولده ، وبين الإمام المستقر الذي له الحق بتوريث الإمامة لولده وصاحب النص على الإمام الذي يأتي بعده[2] . وبناء على هذه النظرية ، فإن ميمون القداح وسلالته من بعده كانوا أئمة استيداع فكان سعيد بن الحسين إماماً مستودعاً حمل الوديعة من الإمام الحسين ليحفظها ثم ينقلها إلى ابنه القائم[3] . وتؤيد الكتب الباطنية الإسماعيلية هذا الرأي إذ تذهب إلى أن عبيد الله المهدي لم يكن الإمام المستور الحسين بن أحمد ، كما لم يكن القائم بأمر الله ابناً لعبيد الله المهدي ، وإنما كان ابن الإمام المستور الحسين بن أحمد وأن المهدي حمل الوديعة (الإمامة) من الإمام الحسين بن أحمد وردها عند وفاته إلى ابنه القائم أول خليفة فاطمي من سلالة علي الحقيقيين ، ويقول صاحب كتاب « غاية المواليد » أنه لما ظهر النور باليمن وبلاد المغرب ، سار ولي الله في أرضه علي بن الحسين صلوات الله عليه !! يريد بلاد المغرب حتى كان

---

(١) أصول الإسماعيلية (برنارد لويس) ، ص ٨٦ وما بعدها .

(٢) كتاب الينابيع (أبو يعقوب السجستاني) ، مقدمة ، ص ٢٥ .

(٣) عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن) ص ٨١ ، أصول الإسماعيلية (لويس) ص ٩٣/٩٩ .

في بعض الطريق ، فأظهر الغيبة واستخلف حجته سعيداً الملقب بالمهدي سلام الله عليه . . فلما حضرت المهدي النقلة سلم الوديعة إلى مستقرها ، وتسلمها محمد بن علي القائم بأمر الله تعالى وجرت الإمامة في عقبه[1] » . وهذا التفسير يحل مشكلة نسب الفاطميين ويثبت أن أئمة الدولة الفاطمية علويون نسباً ما عدا مؤسس الدولة عبيد الله المهدي فإنه ينتمي إلى سلالة ميمون القداح[2] . وعلى فرض صحة هذا التفسير فإنه يتضمن أن سلالة ميمون القداح كانت وراء الحركة التي أدت إلى ظهور الدولة الفاطمية .

عقائد الإسماعيلية (الباطنية) :

تضم الشيعة الإسماعيلية ، كما سبق أن رأينا طوائف متعددة وجماعات مختلفة تلتقي جميعها في منهجها الباطني وتختلف بعد ذلك قرباً وبعداً ، لا من التصور الإسلامي الصحيح ، بل من التيار الشيعي العام . وتعتبر الحركات التي انضوت تحت لواء الإسماعيلية امتداداً فكرياً منظماً للحركات الشيعية الغالية التي سبق ذكرها ، وتهدف الحركات الإسماعيلية ، كما سعت الحركات الغالية إلى إبطال العقيدة الإسلامية وإلى إبطال الشرع وهدم أحكامه . وقد تبنت هذه الفرق الباطنية بعض مبادئ الفلسفة اليونانية واستفادت من بعض المذاهب

---

(١) غاية المواليد من المنتخب ، ص ٣٧ ، نقلاً عن (عبيد الله المهدي) ، ص ٨٢ .

(٢) عبيد الله المهدي ، ص ١٦٩ ، في مقال جيد بعنوان : « قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي » أورد د . عبد الحليم عويس معظم الآراء المتعارضة حول نسب الفاطميين . . ورغم أنه رفض ربط الفاطميين باليهود أو النصارى فإنه ذهب إلى أنهم قرامطة مشعوذون ركبوا الدعوة إلى أهل البيت للوصول إلى الحكم وتجاهل الرأي الذي يحاول حل المشكلة في ضوء نظرية الشيعة عن الإمام المستودع والمستقر وفكرة التبني الروحي . . انظر مجلة كلية العلوم الاجتماعية (جامعة الإمام) العدد رقم ٦ (١٤٠٢/١٩٨٢) ، ص ١٣٧/١٨٩ .

والنحل الشرقية ، وحاولت مزج هذه المبادئ والآراء ببعض التصورات الإسلامية للوجود والألوهية ، وربطت هذا كله بنظرية الإمامة عند الشيعة . وقد نبه الشهرستاني من قبل إلى هذا الأثر الفلسفي عند الباطنية فقال : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج[1] » . وأكد الغزالي أيضاً أن آراء الباطنية في الإلهيات مسترقة من الثنوية والمجوس في القول بإلهين ، ومن كلام الفلاسفة في المبدأ الأول ، وأن مذاهبهم في النبوات مستخرجة من مذاهب الفلاسفة في النبوات مع تحريف وتغيير ، وأن مذهبهم في المعاد موافق لآراء الثنوية والفلاسفة في الباطن وللروافض والشيعة في الظاهر[2] .

وتؤكد الدراسات الحديثة للفكر الإسماعيلي الباطني ما ذهب إليه الشهرستاني والغزالي ، إذ يذهب د . النشار في دراساته للشيعة الإسماعيلية إلى القول بأن أحد مصادر الإسماعيلية الرئيسية ، الأفلاطونية المحدثة ، والفيثاغورية المحدثة ، وأن الإسماعيلية أخذت مبادئها وعقائدها من الفلسفة اليونانية كما صورها المسلمون مزيجاً من فلسفات أفلوطين وأرسطو والفيثاغورية الجديدة وعقائد مسيحية ويهودية إضافة إلى بعض العناصر المجوسية[3] .

ويظهر هذا الأثر التلفيقي واضحاً في رسائل إخوان الصفاء التي أثبت البحث الحديث أنها إسماعيلية مصدراً وغاية ، وباطنية فكراً ومنهجاً[4] . كما

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٣/١٩٢ .

(٢) فضائح الباطنية ، (الغزالي) ، ص ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٦ .

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) جـ ٢ ، ص ٤١٦ .

(٤) تضم رسائل إخوان الصفاء ألواناً عديدةً من العلوم والمعارف كاللغة والحساب والهندسة والجغرافيا والكيمياء والموسيقى إلى جانب الأبحاث الطبيعية والإلهية وأبحاث حول النفس والوحي والرؤى وغيرها من الموضوعات والعلوم . ويذهب كتاب هذه الرسائل إلى أن الشريعة الإسلامية قد دنست بالجهالات واختلطت بالضلالات وأنه لا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، كما ذهبوا إلى أنه متى

انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . إخبار العلماء بأخبار الحكماء (القفطي) ص ٨٣ ــ ٨٤ . إلى غير ذلك من الآراء التي تحمل طابعاً باطنياً يهدف إلى هدم الشرع والتحلل من أحكامه واستبدال الإسلام بدين جديد مستمد من مصادر غنوصية وفلسفات وثنية وديانات ومذاهب مختلفة .

وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نسبة هذه الرسائل إلى أشخاص ظهروا خلال القرن الرابع الهجري كزيد بن رفاعة ، وأبي سليمان محمد بن أبي معشر البستي ، وأبي الحسن علي ابن هارون الزنجاني ، وأبي أحمد المهرجاني ، والعوفي وغيرهم ، وهؤلاء أشخاص مجهولون لا تعرف هويتهم ولا مذاهبهم ، الأمر الذي حدا بالباحثين المعاصرين إلى محاولة استكشاف حقيقة مؤلفي هذه الرسائل نفسها . وقد لاحظ معظم الدارسين أن هناك ارتباطاً ما بين كتّاب هذه الرسائل ودوائر الشيعة الإسماعيلية : راجع مثلاً إخوان الصفاء (عمر فروخ) ، وإخوان الصفاء (عمر الدسوقي) . كما أثبت الكاتب الإسماعيلي عارف تامر ، في كتابه (حقيقة إخوان الصفاء وخلان الوفاء) ، بما لا يدع مجالا للشك ، أن هذه الرسائل هي إنتاج إسماعيلي ، وأن إخوان الصفاء ينتمون إلى طائفة الإسماعيلية ، بل إنهم أول من وضع الفلسفة الإسماعيلية وركز دعائمها . وقد قارن تامر ، ما ورد في هذه الرسائل بما عرف من مصادر إسماعيلية ، كدعائم الإسلام ، للقاضي الإسماعيلي الفقيه النعمان ابن حيون ، وكتابات دعاة الإسماعيلية ، كالكرماني ، والسجستاني والمؤيد في الدين الشيرازي ، فوجد توافقاً وتطابقاً بين هذه المصادر الإسماعيلية ، ورسائل إخوان الصفاء في أسلوب المخاطبة ومنهج الدعوة ، وفي العبارات والألفاظ ، والتبشير بظهور إمام فاطمي ، وفي فلسفة الوجود ونظرية الخلق ، وفي التأويل والقول بالظاهر والباطن ، وغيرها من المعتقدات والآراء الإسماعيلية .

ومن قبل ذهب البعض ، كما يقول القفطي ، إلى أن هذه الرسائل وضعها بعض أئمة الإسماعيلية مع اختلافهم في اسمه (أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٨٢ ــ ٨٣) . وقد ذكر البعض اسم الإمام الفاطمي الإسماعيلي المستور أحمد بن عبد الله ، كمؤلف لهذه الرسائل أو كراع لتأليفها وأمر به . ويميل د . النشار إلى هذا الرأي إذ يقرر أن الدلائل قاطعة بأن رسائل إخوان الصفاء عمل إسماعيلي بحت ، وكان يُتَّخذ أداةً لنشر الدعوة الإسماعيلية (نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، جـ٢ ، ص ٣٩٢) ويقول أيضاً : « لا شك أن رسائل إخوان الصفاء هي إسماعيلية سواء وضعها الإمام أحمد نفسه أم أتباعه ، تسودها الاصطلاحات الإسماعيلية وتنتشر فيها الآراء الباطنية مما يتسق دائماً مع المذهب الإسماعيلي » (نشأة الفكر الفلسفي ، جـ٢ ، ص ٣٩٠) . ويقرر النشار ، ويتفق في هذا مع عارف تامر ، أن الدلائل كلها تشير إلى أن وضع هذه الرسائل كان في عهد الإمام أحمد سواء

يظهر بجلاء أيضاً في كتب الإسماعيلية الخالصة «كراحة العقل» للداعي الإسماعيلي أحمد بن حميد الدين الكرماني (توفي بعد عام ٤٠٨ هـ) و«تحفة المستجيبين» و«الينابيع» لأبي يعقوب السجستاني (٣٣١/٢٧١ هـ) و«الأصول والأحكام» للداعي الإسماعيلي ابن زهرة (توفي سنة ٤٩٧ هـ، وفي كتابات أبي سليمان السجستاني المنطقي، والمؤيد في الدين الشيرازي وغيرهم من دعاة المذهب الإسماعيلي.

وفي هذه الآثار جميعاً يتجلى الأثر الباطني، ومنها جميعاً يمكن استخلاص تصور واضح لعقائد الإسماعيلية ومبادئهم، والمتمثلة في آرائهم حول الوجود والألوهية وصفات الله تعالى وعلاقته بالكائنات وتصوراتهم حول الإمامة والنبوة والمعاد وغيرها من التعاليم التي دانوا بها.

أما آراؤهم حول ذات الله تعالى وصفاته فمستمدة ــ كما قال الغزالي ــ من آراء الفلاسفة، إذ أنهم تبنوا نظرية الفيض الأفلوطينية التي رتبت الوجود ترتيباً يقف في أوله المبدأ الأول (الله سبحانه وتعالى) ثم العقل الكلي، ثم النفس الكلية، ثم المادة، وذهبوا إلى أن العلاقة بين هذه الموجودات وبين الله سبحانه وتعالى، ليست علاقة خلق أو إيجاد من الله بل علاقة فيض أو صدور، بمعنى أن المبد الأول فاض منه العقل الكلي، ومن العقل الكلي صدرت النفس الكلية، ثم العالم المادي من النفس الكلية[1]». وقد أخذ الإسماعيلية بنفس

أكانت من وضعه أو بتوجيهه وأنها اعتبرت قرآناً بعد القرآن، أو هي قرآن العلم، كما أن القرآن قرآن الوحي، أو قرآن الإمامة وذلك قرآن النبوة». (نشأة الفكر الفلسفي جـ٢، ص ٣٨٩).

وهذا يؤكد خطر هذه الرسائل وأثرها المدمر في مختلف مناحي الفكر الإسلامي، ويكشف خطر الأيدي الخفية التي صاغتها وجهدت في نشرها وتطبيق تعاليمها. أنظر أخبار العلماء (القفطي) ص ٨٤ ــ ٨٥.

(١) فضائح الباطنية (الغزالي)، ص ٤٠/٣٨. تاريخ الفلسفة اليونانية (يوسف كرم)، (ط. رابعة، ١٩٥٨/١٣٧٨ م، ص ٢٩٦/٢٨٨.

هذه النظرية مع اختلاف طفيف في العبارات والمصطلحات ، ورغم قولهم بوجود الله تعالى ، فإنهم ذهبوا إلى تجريده تعالى من كل صفة ونعت مما يمكن أن يكون له صلة بالكائنات أو صلة له بها ، وبلغوا حداً نفوا فيه إطلاق كلمة « وجود » عليه تعالى ، زاعمين بذلك أنهم ينزهون الله تنزيهاً مطلقاً . إذ أن الوصف في زعمهم يقتضي التشبيه والشركة معه تعالى ، فقالوا : إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ولا عالم ولا جاهل ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك في جميع الصفات فإن الإثبات الحقيقي يقتضي شركة بينه تعالى وبين سائر الموجودات في الجهة التي أطلقنا عليه ، وذلك تشبيه ، فلم يكن الحكم بالإثبات المطلق والنفي المطلق ، بل هو إله المتقابلين وخالق المتخاصمين ، والحاكم بين المتضادين ، ونقلوا في هذا نصاً عن محمد بن علي (الباقر) أنه قال : « لما وهب الله العلم للعالمين قيل هو عالم ، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر — فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم أو وصف بالعلم والقدرة » . قالوا وكذلك نقول في القدم أنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته والمحدث خلقه وفطرته[1] » . وقد وُصف الإسماعيلية من أجل ذلك بأنهم نفاة الصفات حقيقة ، معطلة الذات عن جميع الصفات ، بل يذهب الغزالي إلى أن هدفهم النهائي وغايتهم هو إنكار وجود الله تعالى ، وأنهم لجأوا إلى هذه الحيلة حتى لا يتهموا في دينهم : « إن الإسماعيلية يتطلعون في الجملة لنفي الصانع ، فإنهم لو قالوا إنه معدوم لم يقبل منهم بل منعوا الناس من تسميته موجوداً ، وهو عين النفي مع تغيير العبارة لكنهم تحذقوا فسموا هذا النفي تنزيهاً ، وسموا مناقضه تشبيهاً حتى تميل القلوب إلى قبوله[2] » .

ويبدو الأثر الأفلوطيني أكثر وضوحاً لدى الإسماعيلية في تفسيرهم لوجود المخلوقات وعلاقتها بالله تعالى إذ أنهم ذهبوا كما ذهبت الأفلوطينية إلى القول

---

(١) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٩٣ .

(٢) فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ٣٩ .

بوسائط بين الله وبين الكائنات ، وأن الله لم يخلق الأشياء خلقاً مباشراً بل إنه أبدع بالأمر العقل الأول الذي هو تام بالفعل واستشهدوا في هذا بحديث موضوع : « أول ما خلق الله العقل ، فقال له اقبل فأقبل وقال له ادبر فأدبر . . . إلخ »[1] . وأضاف الإسماعيلية إلى هذا العقل كل صفات الكمال الإلٰهية ، فهو الخالق المصور الواحد القهار ، وأنه هو الموجود الأول الأزلي ، والمبدع الأول والعقل الكلي ، وأنه هو الذي رمز إليه الله تعالى بالقلم في قوله تعالى ﴿ ن والقلم وما يسطرون ﴾[2] . وأن هذا العقل أو القلم هو الذي أبدع النفس الكلية ، ونسبة النفس هذه إلى العقل ، إما نسبة النطفة إلى تمام الخلق ، والبيض إلى الطير ، وإما نسبة الولد إلى الوالد ، والنتيجة إلى المنتج ، وإما نسبة الأنثى إلى الذكر والزوج إلى الزوج »[3] . وجعل الإسماعيلية للنفس الكلية جميع الصفات التي أضفوها على العقل الكلي ، إلا أن العقل أسبق في الوجود من النفس ومن ثم سمي بالسابق وسميت النفس بالتالي . وهذه النفس والعقل هما

---

(١) رسالة الأصول والأحكام (ابن زهرة ، الداعي الإسماعيلي حاتم بن عمران بن زهرة (توفي سنة ٤٩٧ هـ) نقلاً عن : نشأة الفكر الفلسفي (النشار) ، جـ ٢ ، ص ٤٠٩ ، حديث العقل حديث موضوع ، وقد أورده ابن الجوزي بأسانيد مختلفة ، وقال هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر : كتاب الموضوعات (أبي الفرج بن الجوزي) ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ، ط. أولى ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، جـ ١ ، ص ١٧٤ . وقد أورد السيوطي أيضاً ، في اللآلئ المصنوعة عدة روايات لهذا الحديث وبين اتفاق العلماء على أنها موضوعة ، انظر : اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (جلال الدين السيوطي ، توفي سنة ٩١١ هـ) ، دار المعرفة ، ط. ثالثة ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، جـ ١ ، ص ١٢٩ ــ ١٣٢ . وقد بين العلماء أن أحاديث العقل الموضوعة أو الضعيفة هذه قد أخرجها داود بن المحبر في كتاب العقل ونقلها غيره ، وداود هذا كذاب ، انظر : المقاصد الحسنة (السخاوي ، توفي سنة ٩٠٢ هـ) ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط. أولى ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ١١٨ ، الموضوعات (علي القاري ، توفي سنة ١٠١٤ هـ) ، حققه محمد الصباغ ، دار الأمانة ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ١٣٧ .

(٢) سورة القلم ، الآية ١ .

(٣) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

مصدر الكائنات جميعاً ، ويقول في ذلك السجزي : « العقل أول خلق ظهر من أمر الله . . . ولم يوجد البارئ في أول الخلق غير العقل وحصر في جوهره صور المبدعات كلها كي لا يذهب شيء منها . . . ويسمى أحياناً بالقلم والعرش والأول والهيولي . . . وأن النفس هي الخلق الثاني والمنبجس من الخلق الأول . . والعقل والنفس هما الأصلان إليهما مرجع الأشياء جميعها روحانياً أو جسمانياً ، وهما الهيولي والصورة[1] » . أما كيفية حدوث كائنات العالم فنتيجة لحركة النفس وتشوقها للعقل « ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة ، فحدثت الأفلاك السماوية وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها ، وتحركت حركة استقامة بتدبير النفس أيضاً ، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان[2] » . فالخالق للعالم في اعتقاد الإسماعيلية ، هو العقل الكلي والنفس الكلية ، وأن هذا الخلق يتم عن طريق الفيض أو الانبثاق . وإلى هذا ذهب إخوان الصفاء في قولهم « إعلم يا أخي أيدنا الله وإياك بروح منه أن الله تعالى لما كان تام الوجود ، كامل الفضائل ، عالماً بالكائنات قبل كونها ، وقادراً على إيجادها متى شاء ، لم يكن من الحكمة أن يحبس تلك الفضائل في ذاته فلا يجود بها ولا يفيضها ، فإذا بواجب الحكمة أفاض الجود والفضائل ، كما يفيض عن عين الشمس النور والضياء ، ودام ذلك الفيض منه متصلاً متواتراً غير منقطع[3] » . وبناء على هذه النظرية فإن الخلق قديم أزلي قدم الفيض والجود والفضل الإلهي ، وأن الكائنات تمثل جزءاً من الله تعالى ، كما أن نور الشمس وضياؤها لا يمكن فصله عنها وجوداً ولا رتبة ولا درجة .

(١) رسالة تحفة المنسجيين (أبو يعقوب السجزي) ١٤٦/١٥٥ ، نقلاً عن نشأة الفكر الفلسفي (النشار) ، جـ ٢ ، ص ٤١٣/٤١٥ .

(٢) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٣ .

(٣) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، جـ ٣ ، ص ١٩٦ .

وتبدو نظرية الفيض هذه أكثر وضوحاً لدى فيلسوف الإسماعيلية وداعيتها حميد الدين الكرماني ، الذي عرضها عرضاً جيداً في كتابه « راحة العقل » ، وهو في هذا الكتاب لا يختلف عن الفلاسفة إلا في بعض الاصطلاحات ، كاستخدامه للإبداع والاختراع والانبثاق بدلا من الفيض . أما فيما عدا هذا ، فنجد الكرماني يرتب الموجودات ترتيباً يبدأ بالموجود الأول أو العقل الأول أو المحرك الأول ، ويصفه بما وصفه به الفلاسفة من أنه عقل في ذاته وعقل لذاته ومعقول بذاته[1] . وينبعث عن هذا العقل الأول ، العقل الثاني ، ويسمى المنبعث الأول أو القلم وهو في كماله كالأول[2] . ثم يأتي المنبعث الثاني ، وهو الأول في الموجودات القائمة بالقوة ، وهو عند الكرماني الهيولي والمسماة في السُنَّة الإلٰهية باللوح . ويوجد عن العقل الأول أو المنبعث الأول ، عقول سبعة وجود كل منها عن الآخر صاعداً إلى المنبعث الأول ، كما أن كلًّا منها ساطع سار فيما وجد عن الأول من الهيولي والصورة التي منها وجود السموات والأرض وحركاتها[3] .

ويأتي العقل العاشر أو الأخير من هذه العقول ، ومقامه من عالم الجسم مقام المبدع الأول من عالم الإبداع الأول والانبعاث الأول . وهذا العقل هو العقل الفعال ، عند الكرماني . ويوازن الكرماني بين العقل الفعال وبين العقل الأول فيقول : إن العقل الأول مركز لعالم العقول إلى العقل الفعال ، والعقل الفعال عاقل للكل وهو مركز لعالم الجسم من الأجسام العالية الثابتة إلى الأجسام المستحيلة المسماة عالم الكون والفساد[4] .

وقد ربط الإسماعيلية بين فلسفتهم الوجودية هذه وبين نظريتهم في الإمامة .

---

(١) راحة العقل (حميد الدين الكرماني) ، ص ٥٩ ــ ٦٠ ، ٨٩ ــ ٩٠ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٠١ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٤ .
(٤) نفس المرجع ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ ــ ١٢٩ .

فهم يذهبون كما يذهب الشيعة جميعاً إلى القول بإمامة آل البيت . وأن سلسلة الأئمة عندهم بعد جعفر الصادق ، هم إسماعيل وسلالته من بعده ، وذهبوا ، كما ذهب الشيعة ، إلى القول بعصمة هؤلاء الأئمة ، وزادوا على ذلك بأن أسبغوا على هؤلاء الأئمة من الصفات ما جعلهم في مرتبة تعلو على البشر ، وربطوا بينهم وبين مراتب الوجود ، السابقة الذكر ، وجعلوا للإمام مرتبة النفس الكلية ، وذهبوا إلى أن نوع الإنسان يتميز عن سائر الموجودات بالاستعداد الخاص لفيض الأنوار عليه . « وإذا كان هناك عالم مادي أو جسماني يقابل العالم العلوي ، وإذا كان هناك عقل ونفس كلية في العالم العلوي فإن هناك ما يقابلهما في العالم المادي . فهناك عقل مشخص حكمه حكم الشخص الكامل البالغ ويطلق عليه الناطق وهو النبي وهو يقابل العقل الكلي ، وهناك نفس مشخصة وهو كل أيضاً ، وحكمه حكم الطفل الناقص المتوجه إلى الكمال أو حكم النطفة المتوجهة إلى التمام أو حكم الأنثى المزدوجة بالذكر ويسمونه الأساس وهو الوصي[1] » . ونجد هذا الارتباط أكثر وضوحاً لدى الكرماني ، إذ أنه يقابل مراتب الدعوة الإسماعيلية بالعقول العشرة في نظريته عن الوجود (الفيض) . فالعقل الأول يقابل الناطق ، والعقل الثاني يقابل الأساس ، والعقل الثالث يقابل الإمام ، والعقل الرابع يقابل الباب ، والعقل الخامس يقابل الحجة ، والعقل السادس يقابل داعي البلاغ ، والعقل السابع يقابل الداعي المطلق ، والعقل الثامن يقابل الداعي المحدود ، والعقل التاسع يقابل المأذون المطلق بينما العقل العاشر أو العقل الفعال يقابل المأذون المحدود ، المكاسر أو المكالب[2] . فالوصي أو الإمام ، إذن يقابل النفس الكلية ، أو العقل الثالث ، وله ما للنفس الكلية من تدبير العالم بعد الرسول الذي يقابل العقل الكلي . فالنبي في رأيهم عبارة عن شخص فاضت عليه من السابق أو العقل

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٩٣/١٩٤ .

(٢) راحة العقل (حميد الدين الكرماني) ، ص ١٣٨ .

الكلي بواسطة التالي أو النفس الكلية قوة قدسية صافية مهيأة لأن تنتقش عند الاتصال بالنفس الكلية بما فيها من الجزئيات . كما قد يتفق ذلك لبعض النفوس الزكية في المنام حتى تشاهد من مجاري الأحوال في المستقبل . ويعتقدون أن جبريل عبارة عن العقل الفائض عليه ، لا أنه شخص ينتقل من علو إلى أسفل ، أما القرآن فهو عبارة عن تعبير محمد صلى الله عليه وسلم عن المعارف التي فاضت عليه من العقل الذي هو المراد باسم جبريل ويسمى كلام الله مجازاً . ويزعمون أن هذه القوة القدسية الفائضة على النبي صلى الله عليه وسلم ، لا تستكمل في أول حلولها كما لا تستكمل النطفة في الرحم إلا بعد تسعة أشهر ، وأن كمال هذه القوة أن تنتقل من الرسول الناطق إلى الأساس الصامت (الإمام)[1] ، وأنه لا بد في كل عصر من إمام معصوم قائم بالحق يرجع إليه في تأويل الظواهر وحل إشكالات القرآن ، وأن هذا الإمام مساو للنبي في العصمة . وهكذا فإن الإمامة عند الباطنية مكملة للنبوة واستمرار لها في صورة أخرى .

وقد ربط الباطنية معتقداتهم هذه حول النبوة والإمامة بتصورهم لدورات التاريخ ومساره ، إذ ذهبوا إلى أن الحياة تسير في تجدد مستمر وأنها تنقسم إلى ست فترات أو دورات نبوية ، وكل دورة تبتدئ بظهور نبي أو ناطق ومعه أساس ، أو وصي ، وتبدأ هذه السلسلة المستمرة بآدم صاحب الدور الأول وأساسه أو وصيه شيث ، ثم نوح وأساسه ، سام ، وإبراهيم وأساسه إسماعيل ، وموسى وأساسه يوشع ، وعيسى وأساسه شمعون الصفاء ومحمد وأساسه علي ، ولأنه صاحب الدور السادس فقد نسخ محمد صلى الله عليه وسلم شريعة من قبله من النطقاء وقام بباطن شرائع من تقدم قبله . وظهور النبي السادس يعني نهاية الدائرة ، ومن بعده يأتي الأئمة يتممون شريعته ويحيون سنته . وهم أيضاً

---

(١) فضائح الباطنية ، (الغزالي) ، ص ٤٠/٤٢ .

يتتالون في دورات سباعية ، بدءاً بعلي بن أبـي طالب الذي نصبه الرسول عليـه الصلاة والسلام أساساً له وتبدأ به دورة يتعاقب فيهـا الحسـن والحسـين وعلـي زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر الصادق وتنتهي بـإسماعيل ، الإمـام السـابع للإسماعيلية ، وتبدأ الدورة الثانية أو الجديدة بمحمد بـن إسـماعيل الـذي هـو المهدي أو « إمام البعث » . ويقول الإسماعيلية إنه هو صاحب شريعة بمعنى أنـه مؤكد للشريعة السابقة ومظهر لمعانيها الباطنة وكاشف عن حقيقة التوحيد[1] .

وقد ذهب الإسماعيلية إلى أن هناك تماثلاً بين هـذه الأدوار جميعـاً ، فمـا حدث في عصر آدم عليه السلام يتـكرر في عصر إبـراهيم ونـوح ومـوسى وعيسى ومحمد ، ولذلك فإن صفات هؤلاء الأنبياء واحـدة ، بحيـث يمـكن القـول أن موسى هو آدم عصره وهو نوح عصره وهكذا . . . وبالمثل فإن الأئمة الذين خلفوا الأنبياء وحملوا لواءهم من بعد نماذج متكررة لمن سـبقهم مـن الأنبيـاء . كمـا يتفقون أيضاً في مراتبهم وصفاتهم : ونتيجة لـذلك فـإن إمـام العصر هـو وارث الأنبياء جميعاً ووارث كل من سبقه من الأئمـة . ولـذلك وصـف شـعراء الإسماعيلية أحد أئمتهم بأنه خليل الله وكليمه وأنه تجتمع فيه خصائص الأنبياء والأئمة جميعها فيقول مخاطباً هذا الإمام :

سـلام على الغـرة الـطاهرة ... وأهـلاً بـأنوارها الـزاهرة
سـلام بـدياً على آدم ... أبـي الخلـق بـاديه والحـاضرة

إلى أن يقول :

سـلام على المرتضى حيـدر ... وأبنـائه الأنجـم الـزاهرة
سـلام عليـك فمحصـولهم ... لـديك أيـا صـاحب القـاهرة[2]

---

(١) فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ٤٣ ـ ٤٤ ، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (فخر الدين الرازي) ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة طويلة قالها داعي الدعاة هبة الله بن موسى بن داود الشيرازي في مدح المعز لدين الله ، انظر : ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ، تحقيق محمد كامل حسين ، ص ٢٨٦ .

بل إن هؤلاء الأئمة وصفوا بصفات الألوهية ، ونسب إليهم القدرة المطلقة ، والوجود الأزلي السابق للكون ، ويقول أحد شعراء الإسماعيلية عن إمام من أئمتهم :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فأحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار
أنت الذي كانت تبشرنا به ... في كتبها الأحبار والأخبار[1]

ويقول آخر :

ما أنت دون ملوك العالمين سوى ... روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره ... تناهياً حاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التي سبقت ... خلق الهيولي وبسط الأرض والمدر[2]

وقد سيطرت على الباطنية فكرة الأعداد ، والتي يبدو فيها الأثر الفيثاغوري ، وحاولوا إبراز أهمية العدد سبعة الذي ترتبط به عندهم دورات الإمامة ، وأرجعوا أكثر الأمور إليه ، فقالوا : في الجسد سبع قوى فعالة جسمانية هي : الجاذبة والماسكة والهاضمة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة . وفيه أيضاً سبع قوى روحانية حساسة خفيفة لطيفة وهي : الباصرة والسامعة والذائقة والشامة

---

(١) قائل هذه الأبيات ابن هانئ الأندلسي (٣١٦/٣٦٢ هـ) انظر : ديوان ابن هانئ الأندلسي ــ دار صادر ــ بيروت ١٩٦٤ م ، ص ١٤٦ ، وكان ابن هانئ شاعراً للمعز لدين الله الذي قال فيه هذه الأبيات ويعتبر شعره مرجعاً مهماً لدراسة العقيدة الفاطمية وكل ما كان يؤمن به دعاتها من صفات علوية في الإمام من عصمة وعلم بالظاهر والباطن وأنه روح من الله ، وأنه علة الحياة وسبب الوجود ، انظر : الفن ومذاهبه في الشعر العربي (شوقي ضيف) ، دار المعارف ، مصر ، ط. رابعة ١٩٦٠ م ، ص ٤١٩ وما بعدها . انظر أيضاً ظهر الإسلام (أحمد أمين) ، جـ ٣ ، ص ١٣٨/١٤٠ .

(٢) تنسب هذه الأبيات إلى الأمير تيم بن المعز لدين الله الفاطمي في مدح أخيه العزيز بالله . . انظر : طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين) ، ص ١٥٩/١٦٠ .

واللامسة والناطقة والعاقلة ، وذهبوا إلى أن دعائم الإسلام سبع وهي : الشهادة والصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والإمامة . وهكذا سيطرت هذه الأفكار عن الأعداد على عقول الباطنية وراحوا يتصيدون الأمثلة لتأكيدها حتى أطلق عليهم اسم السبعية[1] . ونتيجة لتصور الباطنية لدورات الدهر المستمرة ، وربطهم نهاية الدور السابع بقيام القيامة ، فقد تبنوا معتقدات عن الحياة الآخرة مخالفة تماماً للعقيدة الإسلامية ، إذ ذهبوا إلى أن القيامة إنما هي رمز إلى خروج الإمام وقيام قائم الزمان ، وأن معناها انقضاء الدورة ، وتبعاً لذلك أنكروا بعث الأجساد والجنة والنار ، وقالوا إن معنى المعاد هو عود كل شيء إلى أصله ، وأن الإنسان مركب من عالم روحاني وعالم جسماني ، فالجسماني منه جسده ، وهو مركب من أخلاط أربعة هي : الصفراء والسوداء والبلغم والدم ، فينحل الجسد ويعود كل خلط إلى الطبيعة العالية ، فالصفراء تصير ناراً والسوداء تصير تراباً والدم يصير هواء والبلغم يصير ماء وهذا هو معاد الجسد . أما الروحاني وهو النفس المدركة العاقلة في الإنسان فإنها إن صفيت بالمواظبة على الطاعات وزكيت بمجانبة الهوى والشهوات وغذيت بغذاء العلوم والمعارف المتلقاة من الأئمة الهداة ، اتحدت عند مفارقة الجسم بالعالم الروحاني الذي منه انفصالها وتسعد بالعود إلى وطنها الأصلي ، ولذلك سمى رجوعاً فقيل ﴿ ارجعي إلى ربك راضية مرضية ﴾ وهي الجنة[2] .

وأخيراً فإن الإسماعيلية قد عمقوا مفهوم « الظاهر والباطن » وتوسعوا في استخدامه ، وذهبوا كما ذهب معظم الشيعة ، إلى أن التأويل الباطني من الأمور التي اختص الله بها علياً بن أبي طالب . فكما أن النبي خُص بالتنزيل ، فعلي قد خُصّ بالتأويل وأن علياً ورَّث هذا العلم الأئمة من بعده ، وهم الذين

(١) فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ٦٦ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٤/٤٥ .

يَدُلُّون الناس على المعاني الباطنة وأسرار الدين . وقد تطرف الإسماعيلية في تأويلاتهم ، فذهبت طوائف منهم إلى تأليه الأئمة وإلى طرح فرائض الشرع كما سنرى . وفسروا الصلاة بأنها الاتجاه القلبي للإمام ، وأن الصوم عبارة عن عدم إفشاء أسرار الدعوة ، والحج زيارة الإمام ، وأن الفجر هو المهدي المنتظر ، وأن الأهلة هم الأئمة ، والسماء هي الدعوة ، والملائكة هم الدعاة ، وزعمت طوائف من هؤلاء الباطنية أن جميع الأشياء التي فرضها الله على عباده وسنها نبيه صلى الله عليه وسلم ، لها ظاهر وباطن . وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر من الكتاب والسنة فأمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها ، وعليها العمل وفيها النجاة . وأن ما ظهر منها فهي التي نهى عنها ، في استعمالها الهلاك ، وهي جزء من العذاب الأدنى ، عذب الله به قوماً وأخذهم به ليشقوا بذلك إذ لم يعرفوا الحق ، ولم يقولوا به ، ولم يؤمنوا[1] » . ومن أجل ذلك دعا معظم الباطنية ، كما سنرى ، إلى إباحة المحارم والخروج على حدود الله . وزعمت القرامطة منهم ، أن الله جعل لمحمد بن إسماعيل جنة آدم ــ ومعناها عندهم ــ الإباحة للمحارم وجميع ما خلقه في الدنيا . وهذا ، في زعمهم الباطل ، معنى قول الله تعالى ﴿ فكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ يعني محمد بن إسماعيل وأباه إسماعيل . ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، موسى بن جعفر بن محمد وولده من بعده من ادعى الإمامة[2] . إلى غير ذلك من المزاعم الباطلة والتأويلات الفاسدة التي لا يقرها الشرع ولا يسندها عقل[3] .

الحركات الإسماعيلية (الباطنية) وأثرها في التاريخ الإسلامي :

ظهرت خلال التاريخ الإسلامي العديد من الحركات الإسماعيلية ، وقد

(١) كتاب المقالات والفرق (سعد القمي) ص ٨٥ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٤ .

(٣) انظر نماذج من التفسير الباطني في كتاب « التفسير والمفسرون » للشيخ محمد حسين الذهبي .

عملت هذه الحركات الباطنية المستترة بالتشيع على إثارة كثير من القلاقل والاضطرابات وبث الأفكار الباطلة والدعوات المنحرفة ، واتخذت أساليب شتى ووسائل مختلفة لهدم الإسلام .

الإسماعيلية باليمن :

ولعل أول حركة إسماعيلية كتب لها النجاح كانت ببلاد اليمن حيث استطاع أحد دعاة الإسماعيلية ويدعى الحسن بن حوشب[1] ، كوفي الأصل ويلقب بمنصور اليمن استطاع هو وداع يمني يسمى علي بن الفضل[2] ، أن يجمعا حولهما عدداً من قبائل اليمن وأن يظهرا الدعوة للإمام الإسماعيلي المنتظر بينهم ، وتأسست بذلك أول دولة إسماعيلية في التاريخ عام ٢٦٨ هـ[3] . ويقال إن ابن حوشب أظهر في أول عهده نوعاً من التقوى والورع ، وادعى الفقه واتِّبَاع مذهب أهل السنة والجماعة ، فسمع به الناس وأقبلوا عليه ، واستخدم الكثير من الحيل لكسب ثقتهم ، ولكنه لم يلبث بعد أن تمكن وقويت شوكته ، أن كشف عن حقيقته وأظهر ما كان يضمره من كفر وإلحاد ، فأظهر الدعوة إلى المهدي من آل إسماعيل وانتهى به الأمر إلى إحلال المحارم وإباحة الفاحشة

---

(١) أبو القاسم الحسن بن فرج بن حوشب بن زاذان ، كان ينسب إلى ولد مسلم بن عقيل ، وكان أبوه ممن ينتحل عقيدة الشيعة الاثني عشرية ، كشف أسرار الباطنية ، ص ٢٢ . رسالة افتتاح الدعوة (النعمان بن محمد) ، ص ٣٢ ــ ٣٨ .

(٢) علي بن الفضل الجدني ، أصله من جيشان باليمن ، وكان على مذهب الاثنا عشرية ، خرج إلى الحج وزيارة المدينة ومنها توجه إلى الكوفة لزيارة قبر الحسين بها ، وهناك وقع في براثن الدعوة الباطنية الإسماعيلية ، فتبنى مذهبهم ، ولقنوه تعاليمهم ووعدوه قرب ظهور الإمام المستور من نسل محمد بن إسماعيل وزينوا له التمهيد للدعوة والخروج إلى اليمن ، هلك عام ٣٠٣ هـ ، بعد أن استطاع الاستقلال بالملك بالمذيخرة باليمن ، انظر : كشف أسرار الباطنية ، ص ٢١/٢٣ ، بيان مذهب الباطنية ، مقدمة ص : ز .

(٣) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين) ، ص ٢٢ ، بيان مذهب الباطنية ، مقدمة : « و » ، رسالة افتتاح الدعوة (النعمان بن محمد) ، ص ٣٨ ــ ٤٢ .

لأتباعه[1] . أما علي بن الفضل فإنه انتحى ناحية أخرى من بلاد اليمن ، وأظهر أيضاً النسك والعبادة حتى أنس إليه الناس وأحبوه وافتتنوا به وقلدوه أمرهم ، وبعد أن خدعهم ولبَّس عليهم ، واشتد أمره ، ادعى النبوة وأعفى أتباعه من أداء الشعائر الإسلامية ، من صلاة وصوم وحج وأحل نكاح البنات والأخوات ، وتنسب إليه أشعار تكشف ما آل إليه أمره من فساد وانحلال ومروق إذ يقول :

خذي الدف يا هذه والعبي	وغني هزاريك ثم اطربي
تولى نبي بني هاشم	وهذا نبي بني يعرب
لكل نبي مضى شرعة	وهذي شريعة هذا النبي
فقد حط عنا فروض الصلاة	وحط الصيام ولم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضي	وإن صوَّموا فكلي واشربي
ولا تطلبي السعي عند الصفاء	ولا زورة القبر في يثرب
ولا تمنعي نفسك المعرسين	من الأقربين ومن أجنبي
فكيف حللت لهذا الغريب	وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربه	ورواه في الزمن المجدب
وما الخمر إلا كماء السماء	حلال فقدست من مذهب[2]

(١) كشف أسرار الباطنية ، ص ٢٨/٢٤ .

(٢) كشف أسرار الباطنية ، ص ٣١/٢٨ ، بيان مذهب الباطنية ، ص ٨٣/٨٢ . ويورد أحمد حسين شرف الدين نقلاً عن كتاب « السلوك » للبهاء الجندي ، نسبة هذه الأبيات إلى علي بن الفضل إذ يقول : « ثم ادعى علي بن الفضل النبوة ، وأحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات ودخل مدينة الجند في أول خميس من رجب سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٥ م) فصعد المنبر وقال الأبيات . . . وبعد أن يورد الأبيات المذكورة أعلاه يقول :

« وقد روى هذه القصيدة صاحب « أنباء الزمان » وصاحب «بهجة الزمن» . . وغيرهما وتكلموا طويلاً عن تصرفات ابن الفضل وفظائعه وانحرافاته الدينية والعقائدية ، انظر : تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن (أحمد حسين شرف الدين) ط. ثانية ١٩٨٠/١٤٠٠ ، ص ٨٨/٨٧ .

وهكذا اتبع كل من ابن حوشب وعلي بن الفضل أسلوب الباطنية في الدعوة ، إذ بدأ بالخداع والتدليس وإظهار التقوى والورع ، وانتهى بهما الأمر إلى إبطال الشريعة ورفع التكاليف . ولم يقتصر نشاط ابن حوشب على اليمن بل امتد نشاطه إلى شمال إفريقية فأرسل مجموعة من الدعاة نجح أحدهم وهو أبو عبد الله الشيعي في بث الدعوة الإسماعيلية الباطنية إلى الإمام المهدي المنتظر بين بعض القبائل المغربية ، واكتسب تأييد قبيلة كتامة ، أقوى القبائل آنذاك ، فبايعوه ، ووضع بذلك البذور الأولى للدولة العبيدية (الفاطمية) . وقد دخل الباطنية باليمن في صراع مرير مع الزيود بقيادة الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين ومن بعده ابنه أحمد بن يحيى واستمر الصراع المرير بين الفريقين حتى موت منصور اليمن عام ٣٠٢هـ وهلاك علي بن الفضل عام ٣٠٣هـ[1] .

القرامطة :

قد واكب نجاح الدعوة الإسماعيلية باليمن ، ظهور حركة إسماعيلية أخرى في البحرين عرفت في التاريخ بحركة القرامطة ، وتنسب هذه الحركة إلى رجل من أهل الكوفة يقال له حمدان قرمط . كان يميل إلى الزهد فصادفه يوماً في طريقه أحد دعاة الإسماعيلية وهو الحسين الأهوازي . وكان ممن بعث بهم عبد الله بن ميمون القداح من سلمية إلى الكوفة لنشر الدعوة بها . فاستدرج الداعي حمدان واستغواه حتى استجاب لدعوته وصار أصلاً من أصول الدعوة الإسماعيلية الباطنية ، ولما توفي الداعي الإسماعيلي تولى الأمر من بعده حمدان قرمط فأظهر نشاطاً في الدعوة وحماساً لها واستطاع أن يجمع حوله الكثير من الأتباع واتخذ مركزاً خارج الكوفة أسماه « دار الهجرة » جعله مقراً لأتباعه

---

(١) بيان مذهب الباطنية ، ص ٨٣ .

ومنطلقاً لدعوتهم . وكان يجبي الأموال والضرائب من أتباعه ، ويغوي الضعفاء بمساعدتهم وبذل المال لهم وإشاعة المؤاخاة بينهم[1] .

ورغم الاختلاف حول هوية حمدان قرمط والداعي الإسماعيلي الذي أغواه ، فإن الحركة التي كانا وراءها لم تلبث أن انتشرت مبتدئة من سواد الكوفة حتى أصبحت في أواخر القرن الثالث للهجرة خطراً يتهدد الخلافة وينشر الرعب والفزع في نفوس الناس ، وقد هاجم القرامطة البصرة والكوفة ونواحي الشام وانتشروا في اليمن ونواحي البحرين والقطيف ، واستطاعوا أن يؤسسوا دولة في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابي ، ودخلوا في مواجهة مع جيوش الخلافة العباسية وهزموها في عدة مواقع ، وأكثروا القتل والنهب والسلب للمسلمين ، خاصة في مواسم الحج ، حيث كانوا يهاجمون قوافل الحجيج ويفتكون بها ، وبلغوا ذروة نشاطهم عام ٣١٧ هـ ، حيث دخلوا مكة تحت إمرة أبي طاهر سليمان بن سعيد الجنابي وقتلوا الحجيج وردموا بجثثهم بئر زمزم وهدموا الكعبة ونزعوا الحجر الأسود وحملوه إلى عاصمتهم « هجر » حيث ظل لديهم بضعة وعشرين عاماً ولم يَرُدُّوه إلا في عام ٣٣٩ هـ[2] . ويقول ابن كثير عن أحداث هذه الفترة : حج بالناس في هذه السنة (٣١٧ هـ) منصور الديلمي ، وسار بهم من بغداد إلى مكة ، فسلموا في الطريق ، فوافاهم أبو طاهر القرمطي بمكة يوم التروية ، فنهب أموالهم واستباح قتالهم ، فقتل في رحاب مكة وشعابها ، وفي المسجد الحرام ، وفي جوف الكعبة من الحجاج خلقاً كثيراً ، وجلس أميرهم أبو طاهر ، لعنه الله ، على باب الكعبة ، والرجال تصرع حوله ،

---

(١) الفرق بين الفرق (البغدادي) ص ٢٨٣/٢٨٢ ، فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ١٤/١٢ ، تلبيس إبليس (ابن الجوزي) ، ص ١٠٥/١٠٤ .

(٢) انظر لأحداث هذه الفترة الممتدة من عام ٢٦٤ هـ ، حتى نهاية العقد الرابع من القرن الرابع من الهجرة وما قام به القرامطة من أعمال وما أحدثوه من اضطرابات : الكامل في التاريخ (ابن الأثير) ، تاريخ الأمم والملوك (الطبري) ، المنتظم (ابن الجوزي) .

والسيوف تعمل في الناس في المسجد الحرام في الشهر الحرام يوم التروية الذي هو من أشرف الأيام وهو يقول :

أنا الله وبالله أنا ★ يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون منهم ، فيتعلقون بأستار الكعبة فلا يجدي ذلك عنهم شيئاً ، بل يقتلون وهم كذلك ، ويطوفون فيقتلون في الطواف ، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف فلما قضى طوافه أخذته السيوف .

فلما قضى القرمطي ، لعنه الله ، أمره ، وفعل ما فعل بالحجيج من الأفاعيل القبيحة ، أمر أن تدفن القتلى في بئر زمزم ، ودفن كثير منهم في أماكن من الحرم وفي المسجد الحرام ، ولم يغسلوا ولم يكفنوا ولم يُصَلَّ عليهم لأنهم مُحْرِمون . وهدم قبة زمزم ، وأمر بقلع باب الكعبة ونزع كسوتها عنها وشقها بين أصحابه ، وأمر رجلاً أن يصعد إلى ميزاب الكعبة فيقتلعه فسقط على أُمِّ رأسه فمات إلى النار . . ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود فجاء رجل فضربه بمثقل في يده وقال : أين الأبابيل ، أين الحجارة من سجيل ، وأخذوه حين راحوا معهم إلى بلادهم فمكث عندهم ثنتين وعشرين سنة[1] » . وقد حاول القرامطة بهجومهم على الكعبة أن يبطلوا فريضة الحج ، وأن ينفذوا بطريقة عملية التي نادوا بها من أن هذه الشعائر العبادية من حج وصوم وصلاة ما ه رموز لمعان باطنية . ويروى أن قائدهم كان ينشد وهو يشاهد أنصاره يهدمون الكعبة :

ولو كان هذا البيت لله ربنا	لصب علينا النار من فوقنا صبا
لأنَّا حججنا حجة جاهليةً	محللةً لم تبق شرقاً ولا غربا
وإنَّا تركنا بين زمزم والصفا	جنائز لا تبقى سوى ربها ربا
ولكن رب العرش جل جلاله	ولم يتخذ بيتاً ولم يتخذ حجبا[2]

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ١١ ، ص ١٦٠ ـ ١٦١ .

(٢) كشف أسرار الباطنية ، ص ٢٠ .

وقد استمر نشاط القرامطة في البحرين لفترة طويلة حتى ضعف أمرهم وانتهت دولتهم عام ٤٧٠ هـ .

وقد كانت دعوة القرامطة في بدايتها دعوة إسماعيلية ، ولكنها كانت تدعو إلى الإمام المنتظر محمد بن إسماعيل باعتباره المهدي أو الإمام الغائب ، وهذا هو الذي ميز هذه الجماعة داخل الإطار الإسماعيلي الباطني العام ، كما كان هذا هو سبب الخلاف والعداء فيما بعد بينهم وبين دعاة الفاطميين وأئمتهم . إذ أن الإسماعيلية جميعاً ، ما عدا القرامطة ، كانوا يؤمنون بأن هناك إماماً حياً وأن هناك حجة لهذا الإمام . فلما تنازل الإمام الحسين عن الإمامة لحجته سعيد بن الحسن بن عبد الله القداح ، ليكون ستراً ، أو مستودعاً لابنه القائم كما تقول المصادر الإسماعيلية ، انتفض قرامطة السواد وعلى رأسهم حمدان قرمط ، وصهره عبدان المؤلف والداعية القرمطي المشهور ، وسافر عبدان لمقابلة سعيد المعروف بعد ذلك بعبيد الله المهدي ، وسأله عن الحجة وعن الإمام ، فقال سعيد (أي المهدي) لعبدان : ومن الإمام؟ فرد عليه عبدان بعقيدة القرامطة : محمد بن إسماعيل بن جعفر صاحب الزمان الذي كان أبوك يدعو إليه ، وكان حجته . فأنكر ذلك عليه وقال : محمد بن إسماعيل لا أصل له ولم يكن الإمام غير أبي ، وهو من ولد ميمون بن ديصان ، وأنا أقوم مقامه[1] » .

ولما اكتشف القرامطة هذا الزيف في شخصية الإمام الذي قامت الدعوة باسمه ، شكُّوا في الأمر كله ، وانتهى بهم الأمر إلى مطاردة الإمام الشيعي المزعوم ومحاولة كشف حقيقته والتخلص منه . ويقال أن قرامطة الشام هاجموا دار الإمام الإسماعيلي في سُلَّميّة ونهبوها وكانوا ينوون قتله[2] . ولكن عبيد الله المهدي علم بأمرهم واستطاع أن يفلت منهم فذهب إلى مصر ومنها إلى

---

(١) نهاية الأرب ، نقلاً عن نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) ، جـ ٢ ، ص ٤٤٠/٤٤١ .

(٢) عبيد الله المهدي (حسن إبراهيم حسن) ، ص ٩٤/٩٥ . نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام « النشار » ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ .

سجلماسة حيث استطاع داعيته أبو عبد الله الشيعي أن يمهد لقيام الدولة الفاطمية هناك .

وقد تبنى القرامطة عقائد الباطنية وأسلوب دعوتهم ، إن لم يكن هم الذين ، شاركوا في وضعها . وتهدف دعوتهم في عمومها إلى نشر الإلحاد وإبطال الشرائع وتعطيلها . وقد اتبعوا في سبيل بث هذه الدعوة وسائل مختلفة ومداخل متعددة مع من يريدون جذبه إلى معتقدهم الباطل تتلخص في : التفرس والتأنيس ، والتشكيك والتلفيق ، والربط ، والتدليس والتأسيس ، والمواثيق بالإيمان ، والعهد ، والخلع ، والسلخ[1] . وهي مراتب تبتدئ بتخير الشخص الذي يريدون إغواءه واستمالته ، وتنتهي بإخراج الإنسان من الإسلام وإلغاء التكاليف عنه ، وأخذ العهد عليه والميثاق بكتمان سرهم . ويلخص ابن الجوزي أسلوب القرامطة ومنهجهم في الدعوة فيقول : « وهم يستدرجون الخلق إلى مذهبهم بما يقدرون عليه ، فيميلون إلى كل قوم بسبب يوافقهم ، ويميزون من يمكن أن ينخدع لهم ممن لا يمكن خداعه ، فيوصون دعاتهم فيقولون للداعي إذا وجدت من تدعوه شيعياً فاجعل التشيع دينك ــ أدخل عليه من جهة ظلم الأمة لعلي عليه السلام وقتلهم الحسين وسبيهم لأهله والتبرؤ من تيم وعدي وبني أمية وبني العباس ، وقل بالرجعة ، وأن علياً يعلم الغيب ، فإذا تمكنت منه أوقفته على مثالب علي وولده ، وبينت له بطلان ما عليه أهل ملة محمد عليه الصلاة والسلام . وإن كان سُنّياً فاعكس له . وإن كان يهودياً فادخل عليه من جهة انتظار المسيح وأن المسيح هو محمد بن إسماعيل بن جعفر وهو المهدي واطعن في النصارى والمسلمين . وإن كان نصرانياً فاعكس . وإن كان صابئاً فعظم له الكواكب ، وإن كان مجوسياً فعظم له النار والنور . وإن وجدت فيلسوفاً فهم عمدتنا لأننا نتفق وإياهم على إبطال النواميس والأنبياء ، وعلى قدم

---

(١) الفرق بين الفرق (البغدادي) ص ٢٩٨/٣٠٢ .

العالم ، وإن كان مائلاً إلى المجون فقرر عنده أن العبادة بله والورع حماقة وإنما الفطنة في اتباع اللذة وقضاء الوطر من الدنيا الفانية . فإذا نفذوا إلى قلب الشخص بدأوا بإلقاء أسئلة تشكيكية حول معتقده . وعلقوا الإجابة عليها وربطوها بإمامهم المعصوم . فإذا سار معهم وآمن بهذا الإمام ، أخذوا عليه العهد والميثاق بكتمان أمرهم ، وعندها يكشفون له عن حقيقتهم وأن هدفهم هو إبطال الشريعة وإنكار الأنبياء ، وجحود الألوهية[1] .

أما عقائد القرامطة فإنها تلتقي مع العقائد الباطنية التي تهدف إلى إبطال الشريعة الإسلامية وإنكارها ، وإنكار البعث والقيامة ووضع تصور غريب في الوجود إلى غير ذلك من القضايا التي سبق أن أشرنا إليها عند حديثنا عن عقائد الباطنية[2] .

الفاطميون (العبيديون) :

قد نبهت الحركات الباطنية الإسماعيلية ، كحركة ابن حوشب وعلي بن الفضل في اليمن وحركة القرامطة ، العباسيين ، فسعوا إلى معرفة الشخصية التي تكمن وراء هذه الحركات والتي ينضوي تحت لوائها القرامطة ، ويدعو إليها ابن حوشب . ولكن الإمام الإسماعيلي عبيد الله المهدي استطاع أن يفلت ـ كما سبق أن رأينا ـ من حصار العباسيين ومن القرامطة معاً ، حيث التحق بأتباعه في المغرب واستطاع أن يؤسس في عام ٢٩٧ هـ دولة عرفت بالدولة الفاطمية . وهكذا انتقل أئمة الإسماعيلية من دور الستر إلى دور الظهور . ولم تقف دولة الفاطميين أو العبيديين كما تسمى أحياناً عند حدود المغرب ، بل سرعان ما أرسل إمام الإسماعيلية دعاته إلى الشرق سعياً إلى توطيد نفوذه ،

---

(١) القرامطة (ابن الجوزي) ، ص ٥١/٥٦ . الفرق بين الفرق ، ص ٢٩٨ وما بعدها ، فضائح الباطنية (الغزالي) ، ص ٢١/٣٢ .

(٢) ص ٢٠١ وما بعدها .

واستطاعت جيوش الفاطميين أن تدخل مصر تحت امرة القائد جوهر الصقلي ، الذي بنى مدينة القاهرة لكي تكون عاصمة للفاطميين ، وشيد الجامع الأزهر لكي يكون مركزاً علمياً لقيادة الدعوة الإسماعيلية . وقد تسلسل أئمة الإسماعيلية في توليتهم الإمامة ورئاسة الدولة الفاطمية على النحو التالي : عبيد الله المهدي (٢٩٧ ـ ٣٢٢ هـ) ، القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢ ـ ٣٣٤ هـ) ، المنصور بالله أبو طاهر إسماعيل (٣٣٤ ـ ٣٤١ هـ) ، المعز لدين الله تميم (٣٤١ ـ ٣٦٥ هـ) ، وفي عهده انتقلت دولة الفاطميين إلى مصر عام (٣٦٣ هـ) . العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ) ، الحاكم بأمر الله (٣٨٦ ـ ٤١١ هـ) ، الظاهر أبو الحسن علي (٤١١ ـ ٤٢٧ هـ) ، والمستنصر بالله (٤٢٧ ـ ٤٨٧ هـ) ، وبعد المستنصر انقسمت الإسماعيلية الفاطمية إلى فرقتين : المستعلية والنزارية ، ذلك أن المستنصر نص على أن تكون الإمامة من بعده لابنه نزار ، ولكن وزيره الأفضل بن بدر الجمالي انتهز فرصة وفاة المستنصر وأعلن إمامة المستعلي (٤٨٧ ـ ٤٩٥ هـ) الابن الأصغر للمستنصر وابن أخت الوزير . ويقال إنَّ الجمالي ، بعد حروب مريرة بينه وبين نزار وأتباعه ، قبض على نزار وابنه وبنى عليهما حائطاً وتخلص منهما بذلك[1] . ولكن عدداً كبيراً من الدعاة وأتباع المذهب الإسماعيلي (من أشهرهم الحسن بن الصباح) رفضوا البيعة للمستعلي ونادوا بإمامة نزار وأبنائه من بعده . وهكذا أصبح للشيعة الإسماعيلية فرعان : المستعلية أو (الإسماعيلية الغربية) والنزارية أو (الإسماعيلية الشرقية)[2] .

١ ـ الإسماعيلية المستعلية :

قد استمر الإسماعيلية المستعلية في حكم مصر ، وتولى بعد المستعلي ابنه

---

(١) خطط المقريزي ، جـ ١ ، ص ٤٢٣ .

(٢) طائفة الإسماعيلية (محمد كامل حسين) ، ص ٤٥/٢٨ .

الآمر بأحكام الله (٤٩٥ ــ ٥٢٤ هـ) الذي ولي الإمامة وله من العمر خمس سنوات وأنفق وقته في اللهو والمجون تاركاً أمر الدولة لوزرائه ، حتى قتلته الإسماعيلية النزارية سنة ٥٢٤ هـ ، وعُيِّن من بعده عمه الحافظ عبد المجيد بن المستنصر إماماً بالنيابة أو إماماً مستودعاً (٥٢٤ ــ ٥٤٤ هـ) . ثم دعا الحافظ لنفسه من بعد بالإمامة الكاملة خلافاً لتقاليد الإسماعيلية في تولي الإمامة ووراثتها والتي تجعلها محصورة في الأعقاب فقط . وقد بدأ أمر الفاطميين يضعف في مصر بعد ذلك واستطاع القائد صلاح الدين الأيوبي أن يضع حداً لوجودهم السياسي فيها عام ٥٦٧ هـ[1] .

(أ) الصليحيون في اليمن : وقد واكب ضعف الفاطميين في مصر ، ظهور فرع جديد للشيعة المستعلية في اليمن ، حيث عرفوا باسم الإسماعيلية الطيبية واستطاعوا إقامة دولة لهم هي الدولة الصليحية . ذلك أنه في اليمن ، التي كانت المهد لأول دولة إسماعيلية قام أحد دعاة الإسماعيلية ويسمى علي بن محمد الصليحي بثورة أخضع بها اليمن جميعها لسلطانه ، كما ضم إليه الحجاز أيضاً وتطلع لفتح العراق وانتزاع السلطة من العباسيين لولا أن قتل عام ٤٥٩ هـ . وقد بدأت دعوة الصليحي باسم الإمام الفاطمي المستنصر بالله صاحب مصر ، ولكن حينما قتل الآمر بأحكام الله رفض الإسماعيلية باليمن الاعتراف بإمامة خلفه الحافظ عبد المجيد لأن إمامته غير شرعية وزعموا أن للآمر ولداً[2] وأن إحدى زوجاته كانت حاملاً وأنها وضعت طفلاً ذكراً اسمه

---

(١) انظر ظهور الخلافة الفاطمية وسقوطها في مصر (عبد المنعم ماجد) ، دار المعارف ، مصر ١٩٦٨ ، ص ٤٤١/٤٩٦ .

(٢) وتورد مصادر الإسماعيلية نص رسالة بعث بها الآمر بأحكام الله إلى السيدة الحرة الملكة أروى بنت أحمد الصليحية (٤٧٧ ــ ٥٣٢ هـ) ، يبشرها فيها بولادة ابنه الطيب الملقب بأبي القاسم وذلك في يوم الأحد الرابع من شهر ربيع الآخر سنة أربع وعشرين وخمس مائة ، انظر : تاريخ اليمن (نجم الدين عمارة اليمني) ، ص ٢٣٨/٢٣٩ .

أبو القاسم ويلقب بالطيب بن الآمر وأنَّ أحد الدعاة خاف عليه فهرب به إلى اليمن . ومن ثم نادى إسماعيلية اليمن بإمامته وتكفل الصليحيون بكفالة هذا الإمام وأبنائه الذين دخلوا جميعاً في دور الستر . وقد كان هذا الحدث بداية لانفصال الدولة الصليحية باليمن عن الشيعة الفاطميين في مصر . وقد استمرت الدولة الصليحية ملتزمة بتعاليم الشيعة الإسماعيلية حتى وفاة الملكة أروى بنت أحمد عام ٥٣٢ هـ . وبعد وفاة الملكة أروى بدأ أمر الدولة الصليحية يضعف حتى انقرضت عام ٥٦٣ هـ .

وقد نهجت الدولة الصليحية نهج الحركات الباطنية من قبل ، وقد كشف محمد بن مالك أحد علماء السنة في اليمن في المائة الخامسة للهجرة ، والذي كان معاصراً لازدهار هذه الدولة ، كشف عن انحراف الصليحيين وتعاليمهم الباطنية ، فقد انخرط محمد بن مالك في سلك أتباع هذه الدولة ، وصور من الداخل حقيقة أمرهم ، ويقول عن الوالي الصليحي الذي كان معاصراً له : « إن له نواباً يسميهم الدعاة المأذونين وآخرين يلقبون بالمكلبين ، تشبيهاً لهم بكلاب الصيد لأنهم ينصبون للناس الحبائل ويخدعون من يقع في حبائلهم بروايات عن النبي صلى الله عليه وسلم محرفة وأقوال مزخرفة ويتلون عليه القرآن على غير وجهه ويحرفون الكلم عن مواضعه ، وينهجون النهج الباطني القائم على نظرية الظاهر والباطن ، ويكشفون لمن تبعهم أن جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة لمثولات محجوبة ، وما عرف الصلاة وما فيها إلا من وقف على باطنها ومعانيها فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه ، فالزكاة مفروضة في كل عام مرة ، وكذلك الصلاة من صلاها مرة في السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار » . ويبينون له كذلك أن لكل شيء ظاهراً وباطناً وفقاً لقوله تعالى ﴿ وذروا ظاهر الإثم وباطنه ﴾[1] . وقوله ﴿ قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾[2] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٠ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية ٣٣ .

والظاهر ما تساوى به الناس وعرفه الخاص والعام، وأما الباطن فقصر علم الناس عن العلم به فلا يعرفه إلا القليل، ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وما آمن معه إلا قليل ﴾[1] ﴿ وقليل ما هم ﴾[2] . وقوله ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾[3] . فالأقل من الناس الذين لا عقول لهم[4] .

والصلاة والزكاة سبعة أحرف دليل على محمد « وعلي » صلى الله عليهما لأنهما سبعة أحرف !! فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلي ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وبهذا يوهمون من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبي صلى الله عليه وسلم فيقبل كثير من الناس بذلك ويقع في مذهبهم ، لأنه مذهب الراحة والإباحة ، يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله . فإذا قبل المدعو هذا التفسير الباطني طلب منه أن يدفع قرباناً يتقرب به إلى الإمام فيحط عنه الصلاة وغيرها من الفرائض التي تعتبر في رأيهم إصراً وأغلالا . ثم يرفع عنه تحريم الخمر والميسر ويخبره الداعي أنهما رمزان لأبي بكر وعمر لمخالفتهما لعلي ولظلمهما له وأخذهما الخلافة منه . أما الصوم فيفسره الداعي بأنه كتمان أسرار الدعوة ، ويفسر بناء على هذا الآية ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾[5] بأنها تعني كتمان الأئمة في وقت الاستتار خوفاً من الظلمة . ويجدون مصداقاً لقولهم قول مريم الوارد في قوله تعالى ﴿ إني نذرت للرحمٰن صوماً فلن أكلم اليوم إنسيا ﴾[6] . فلو كان الله عنى بالصيام ترك الطعام ، لقال فلن أطعم

(١) سورة هود ، الآية ٤٠ .

(٢) سورة ص ، آية ٢٤ .

(٣) سورة سبأ ، الآية ١٣ .

(٤) كشف أسرار الباطنية (محمد بن مالك الحمادي) ، ص ١١ ــ ١٢ .

(٥) سورة البقرة ، الآية ١٨٥ .

(٦) سورة مريم ، الآية ٢٦ .

اليوم شيئاً ، فالصيام إذن هو الصموت عن الكلام [1] .

وهكذا يفسر الباطنية الطهارة بأنها طهارة القلب ، ويقولون « إن المؤمن طاهر بذاته والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره . وأن الجنابة هي موالاة أضداد الأنبياء والأئمة وعدم معرفة العلم الباطن . ويفسر الداعي معنى ﴿ فإن كنتم جنباً فاطهروا ﴾ بأنها تعني : « فإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا » ، والعلم الباطن هو حياة الأرواح ، وهو كالماء الذي هو حياة الأبدان . قال الله تعالى ﴿ وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[2] وقول الله تعالى ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق ﴾[3] فلما سماه الله بهذا دل على طهارته ، وينتهي الأمر بأن يباح للإنسان ترك الغسل من الجنابة[4] .

ثم تأتي المرحلة الأخيرة ــ منتهى الأمر وغاية السعادة ــ فيتلو الداعي ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[5] . فيقول المخدوع « ألهمني إياها ودلني عليها » فيتلوا عليه ﴿ قد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ﴾[6] . ثم يقول له : أتحب أن تدخل الجنة في الحياة الدنيا ؟ فيقول وكيف لي ذلك ؟ فيتلو عليه ﴿ وأن لنا للآخرة والأولى ﴾[7] . ويتلو عليه قوله تعالى ﴿ قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾[8] . والزينة هنا ما خفي عن الناس من أسرار النساء التي لا يطلع عليها إلا المخصوصون

---

(١) كشف أسرار الباطنية ، ١٢/١٣ .

(٢) سورة الأنبياء ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الطارق ، الآية ٥ ــ ٦ .

(٤) كشف أسرار الباطنية ، ص ١٣ ــ ١٤ .

(٥) سورة السجدة ، الآية ١٧ .

(٦) سورة ق ، الآية ٢٢ .

(٧) سورة الليل ، الآية ١٣ .

(٨) سورة الأعراف ، الآية ٣٢ .

بذلك ، وذلك قوله تعالى ﴿ ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ﴾[1] . والزينة مستورة غير مشهورة . ثم يتلو قول الله تعالى ﴿ وحور عين كأمثال اللـؤلؤ المكنـون ﴾[2] . فمن لم ينل الجنة في الدنيا لم ينلها في الآخرة . لأن الجنة مخصوص بهـا ذوو الألباب وأهل العقول ، لأن المستحسن من الشيء ما خفي ولذلك سميت الجنـة جنة لأنها مستجنة ، وسميت الجن جناً لاختفائهم عن الناس ، والمجنـة المقبـرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يُستَتَرُ به ، فالجنة هـاهناما استـتر عـن هذا الخلق المنكوس الذين لا علم لهم ولا عقل . ثم يدعى هو وبنـاته وزوجتـه إلى المشهد الأعظم ، « حتى إذا جن الليل ودارت الكؤوس وحميـت الـرؤوس ، وطابت النفوس ، أحضر الجميع حريمهم فيدخلن عليهم من كل بـاب وأطفـأوا السرج والشموع وأخذ كل واحد ما وقع عليه في يده[3] » . ورغم تشكيك البعض في صحة تفاصيل ما ورد في مثل هذه الرواية[4] . فإنها لا شك تمثـل جـانباً مـن حقيقة الدعوة الباطنية والتي نراها تتكرر في عدة دوائر باطنية ، وقد ذكرها معظم من أرخوا لهذه الجماعات والتيار الذي يمثلونه .

(ب) البهرة : بعد نهاية الدولة الصليحية ، لم يكن للإسماعيلية المستعلية أو الشيعة الطيبية أي أثر في الحياة السياسية باليمن بل التـزموا بمبـدأ « التقيـة » وانصرفوا إلى التجارة التي أعطتهم الفرصة لنشر دعـوتهم الإسـماعيلية في الهنـد حيث اعتنقها جماعة من الهندوس ، وعرف أتبـاعها بـاسم الشـيعة البهـرة « التجار » .

والبهرة اليوم متفرقون في بلاد الهند وباكستان وعدن ، وتوجد منهـم طـائفة

---

(١) سورة النور ، الآية ٣١ .

(٢) سورة الواقعة ، الآية ٢٢ ـ ٢٣ .

(٣) انظر : كشف أسرار الباطنية ، ص ١٤ ـ ١٥ .

(٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (النشار) ، جـ ٢ ، ص ٤٣٠/٤٣١ .

بجبال حراز باليمن الشمالي يطلق عليهم اسم القرامطة أو الباطنية[1] . ويعتبر البهرة أكثر الشيعة تعصباً لمذهبهم ومحافظة على عقائدهم ولا زالوا يتمسكون بزي خاص للنساء والرجال يميزهم عن غيرهم ، ولهم أماكن خاصة للعبادة يطلقون عليها « اسم جامع خانة » لا يدخلها غيرهم . كما أنهم يرفضون أن يقيموا الصلاة في المساجد التي لغيرهم من المسلمين . ورغم اتفاق البهرة ظاهرياً مع غيرهم من المسلمين في العبادات والشعائر فإنهم يعتقدون عقائد باطنية بعيدة كل البعد عن معتقد أهل السنة والجماعة . فهم مثلاً يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون ، ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماماً ، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام المستور من نسل الطيب بن الآمر ، ويؤدون شعائر الحج كما يؤديها المسلمون ولكنهم يقولون إن الكعبة التي يطوفون حولها هي رمز للإمام[2] . وهكذا يذهبون في عقائدهم مذهباً باطنياً يلتقي مع التيار الباطني العام .

---

(١) ينقسم البهرة إلى طائفتين تسمى إحداهما الداودية نسبة إلى داود بن عجب شاه « الداعي المطلق » مات عام ٩٩٩ هـ (١٥٩٠ م) ، وهناك فرع آخر يسمى السليمانية ، وينسب إلى سليمان بن الحسن « الداعي المطلق » ، توفي سنة ١٠٠٥/١٥٩٦ . ورئيسها الحالي علي بن الحسن ومحل إقامته بنجران ، وتنتشر هذه الطائفة في قبيلة يام باليمن ، ويقدس هؤلاء زعيمهم ويقال أنه ينتحل مذهب البابوات من صنع صكوك لأتباعه على قطع في الجنة !! وبعض أفراد هذه الطائفة يقيمون في الهند وباكستان ، انظر : القرامطة (طه الولي) ، ص ٣٥ ، إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة) ، ص ٢٤٠ ، الإمام الشوكاني مفسراً (محمد حسن بن حمد الغماري) « دار الشروق » ط. أولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م. ص ٤٣ . وتنتشر الداودية بصفة عامة في الهند ، وتوجد جماعات وأفراد يتبعون هذه الطائفة في أنحاء متفرقة من العالم . ويقدر عددهم في الهند بحوالي مائتي ألف ٢٠٠,٠٠٠ ، وخارج الهند يقدر عددهم بحوالي ٧٥,٠٠٠ . وتوجد أكبر تجمعاتهم في تنزانيا (٧,٥٠٠) ومدغشقر (٦,٥٠٠) وكينيا (٥,٨٠٠) كما توجد أعداد منهم في الكويت (٢٥٠٠) واليمن (٢٥٠٠) ودبي (٧٥٠) والبحرين (٥٠٠) وعدن (٩٥٠) ، انظر : THE BOHRAS, (A.A. ENGINEERS), VIKAS PUBLICATION HOUSE, 1980, PP. 142-45.

(٢) طائفة الإسماعيلية ، ص ٥٢ ـ ٥٣ .

والبهرة الهنود يعتقدون بغيبة الإمام ويعلنون ولاءهم له ويقدسون زعيمهم الروحي (الداعي) الذي يعتبرونه وكيلاً للإمام الغائب[1] ويطيعونه من ثم طاعة عمياء . وقد استغل هو هذه التبعية وفرض عليهم ضرائب عجيبة يهدف منها إلى زيادة ثروته ، واعتبر أداءها ديناً فمن يخالف تقاليد الطائفة عليه أن يدفع ضريبة للزعيم بل أن من يريد الحج عليه أن يدفع ضريبة ويلتزم بالإقامة في الفنادق التي أقامها زعيم الطائفة في مكة والمدينة وأماكن « الزيارة » بالعراق ، والتي تعرف « بالبهرة خانة[2] » .

كما غالى زعيم طائفة البهرة في الهند في تسخير أتباعه وإذلالهم إلى درجة أصبحوا فيها آلات مسخرة في يده فلا يتعلم أحدهم ولا يعمل عملاً أو يتقلد وظيفة ولا يشرع في عمل تجاري إلا بعد مباركة الزعيم ، وقد شعرت طوائف من البهرة بهذا الضيم ومن ثم حاولوا التخلص من نير زعيمهم وقاموا بحركات إصلاحية عديدة[3] ، ولكن استطاع زعماء البهرة على اختلافهم أن يقضوا عليها ، ووضع الزعماء بدهاء قانوناً تقاطع الطائفة بموجبه كل من يتحدى أو يخرج على تعاليم الزعيم ، وتلاحق كل من تحدثه نفسه بالقيام بحركة مضادة له ، بل وانتهى الأمر ببعض هؤلاء المعارضين إلى القتل والحرق وهدم منازلهم ودورهم[4] . ورغم أن نفوذ هؤلاء الزعماء قد تقلص إلى حد ما بعد استقلال الهند فإن الزعيم الحالي للبهرة « الدكتور محمد برهان الدين » يمارس إلى حد كبير نفس هذه السياسة التي كان يتبعها سلفه تجاه أتباعه . وقد ذكر بأن الحكومة الهندية لديها ما يثبت أن دخله السنوي لا يقل عن ثمانية ملايين جنيه استرليني ، كل ذلك من الضرائب التي يفرضها على أتباعه ، إذ أن هناك ضريبة

---

(١) عن تاريخ البهرة في الهند ، انظر : THE BOHRAS, PP. 100-141 .

(٢) طائفة الإسماعيلية ، ص ٥٨/٥٩ .

(٣) THE BOHRAS, PP. 165-281 .

(٤) I bid, PP. 293-302 .

على الأم عندما تحمل الجنين في أحشائها ، وضريبة أخرى إذا مات الجنين قبل ولادته ، وضريبة ثالثة على المولود بعد ولادته وضريبة رابعة عندما ينمو الطفل ، ويفرض على أهله أن يذهبوا به إلى زعيم الطائفة ليعلن تعويذه . كما أن هناك ضريبة على جثة الميت يدفعها أهله لزعيم الطائفة ليصدر بموجبها (صك الغفران) يعلق على صدر الميت ليدفن معه حتى يدخل الجنة !! وكلما زادت قيمة هذا الصك ارتفعت درجات الميت في الجنة[1] !! .

وذكر أيضاً أن مكتب زعيم الطائفة يصدر تذاكر لصلاة العيد وتختلف قيمة التذاكر في الصف الأول عن قيمتها في الصف الأخير ، فتقل قيمة التذكرة من صف إلى صف حسب درجة الابتعاد عن زعيم الطائفة . ويقال أن زعيم طائفة البهرة الحالي يستوحي تصرفاته هذه من كتاب سري قام أبوه الزعيم السابق بتأليفه عام **١٣٣٥** هـ ليكون دليلاً تهتدي به الطائفة وتسير عليه . واسم الكتاب « نور الحق المبين » وهو دعوة صارخة لتقديس الزعيم حيث يقول عنه أنه إله الأرض ويكفي أن تطوف حول بيته حتى تكون كمن يطوف حول بيت الله الحرام . كما ادعى المؤلف تفسيراً غريباً لقول الله تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ فقال : إن هذا الحبل له طرفان . . أحدهما في يد الله ، تعالى الله عن ذلك ، والآخر في يده . . والأدهى من ذلك ، كما قيل أن يأمر الزعيم أتباعه بالسجود له باعتبار ذلك فرضاً دينياً على كل أبناء الطائفة لأنه إله الأرض كما تقول تعاليم البهرة[2] » .

---

(١) THE BOHRAS, PP. 159-161 .

(٢) مجلة التوحيد ، عدد ٣ لسنة ٩ ربيع الأول ١٤٠٠ هـ نقلاً عن مجلة روز اليوسف المصرية ، ٢٤ نوفمبر ١٩٨٠ م .

٢ ـ الإسماعيلية النزارية* :

(أ) الحشاشون :

أما الإسماعيلية النزارية فقد كانت أكبر شأناً وأجل خطراً من المستعلية إذ أنهم لعبوا دوراً سياسياً كبيراً في كل من : إيران والهند والشام . وقد تكونت هذه الفرقة النزارية على يد الحسن بن الصباح ، الذي كان ، كما يقول عن نفسه ، من الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ، ثم أقنعه أحد دعاة الإسماعيلية بتبني المذهب الإسماعيلي وأصبح أحد دعاتهم . وذهب إلى مصر في عهد المستنصر بالله الفاطمي ، وعلم منه أمره باستخلاف ابنه نزار[1] ، ثم عاد إلى فارس كداعية إسماعيلي ، ولما علم بما أحدثه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي وتحويله الإمامة إلى المستعلي بدلا من نزار ، انتصر الحسن بن الصباح لنزار وأصبح يدعو

---

* يصف الشهرستاني الإسماعيلية النزارية بأنها « الدعوة الجديدة » تمييزاً لها عن الإسماعيلية القديمة ، وتتميز هذه الدعوة عن الإسماعيلية القديمة بتمسكها بتعليم معلم هو الإمام ، وإنكار المعرفة العقلية . انظر : الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٩٥ ، وما بعدها .

وقد بين الغزالي بصورة أكثر وضوحاً ما بنى عليه هؤلاء النزارية مذهبهم فقال : « وأما التعليمية فإنهم لقبوا بها لأن مبدأ مذاهبهم إبطال الرأي وإبطال تصرف العقول ، ودعوة الخلق إلى التعليم من الإمام المعصوم ، وأنه لا مدرك للعلوم إلا التعليم . ويقولون في مُبْتَدأ مجادلتهم : الحق إما أن يعرف بالرأي وإما أن يعرف بالتعليم . وقد بطل التعويل على الرأي لتعارض الآراء وتقابل الأهواء واختلاف ثمرات نظر العقلاء ، فتعين الرجوع إلى التعليم والتعلم . وهذا اللقب هو الأليق بباطنية هذا العصر ، فإن تعويلهم الأكثر على الدعوة إلى التعلم وإبطال الرأي وإيجاب اتباع الإمام المعصوم ، وتنزيله ــ في وجوب التصديق والاقتداء به ــ منزلة رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فضائح الباطنية ، ص ١٧ .

(١) انظر : مذاهب الإسلاميين (عبد الرحمٰن بدوي) ، ج ٢ ، ص ٣٢٠/٣١٧ ، نقلاً عن ترجمة ذاتية للحسن بن الصباح . طائفة الإسماعيلية ، ص ٦٧/٦٦ ، الكامل في التاريخ (ابن الأثير) حوادث سنة ٤٨٧ ، ج ١ ، ص ٢٣٨/٢٣٧ .

له ولأبنائه ، وجعل من نفسه نائباً للإمام المستور من ولد نـزار[1] . وأخـذ يـدعو لمذهبه هذا بين الفلاحين الإيرانيين وجمع حوله العديد مـن الأتبـاع وكون مـن بينهم جماعات فدائية دربها تدريباً خاصاً على الطاعة العمياء والتضحية . واتخذ أسلوب الاغتيالات الفردية وسيلة لتحقيـق أهـدافه ، وإزالـة كل مـن يقف في طريقه أو يخاصمه . وقد كان من ضحايا هـذا الأسلوب الإرهابي نـظام الملك (٤٨٥ هـ) الوزير السلجوقي الذي بنى المدارس النظامية وإليـه نسبت ، والـذي كان زميلاً للحسن بن الصباح في الدراسة أيام طفولتهما . كما استطاع الحسن ، عن طريق هؤلاء الفدائيين أن ينتقم لنزار ويقتل الإمـام الآمـر بـأحكام الله بـن المستعلي ، كما سبق أن أشرنا . وهكذا أشاعت هذه الجماعات الرعب والفـزع في أنحاء الخلافة العباسية ، بل إن الحسن بن الصباح استطاع أن يستولي على قلعة « ألموت » أو « عش العقاب » عام ٤٨٣ هـ[2] ، جنوبـي بحـر قـزوين ، وأقـام فيها العديد من الحصون ، وأسس بذلك الدولة الإسماعيلية الشرقية التي عرفت في التاريخ بأسماء عديدة : مثل الإسـماعيلية النـزارية ، البـاطنية ، السـبعية التعليمية والحشاشين والملاحدة والسفاكين . وأقام الحسن داخل هذه الحصـون والقلاع مجتمعاً مغلقاً يحيطه السر والكتمان ، وتنطلق منه جمـاعات الإرهابيـين والدعاة لنشر الدعوة والرعب في نفوس الناس . وقـد قـامت الخـلافة العبـاسية ببذل الجهود لحربهم عسكرياً وفكرياً ، ولكن كل المحـاولات العسـكرية بـاءت

---

(١) رغم أن نزار قد قتل بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه فمات بينهما ، فإن المصادر الإسماعيلية النزارية تزعم بأنه لم يمت بل تمكن من مغادرة الإسكندرية سراً أثنـاء حصـارها مـن قبـل الأفضل بن بدر الجمالي ، وأنه اتجه إلى بلاد فارس حيث استقر به المقام في جبـال الـطالقان وأسس الدولة النزارية هناك . انظر : تاريخ الـدعوة الإسـماعيلية (مصـطفى غـالب) ، ص ٢٥٥ . وهذه الرواية كما يقول د. عبد الرحمن بدوي ، ليس لهـا سـند تـاريخي ولـم يذكرها أي مؤرخ ، وقصد من اختراعها إلى الربط بين نـزار وبيـن إسـماعيلية إيـران في ألموت وسائر القلاع الإسماعيلية ، مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٣٥٥/٣٥٦ .

(٢) انظر الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٩٥ .

بالفشل وأدت إلى مزيد من القتل والإرهاب وسفك الدماء . ومن أبرز الجهود العلمية التي كتبت ضد الإسماعيلية وكان لها أثر كبير في صد مزاعمهم ، كتاب « فضائح الباطنية » للإمام الغزالي .

وكان الحسن بن الصباح ومن أتى بعده من حكام « ألموت » يقولون عن أنفسهم إنهم دعاة الأئمة من نسل نزار ، وقد كان أولئك الأئمة المزعومون في ستر تام ولم يعرف عنهم أي شيء . . وقد استخلف الحسن (توفي سنة ٥١٨ هـ) من بعده اثنين من أعوانه هما « كيا بيزرك » و « أبو علي » داعي الدعاة ، وجعل الأول قائداً للإرهابيين ومسئولا عن الأمور الدنيوية ، وجعل للثاني أمور الدعوة الروحية . ثم توالى أبناء كيا بيزرك وأحفاده على ولاية أمر الإسماعيلية في « ألموت » حتى جاء الحسن الثاني بن محمد (٥٥٨ هـ) حفيد كيا بيزرك ، وكان ذا عقلية فلسفية قوية درس مؤلفات كبار مفكري الإسماعيلية السابقين ، وكتب الفلاسفة لا سيما ابن سينا ، كما درس كتب التصوف ، وبدأ في الدعوة إلى تأويل روحي للإسماعيلية مختلف عما ألفه الإسماعيلية في عهد أبيه وجده . وكان الحسن الثاني فصيحاً عالماً ، فاستطاع التأثير في أتباع الإسماعيلية في ألموت وقلاع الجبل ، وأصبحت له عندهم مكانة كبيرة ، ويبدو أن بعض هؤلاء قد أخذوا يمجدونه إلى درجة أن يزعموا أنه هو الإمام المنتظر ، فاضطر أبوه إلى وقف هذه الحركة قائلاً إن الإمام يجب أن يكون ابن إمام ، والحسن ليس كذلك ، بل يروى أنه اضطر إلى قتل مائتين وخمسين من أتباع الحسن ونفي مثلهم[1] .

وقد ادعى الحسن الثاني أنه تلقى رسالة من الإمام المستور جاء فيها : أن الحسن بن كيا بيزرك هو خليفتنا وداعينا وحجتنا ، فعلى جميع من هم على عقيدتنا أن يطيعوه في الأمور الأخروية والدنيوية وأن يأتمروا بأوامره ويعتبروا

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٣٤٣ .

كلماته من وحي الله ، وأن لا يخالفوا له أمراً ، بل يتقيدوا بها كما لو كانت من لدنا[1] .

ويقال إنه بعد أن قرئ هذا الكتاب على الناس ، خطبهم الحسن الثاني وأمرهم بطرح جميع التكاليف الدينية ، والامتناع عن إقامة الفرائض الإسلامية لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ، فالإمام هو المسئول الأول عن أتباعه وهو الذي يتحمل بدلهم الحساب يوم القيامة ، إن أطاعوه طاعة تامة واعتقدوا إمامته على هذا النحو . وبذلك دخلت الإسماعيلية دوراً جديداً هو « دور القيامة » أو عدم القيام بالفرائض الدينية من صلاة وصوم وحج ، وعدم التقيد بما كان عند الإسماعيلية في دور الظهور الأول . وقد وجدت هذه الدعوة استجابة من المجتمع الإسماعيلي في « ألموت » .

ثم اتخذ الحسن الثاني خطوة أخرى في عام ٥٥٩ هـ ، فأعلن نفسه أنه هو الإمام من نسل نزار بن المستنصر بالله الفاطمي وأصبح اسمه لا يذكر إلا مقروناً بقولهم « على ذكره السلام » . وبذلك أصبح حكام ألموت بعد الحسن الثاني والذين جاءوا بعده من سلسلة النسب الفاطمي[2] . وهكذا أتى الحسن الثاني كما يقول د . عبد الرحمن بدوي بثلاثة تجديدات ما لبث النزارية في كل مكان أن قبلوها على درجات متفاوتة :

١) الأول أنه أعلن نفسه خليفة لله في أرضه ، ولم يعد مجرد داع كما كان أسلافه في الموت .

---

(١) طائفة الإسماعيلية ، ص ٨١ ، مذاهب الإسلاميين ، جـ ٢ ، ص ٣٤٤/٣٤٥ .

(٢) يمكن أن يفهم بأن النسب الفاطمي هنا يقصد به النسب الروحي بناء على تصور الإسماعيلية للبنوة والأبوة الروحية كما ذكرنا من قبل . انظر صفحات ٢٠٠ ـ ٢٠١ ، وانظر كذلك : طائفة الإسماعيلية ، ص ٨٢ ، ولكن يبدو أن الحسن الثاني كان يقصد أنه حفيد نزار حقيقة ، ولتفسير الصلة النسبية بينه وبين حفيد نزار المزعوم ، أورد النزارية عدة روايات مختلفة ، انظر : فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها في ضوء المراجع الفارسية (السيد محمد العزاوي) ، مطبعة جامعة عين شمس ١٩٧٠ ، ص ١٥٧ ـ ١٥٨ .

٢) وأنه نسخ حكم الشريعة .

٣) وأنه أعلن قيامة الموتى ، ونهاية الدنيا ، وأن الذين استجابوا لدعوته قد بعثوا الآن للحياة الباقية ، وإن من لم يستجيبوا له قضي عليهم بالفناء[١] . وقد فسر النزارية القيامة بأنها الوقت الذي يصل فيه الخلق إلى الحق تعالى وتظهر دقائق الحقائق ، وتتجلى بواطن الخلائق ، وفيه تتوجه القلوب إلى الله ، وتترك الرسوم الشرعية والعادات والعبادات التي التزموها مؤقتاً ، وتتوجه وجوه النفوس والأرواح إلى الحضرة الإلهية[٢] » ، وبناء على هذا اعتبروا إسقاط التكاليف الشرعية تكليفاً دينياً ، ويقال إن الحسن الثاني وابنه محمد الذي تولى الأمر من بعده (٥٦١ ــ ٦٠٧ هـ/ ١١٦٦ ــ ١٢١٠ م) كانا متشددين في فرض التعاليم الجديدة وكانا يريان أن الاستمساك بالأحكام الشرعية الظاهرة إثم لا يعدله إلا إغفالها أيام أن كان العمل بها مفروضاً بموجب التقية ، لذلك أوجبا النكال والقتل والرجم والتعذيب على كل من استمسك بحكم الشريعة في دورة القيامة أو اشتغل بالعبادة الظاهرة وواظب على الرسوم الجسمانية[٣] . وقد حل محل الشريعة عندهم ما يعرف بأركان الحقيقة : فالشهادة هي أن تعرف الله بالله (أي تعرف الله بالقائم) . والصلاة هي أن تتحدث دائماً عن عرفانك لله (أو القائم) . والصلاة هي أن تجتنب الآداب والسنن الماضية (أي الأحكام الشرعية) ، والصوم هو أن تلتزم التقية في حديثك مع المبطلين حتى تظل صائماً . والزكاة هي أن تيسر لغيرك ما يسره لك الله تعالى (من العلم والمال) ، والحج هو أن تنفض يدك من هذه الدار الفانية وتجد في طلب الدار الباقية ، والجهاد هو أن تفنى ذاتك في ذات الله[٤] . ويزعم النزارية أن التمسك بأركان

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٣٤٥ .

(٢) فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها في ضوء المراجع الفارسية (السيد محمد العزاوي) ، ص ١٧٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٧٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٧٦ .

الحقيقة أشق من التمسك بأوامر الشريعة ويقولون في ذلك : « ولكي تكون رجل حقيقة لا بد من أن تؤدي أركان الحقيقة ، فإن الوفاء بأوامر الشريعة ونواهيها وتكاليفها أيسر أمراً من أداء أركان الحقيقة ، ذلك لأن رجل الشريعة يستطيع أن يؤدي التكاليف الشرعية في ساعتين يتفرغ بعدهما للكسب وأمور الدنيا ، ومع ذلك فهو ناج بحكم الشريعة[1] » .

ولكن هذا الدور « دور القيامة » لم يستمر طويلاً ، إذا قام الحسن الثالث ـ جلال الدين ـ حفيد الحسن الثاني ، والذي تولى الخلافة عام ٦٠٧ هـ وأمر بإعادة الأمور إلى سابقها ، وألغى دور عدم القيام بالفرائض . ورد الإسماعيلية إلى عباداتهم وشعائرهم ، فأمر ببناء المساجد وإقامة الأذان للصلاة ، وقرَّب إليه الفقهاء والقراء وراسل الخليفة العبَّاسي الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢ هـ) وغيره من أمراء المسلمين وملوكهم مؤكداً لهم عودته إلى التعاليم الإسلامية والتزامه بإقامة شعائر الدين وفرائضه ، فَسُرَّ المسلمون بذلك وأطلقوا على الحسن الثالث العديد من الألقاب من بينها « المسلم الجديد » . وذهب الحسن الثالث أبعد من هذا ، فقام بإحراق كتب الحسن بن الصباح وكتب الإسماعيلية السرية أمام أحد الوفود الإسلامية الزائرة وطعن في الحسن بن الصباح وكل من تولى أمر الإسماعيلية بعده ورماهم بالكفر والإلحاد . كما بعث الحسن الثالث أمه وزوجه لأداء فريضة الحج ، وأمر ببناء التكايا على طول الطريق إلى مكة وعقد معاهدات صلح وتعاون مع كل أعدائه من الملوك والأمراء .

ولم يعجب هذا المسلك بعض أتباع الحسن الثاني ، إذ رأوا فيه خروجاً على تعاليم أئمة الدعوة الإسماعيلية السابقين ، كما أنه يقود إلى إلزامهم بالعبادات والشعائر والشرائع بعد تحللهم منها وتحررهم من الالتزام بها[2] .

---

(١) فرقة النزارية ، ص ١٧٦ .

(٢) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٤٠٨ ـ ٤٠٩ ، طائفة الإسماعيلية ، ص ٨٢ ـ ٨٣ .

فكل هذه أمور أغضبت هذه الطائفة فتآمروا على التخلص من محمد بن الحسن ، الملقب بعلاء الدين ، والذي ولي الأمر بعد وفاة أبيه عام ٦١٨ هـ ، فطعنه أحد الفدائيين فقتله عام ٦٣٥ هـ وانتهت بذلك الجهود التي بذلت لرد هذه الطائفة الضالة ، وعادت الإسماعيلية مرة أخرى إلى ما كانت عليه من إرهاب واغتيالات وانحراف عن الدين وضلال ، واستمرت جماعات الإسماعيلية منغلقة في « ألموت » تمثل جزيرة في وسط العالم الإسلامي حتى كتبت نهايتها على يد هولاكو عام (٦٥٤ هـ) الذي دمر قلاعهم من بين ما دمر من العالم الإسلامي[1] . وقد امتد نشاط الإسماعيلية النزارية من « ألموت » إلى الشام حيث ظهرت جماعات من الشيعة تبنت أسلوب الحسن بن الصباح في الاغتيالات والنهب ، ودخلوا في صراع عنيف مع سكان الشام ودمشق وحلب وما جاورهما ، وبرز من بينهم زعيم خطير اسمه راشد الدين سنان ويلقب بشيخ الجبل[2] ، سار على طريقة الحسن الثاني ، وزاد عليه بإضافة آراء جديدة إلى عقيدة الإسماعيلية كالقول بتناسخ الأرواح . ورغم أن سناناً كان معادياً لصلاح الدين الأيوبي وأنه حاول التخلص منه[3] فإن صلاح الدين استطاع أن يسوس هذه الجماعة الإرهابية ، ويستفيد منهم في حروبه مع الصليبيين[4] ، ورغم هذا

(١) جامع التواريخ (رشيد الدين فضل الله الهمذاني) مجلد ثاني ، جـ ١ ، ص ٢٤٨ ــ ٢٥٩ ، مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٤٠٠ ــ ٤٠٧ .

(٢) هو أبو الحسن بن سليمان بن محمد راشد الدين (توفي سنة ٥٥٨ هـ) كان زميلاً للحسن الثاني ، فلما تولى الأخير الولاية بعث به إلى الشام وتولى زعامة الحركة الإسماعيلية الباطنية في الشام . ويقال أن راشد الدين كان نصيرياً ثم تحول إلى الإسماعيلية . وكان على معرفة بالحيل والشعوذة ، ومن القائلين بتناسخ الأرواح ، وانتهى به الأمر إلى ادعاء النبوة ثم الألوهية وكتب رسالة يثبت فيها الألوهية لنفسه ويدافع عن ذلك . انظر : مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٣٧٨/٣٦٩ .

(٣) تاريخ أبي الفداء (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل) ، جـ ٣ ، ص ٦ .

(٤) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦/٣٨٢ .

فإن موقف سنان من الحرب ضد الصليبيين كان موقفاً مشبوهاً لا تمليه الغيرة الإسلامية ، بل الاعتبارات السياسية وحدها ، كما يقول د. عبد الرحمن بدوي ، وكذلك كان موقف الإسماعيلية في سوريا طوال الحروب الصليبية كلها : تمليه الاعتبارات السياسية الخاصة بالطائفة دون اعتبار للغيرة الإسلامية[1] . وظل أمر الإسماعيلية بالشام يضعف تارة ويقوى تارة أخرى إلى أن استسلمت آخر قلاعهم للظاهر بيبرس عام ٦٧٢ هـ .

(ب) الإسماعيلية الأغاخانية :

ابتداء من القرن السابع الهجري اختفى الإسماعيلية النزارية من الحياة العامة ولم يسمع عنهم شيء حتى القرن التاسع عشر الميلادي ، حيث ظهر في إيران رجل شيعي يدعى حسن علي شاه (١٢١٩ ـ ١٢٩٨ هـ) جمع حوله عدداً من الإسماعيلية وغيرهم وقام بأعمال هدد بها الأمن وأقلق بها السلطات في إيران حتى ذاع صيته وأصبح أسطورة على ألسنة الناس وانضمت إليه جماعات كثيرة إعجاباً به أو طمعاً في مكاسب مالية تأتيهم عن طريقه[2] . وواكب ظهور هذه الثورة التي هددت الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران ظهور الإنجليز كقوة لها مطامع في بلاد فارس ، ومن ثم اتصلوا بحسن علي شاه وعضدوه ومنوه حكم فارس . وفعلاً قام حسن علي شاه بثورة عام ١٨٤٠ م ، كانت نهايتها الفشل والقبض على قائدها . ولكن الإنجليز تدخلوا وحصلوا على أمر بالإفراج عنه بشرط أن يجلو عن إيران كلها وزين له الإنجليز الذهاب إلى أفغانستان ليكون صنيعة لهم هناك ، ولكن الأفغانيين كشفوا عن هويته واضطروه إلى الرحيل إلى الهند ، واتخذ من مدينة بومباي مقراً له . وأراد الإنجليز أن يستفيدوا منه مرة أخرى ، ومن ثم اعترفوا به إماماً للطائفة

---

(١) تاريخ أبي الفداء ، جـ ٤ ، ص ٦ ـ ٧ .

(٢) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط ٤ ، ص ٢٤١ ، طائفة الإسماعيلية ، ص ١١٠/١١١ .

الإسماعيلية النزارية وخلعوا عليه قلب أغاخان ومنحوه السلطة المطلقة على اتباعه الإسماعيلية ، فالتف حوله الإسماعيلية في الهند .

وهكذا تأسست الأسرة الأغاخانية ، وصارت لهم إمامة الإسماعيلية النزارية وانتسبوا إلى الإمام نزار بن المستنصر بالله الفاطمي[1] . وأخذ الأغاخان ينظم أتباعه ويقوم على خدمتهم حتى وفاته عام ١٨٨١ م/ ١٢٩٨ هـ ، وخلفه ابنه علي شاه في إمامة الطائفة وعرف باسم أغاخان الثاني (توفي سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٥ م) ، وكان ذا ثقافة عالية ويجيد عدة لغات من بينها العربية ، وعمل على نشر العلم بين أفراد طائفة الإسماعيلية وأنشأ عدة مدارس لهذه الغاية[2] . ثم تولى من بعده إمامة الطائفة ابنه أغاخان الثالث محمد شاه الحسيني (توفي سنة ١٩٥٧ م/ ١٣٧٧ هـ) وهو الشخصية التي ارتبطت شهرة الأغاخانية في هذا العصر بها ، إذ كان للأغاخان الثالث شهرة واسعة طبقت الآفاق ، وقد استغل هذه الشهرة وذلك النفوذ الذي اكتسبه من ثرائه وولاء أتباعه له في التمكين لطائفته ، وإبراز دوره ودورها في كثير من المجالات ، وعلى نطاق العالم الإسلامي بأسره . وكان الأغاخان الثالث يحب أن يعرف عنه أنه غيور على الإسلام وحريص على مصالح المسلمين ، وأراد أن يثبت ذلك بمحاولاته العديدة لحل مشاكل المسلمين خلال النصف الأول من هذا القرن ، إذ عرف عنه دفاعه عن الخلافة العثمانية ودفاعه عن حقوق الأتراك بعد سقوط الخلافة ، كما شارك في تأسيس الرابطة الإسلامية بالهند عام ١٩٠٧ م ، كما ساهم أغاخان الثالث في إنشاء جامعة « عليكره » الشهيرة بالهند عام ١٩١٠ م والتي تجمع في مناهجها بين العلوم الحديثة والعلوم الإسلامية والعربية .

أما فيما عدا هذا فإن معتقدات الأغاخان ومعتقدات أتباعه معتقدات باطنية باطلة ، كما أن سلوكه الأخلاقي وحياته الخاصة كان يسودها كثير من الشبهات

---

(١) طائفة الإسماعيلية ص ١١٢/١١٣ .

(٢) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط٤ ، ص٢٤١ .

والظنون . فالأغاخان نفسه من الذين يدينون بآراء وعقائد الإسماعيلية التي بشر بها الحسن الثاني[1] والتي انتهت بإبطال التكاليف ورفع الشريعة . وأتباع الطائفة الأغاخانية يدينون بهذه التعاليم بل ويعتقدون في الأغاخان أنه من نسل فاطمة بنت الرسول عليه الصلاة والسلام . ومن ثم يقولون بعصمته وتقديسه ويبلغون به في التقديس درجة الألوهية وهو نفسه يقرهم على هذا ويؤيدهم ، ولا ينفي عن نفسه ما يصنعه به أتباعه . وحينما سأل مؤرخ الإسماعيلية محمد كامل حسين ، الأغاخان الثالث قائلاً : لقد أدهشتني بثقافتك وعقليتك فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إلهاً ؟ ضحك الأغاخان طويلاً ، كما يقول محمد حسين ، وعلت قهقهاته ودمعت عيناه من كثرة الضحك ثم قال : هل تريد الإجابة على هذا السؤال ؟ إن القوم في الهند يعبدون البقرة ! ألست خيراً من البقرة[2] ؟

وحياة الأغاخان الشخصية كانت انعكاساً لهذا الضلال في المعتقد والفساد في المذهب ، إذ أنه اشتهر بحياته الصاخبة التي كان ينفقها بين موائد القمار وأروقة سباق الخيل وارتياد أماكن اللهو المشبوهة ، كما عرف عنه أنه كان في شبابه زير نساء يتنقل بين الغانيات وبائعات الهوى ، وحتى زيجاته المشروعة تعكس هذه الروح اللاهية العابثة ، إذ أن من بين زوجاته الأربع نجد عارضة الأزياء ، وفتاة من بائعات الحلوى والسجائر[3] . وهكذا كان الأغاخان رجلاً دنيوي المظهر إلى حد كبير ، ومشبعاً بأفكار الثقافة العصرية ، ولا شيء في مظهره يذكرنا بمبادئ المذهب الذي ينبغي أن يمثله[4] . وقد وصفه سومرست موم في تقديمه لمذكرات الأغاخان : « بأنه من عظماء رواد المسرح فقد أحب الأوبرا ورقص الأوبرا وهو إلى ذلك قارئ مواظب مجد ، عمل بأمور وقضايا كان يتوقف

---

(١) انظر صفحات ٢٣٣ ــ ٢٣٤ من هذا الكتاب .

(٢) طائفة الإسماعيلية ، ص ١٢٦ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٠ ــ ١٢١ .

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام «جولد زيهر» ، ص ٢٤٥ ــ ٢٤٦ .

عليها مصير أمم عديدة . وعني بتربية الجياد وجريها في حلبات السباق . وكانت له صداقات مع ملوك وأمراء يجري في عروقهم دم ملكي ومع مهراجات ونـواب ملوك وفيلد مارشالات وممثلين وممثلات ، ومدربين ومحتـرفي جـولف وكواكب ومنظمي حفلات اجتماعية . وفضلاً عن ذلك فقد أسس جامعة وسـعى بـوصفه رئيساً للطائفة الإسماعيلية الواسعة الانتشار سعياً حثيثاً طيلـة حيـاته لـكي يـزيد مادياً وروحياً رفاهية أتباعه العديدين[١] » .

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأغاخان هذا صنيعة للإنجليز وقد استغلوه إلى حد كبير في تثبيت أقدامهم في الهند . إذ كان هو وأتبـاعه ممـن يـؤيدون سـيادة الإنجليز على الهند . وقد وصف الأغاخان في بيان له رغبة الهنود في الاسـتقلال بأنها رغبة طائشة حمقاء ونزعة متهوسة سابقة لأوانها ، في الوقت الذي أبرز فيـه مزايا ومنافع حكم الإنجليز للهند[٢] . وقد توفي الأغاخان الثـالث بسـويسرا عـام ١٩٥٧ م ونقل جثمانه إلى أسوان ودفن بهـا . وقـد أوصى الأغـاخان الثـالـث أن يكون الإمام من بعده حفيده « كريم خان الحسيني » .

ورغم أن أئمة الأغاخانية يعيشون حيـاة البـذخ والتـرف في العـواصم الأوربية ورغم الصورة اللاهية التي يظهر بها أولئك الأئمة ، فإن أتباعهم لا زالوا يقدسونهم ويضفون عليهم العصمة وصفات الألوهية ، ويدفعون لهـم خمس مـا يكسبون حتى أصبح الأغاخان من أثرى أثرياء العـالم . ويتخـذ الأغـاخانية مـن « كراتشي » مركزاً لقيادتهم ، وينتشر أتبـاعهم في شرق إفـريقيا في نيروبـي ، ودار السلام وزنجبار وفي مدغشقر والكنغو والهند وباكستان ، كما توجد أقليات منهم في سوريا ولبنان . ويبلغ مقدارهم قرابة عشرين مليوناً ، ويعتبـرون « كريـم خـان الحسيني » الخليفة الثامن والأربعين في سلسلة الأئمة الإسماعيلية[٣] .

---

(١) مذكرات أغاخان ، دار العلم للملايين ، ط. أولى ١٩٥٩ ، ص ١٦/١٥ .

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام ، ص ١٤٦ .

(٣) الإسماعيليون عبر التاريخ (سليم حسن هش) « ١٩٦٩ » ص ١١٧ .

(الفصل السابع)

النصيرية «العلويون» أصولهم وعقائدهم

أصل طائفة النصيرية[1] :

يدعى النصيرية الانتماء إلى الشيعة الإمامية الاثني عشرية ، ولكنهم في واقع الأمر يعدون من غلاة الشيعة الباطنية الذين تبنوا آراء منحرفة وعقائد باطلة انتهت بهم إلى الخروج من الإسلام . وهناك خلاف حول نسبة النصيريين هل إلى الجبال التي يقيمون فيها ؟ أم إلى « النصارى » ، للقرابة التي توجد بين معتقدات النصارى والنصيرية ، أم إلى شخص يدعى ابن نصير ؟ ويبدو أن هذا الرأي الأخير أقرب الآراء إلى الصحة ، إذ أنه يتفق مع النسق العام الذي ينسب معظم الفرق إلى أسماء مؤسسيها[2] . وهناك أيضاً خلاف حول هوية ابن نصير الذي تنسب إليه هذه الطائفة ، فبينما يذهب البعض إلى أن ابن نصير هذا كان

---

(١) النصيرية أنفسهم يرفضون هذه التسمية ويطلقون على أنفسهم اسم « العلويين » لأنهم من الطوائف التي تؤله أو تقدس علياً بن أبي طالب وتعبده ، ويذهب النصيرية إلى أن هذا هو الاسم الأصلي للطائفة ولكن الأتراك حرموهم من هذا الاسم وأطلقوا عليهم اسم النصيرية نسبة إلى الجبال التي يسكنونها نكاية بهم واحتقاراً لهم . وأن الفرنسيين عند انتدابهم على سوريا في بداية هذا القرن أعادوا الاسم القديم للطائفة ، وأصدروا مرسوماً في ١٩٢٠/٩/١م سميت بموجبه جبال النصيرية بأراضي العلويين المستقلة ، انظر تاريخ العلويين ، ص. ٤٠١ وما بعدها .

(٢) انظر طائفة النصيرية (د. سليمان الحلبي) ، ص ٣٦/٣٣ .

غلاماً لعلي بن أبي طالب ومن ثم تعد هذه الفرقة من أوائل الفرق الغالية ، يذهب رأي آخر ، ويبدو عليه الرجحان ، إلى أن ابن نصير مؤسس هذه الفرقة هو أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري ، الذي كان مولى أو من أصحاب الحسن العسكري الإمام الحادي عشر للشيعة الإمامية الاثنا عشرية. ويقال إنه لما مات الحسن ، ادعى ابن نصير أنه وكيل لابن الحسن « محمد » أو الباب له[1]،ثم ادعى أنه رسول الله وأنه نبي من قبل الله تعالى ، وأنه أرسله علي بن محمد الرضا ، وجحد إمامة الحسن العسكري وإمامة ابنه ، وادعى بعد ذلك الربوبية وقال بإباحة المحارم[2] . ويذكر سعد القمي في كتابه « المقالات والفرق » عن اتباع محمد بن نصير فيقول : « وقد شذت فرقة من القائلين بإمامة

---

(١) يذهب الشيعة إلى أن لكل إمام باب ، وأن أبواب الأئمة كانوا على النحو التالي :

١) علي وبابه سلمان الفارسي .
٢) الحسن وبابه قيس بن ورقة المعروف بالسفينة .
٣) الحسين وبابه رشيد الهجري .
٤) علي زين العابدين وبابه عبد الله الغالب الكابلي .
٥) محمد الباقر وبابه يحيى بن معمر بن أم الطويل .
٦) جعفر الصادق وبابه جابر بن يزيد الجعفي .
٧) موسى الكاظم وبابه محمد بن أبي زينب الكاهلي .
٨) علي الرضا وبابه المفضل بن عمر .
٩) محمد الجواد وبابه محمد بن المفضل بن عمر .
١٠) علي الهادي وبابه عمر بن الفرات المشهور بالكاتب .
١١) الحسن العسكري وبابه أبو شعيب محمد بن نصير البصري النميري .

أما الإمام الثاني عشر : محمد المهدي بن الحسن العسكري ، فلم يكن له باب ــ كما يدعي النصيريون ــ بل بقيت صفة الباب مع أبي شعيب محمد بن نصير . . انظر تاريخ العلويين ، ص ٢٠٢/٢٠١ ، ولكن الشيعة الإمامية الاثنا عشرية لم تقر لأبي شعيب محمد بن نصير بهذه الصفة فانفصل عنهم وأسس طائفة النصيرية المنسوبة إليه . . ثم علل اتباعه انفصالهم فيما بعد . . بقولهم أنه لا يمكنهم أن يبقوا بدون مرجع ظاهر يعتقدون به . . انظر تاريخ العلويين ، ص ٢٠٠ .

(٢) شرح نهج البلاغة (ابن أبي الحديد) ، ج ٨ ، ص ١٢٢ .

علي بن محمد (علي الهادي)، في حياته فقالت بنبوّة رجل يقال له محمد بن نصير النميري، كان يدعي أنه نبي رسول وأن علي بن محمد العسكري أرسله، وكان يقول بالتناسخ ويغلو في أبي الحسن، ويقول فيه بالربوبية، ويقول بالإباحة للمحارم ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضاً في أدبارهم، ويزعم أن ذلك من التواضع والتذلل والأخبات في المفعول به وأنه من الفاعل والمفعول به إحدى الشهوات والطيّبات، وأن الله لم يحرم شيئاً من ذلك[1]. وظل ابن نصير المرجع الأول للمذهب النصيري إلى أن هلك عام ٢٦٠ هـ[2].

ثم تولى المذهب بعد ابن نصير، أبو محمد عبد الله بن محمد الحنّان الجنبلاني، الذي عاش في القرن الثالث الهجري في جُنْبلا بإيران، وكان عالم المذهب ورئيس النصيرية وداعيتهم، وله طريقة صوفية بين النصيرية تعرف باسمه هي «الطريقة الجُنْبلانيّة»، ثم رحل الجنبلاني إلى مصر فتبعه جماعة من بينهم الحسين بن حمدان الخصيبي (٢٦٠ ــ ٣٤٦ هـ). وبعد وفاة الجنبلاني سنة ٢٨٧ هـ، أصبح الخصيبي المرجع الأعلى للمذهب النصيري، وقد اتخذ مقره في بغداد، ثم أخذ يتنقل بين الأتباع وأخيراً إستقر به المقام في مدينة حلب بسوريا. ويعتبر الخصيبي المؤسس الحقيقي للفكر النصيري، وأشهر من صنف في عقائدهم. وبعد وفاة الخصيبي أصبح للنصيرية مركزان: الأول والأعظم في حلب ويرأسه الشيخ (محمد بن علي الجلي) الذي خلف الخصيبي، والثاني

---

(١) المقالات والفرق (سعد القمي)، ص ١٠٠، ويقال إن أبي محمد الحسن العسكري تبرأ من ابن نصير وأمثاله من غلاة الشيعة، وأنه كتب إلى أحد مواليه قائلاً: إني أبرأ إلى الله من ابن نصير الفهري وابن بابا القمي، فأبرأ منهما وإني محذرك وجميع موالي ومخبرك أني ألعنهما ــ عليهما لعنة الله ــ فتّانين مؤذين أذاهما الله وأرسلهما في اللعنة وأركسهما في الفتنة..». انظر: الشيعة في التاريخ (الشيخ حسين الزين) دار الآثار للطباعة والنشر، بيروت، ط. أولى (١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م)، ص ٢٢٥.

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب)، ص ٢٧٢.

في بغداد ويرأسه الشيخ (علي بن الجسري)، ثم انتقل مركز ثقلهم إلى جهات اللاذقية والجبال المسماة الآن باسمهم[1].

ولعل أقدم مصدر يشير إلى النصيرية كفرقة كتاب الملل والنحل، للشهرستاني (٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ)، ولكن وردت إشارة عند كل من القُمِّي[2]، والأشعري[3]، والبغدادي[4] إلى ما أسموه بالنميرية من الرافضة ونسبوا إليهم دعوى أن الله حَلَّ في زعيمهم النميري. والنميرية وفقاً لرواية الأشعري والبغدادي يتبعون في الأصل جماعة الشريعية، اتباع رجل يعرف بالشريعي، وزعم الشريعية أن الله حل في خمسة أشخاص: في النبي وعلي والحسن والحسين وفاطمة، وأن هؤلاء آلهة عندهم، وأن لهذه الآلهة أضداداً خمسة، وانتهى الشريعي بدعواه حلول الله فيه. فإذا علمنا أن دعوى حلول الله في الأشخاص تمثل جوهر المذهب النصيري، فمن المحتمل أن تكون النميرية المشار إليها هي النصيرية، وأن الطائفة كانت تعرف بهذا الاسم ثم عرفت باسم النصيرية، وكلاهما من نسب محمد بن نصير النميري كما ذُكِرَ من قبل.

عقائد النصيرية:

النصيرية من الفرق الباطنية التي تحرص دائماً على أن تكون معتقداتها وطقوسها في دائرة الكتمان. ولكن لحسن الحظ قد حفظ لنا كل من

(١) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب)، ص ٢٧٢. أنظر «كتاب مجموع الأعياد والطريقة الخصيبية» لأبي سعيد ميمون بن قاسم الطبراني (٣٥٨ ـ ٤٢٦ هـ) (عبد الحميد الدجيلي)، مجلة المجمع العلمي العراقي، مجلد ٤، جـ١ (١٣٧٥/ ١٩٥٦) ص ٦١٨ ـ ٦٢٩.

(٢) المقالات والفرق (سعد القمي) ص ١٠٠/١٠١.

(٣) مقالات الإسلاميين، ص ١٥.

(٤) الفرق بين الفرق، ص ٢٥٢.

الشهرستاني[1] وابن تيمية[2] جانباً هاماً من عقائد هذه الطائفة وتاريخها . وتتمثل عقائد النصيرية فيما يلي :

ــ يعتقد النصيرية بأن الله يحل في الأشخاص ، وأن آخر حلول له كان في علي بن أبي طالب ، ومن ثم فهم يعتقدون أنه إله ويدينون له بالعبودية من دون الله تعالى . وقد دافع النصيرية عن فكرة الحلول هذه وإمكانية تحققها بأن قالوا : « إن ظهور الروحاني بالجسد الجسماني أمر لا ينكره عاقل . أما في جانب الخير فكظهور جبريل عليه السلام ببعض الأشخاص ، والتصور بصورة أعرابي ، والتمثل بصورة البشر ، وأما في جانب الشر فكظهور الشيطان بصورة الإنسان حتى يعمل الشر بصورته ، وظهور الجن بصورة البشر حتى يتكلم بلسانه ، فلذلك نقول إن الله تعالى ظهر بصورة أشخاص[3] » . والمقارنة بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة والجن والشياطين مقارنة غير صحيحة وقياسه تعالى إليها قياس فاسد ، لأن هذه جميعها مخلوقات له سبحانه منحها خصائص معينة من بينها قدرتها على التشكل في هذه الصور ، أما الله سبحانه وتعالى فمنزه عن المشابهة والمشاكلة لسائر المخلوقات ، متفرد في ذاته وصفاته وأفعاله ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[4] .

ويذهب النصيرية إلى أن هذا التجلي أو الحلول قد حدث في سلسلة من الأشخاص ، تبتدئ بشيث وتنتهي بعلي بن أبي طالب ، ويطلقون على الشخص الذي تجلى الله تعالى فيه « المعنى » ، وعلى واسطة هذا التجلي « الاسم » ، وهكذا فالاسم عندهم في أول الناس آدم والمعنى شيث ، والاسم يعقوب والمعنى هو يوسف ويستدلون على هذا ، كما يزعمون ، بما ورد في القرآن العظيم حكاية

---

(١) الملل والنحل (الشهرستاني) جـ ١ ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .
(٢) الفتاوى (ابن تيمية) مجلد ٣٥ ، ص ١٤٥ ــ ١٦٠ .
(٣) الملل والنحل (الشهرستاني) ، جـ ١ ، ص ١٨٨ .
(٤) سورة الشورى ، الآية ١١ .

عن يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام فيقولون : أما يعقوب فإنه كان « الاسم » فما قدر أن يتعدى منزلته فقال : ﴿ سوف أستغفر لكم ربي ﴾ ، وأما يوسف فكان « المعنى » المطلوب فقال : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ﴾ ، فلم يعلق الأمر بغيره لأنه علم أنه هو الإمام المتصرف . ويجعلون موسى هو الاسم ويوشع هو المعنى ، ويقولون : يوشع ردت له الشمس لَـمَّا أمرها فأطاعت أمره ، وهل ترد الشمس إلا لربها !! ويجعلون سليمان هو الاسم ، والمعنى آصف (الرجل المؤمن الذي أحضر لسليمان عليه السلام عرش بلقيس ، ولم يذكر في القرآن اسمه)[1] ، ويقولون سليمان عجز عن إحضار عرش بلقيس بينما قدر عليه آصف ، لأن سليمان كان الصورة وآصف كان المعنى القادر والمقتدر . . . ويعدون الأنبياء والمرسلين واحداً واحداً على هذا النمط إلى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون محمد هو الاسم ، وعلي هو المعنى ، ويوصلون العدد على هذا الترتيب في كل زمان إلى وقتنا هذا[2] » .

ويبرر النصيرية دعواهم بحلول الله تعالى في عَليٍّ والأئمة من بعده بأنهم أفضل الخلق بعد الرسول عليه الصلاة والسلام ، فلما لم يكن بعد الرسول صلى الله عليه وسلم شخص أفضل من علي وبعده أولاده المخصوصون هم خير البرية ، فظهر الحق بصورتهم ، ونطق بلسانهم وأخذ بأيديهم ، فعن هذا أطلقنا اسم الإلهية عليهم . ولكن إذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام أفضل من عَليٍّ ، كما يعترف النصيرية ، فلماذا لم يظهر الله تعالى في صورة من هو أفضل وهو محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

والذي يبدو من النصوص الأخرى للنصيرية ، أنهم يفضلون علياً على النبي عليه الصلاة والسلام ، ويجعلونه في درجة أعلى منه ، وفي هذا يستشهدون

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ، جـ ٣ ، ص ٣٦٤ .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) مجلد ٣٥ ، ص ١٤٦ .

ببعض النصوص التي أوردها الشيعة في فضل علي ، ويفسرونها تفسيراً باطنياً لتتفق مع عقيدتهم العامة في تأليه علي .

ومما أوردوه في هذا المجال أن علياً كان مخصوصاً بتأييد إلٰهي من عند الله تعالى فيما يتعلق بباطن الأسرار . أما النبي فلم يكن له سوى الحكم بالظاهر وأوردوا في هذا نصاً زعموا أنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »* . وبنوا على ذلك ما اعتبروه حجة لهم من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقاتل المشركين الذين كفرهم ظاهر . أما علي فقد كان يقاتل المنافقين الذين يبطنون الكفر ، وعقد النصيرية مشابهة بين علي وعيسى عليه السلام ، الذي زعمت النصارى أن الله حَلَّ فيه ، ولكن يبدو أنهم خشوا من أن يرموا بالكفر كما كُفِّرَت النصارى بدعواها هذه ، ومن ثم أورد النصيرية نصاً مكذوباً نسبوه للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه لعلي : لولا أن يقول الناس فيك ما قالوا في عيسى بن مريم عليه السلام ، لقلت فيك مقالا . وزعموا أن هذا النص يتضمن مشابهة بين علي وعيسى عليه السلام . كما زعمت النصيرية أيضاً أن علياً كان عالماً بالتأويل ، ومشاركاً من ثَمَّ للرسول صلى الله عليه وسلم في رسالته ، وأوردوا في هذا حديثاً مكذوباً أيضاً يقول : « فيكم من يقاتل على تأويله كما قاتلت على تنزيله وهو خاصف النعل » ، وأضاف النصيرية إلى ذلك مكالمة علي للجن وقلعه باب خيبر ، كأدلة على أن في عَليٍّ جزءاً إلٰهياً وقوة ربانية ويكون هو الذي ظهر الإلٰه بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه[1] » .

وهكذا يذهب النصيرية إلى أن « علياً » حل فيه جزء من الله تعالى ، وكانت الحكمة من ظهور الإلٰه في الجسم الإنساني ، على رأيهم ، هي أن يؤنس خلقه

(١) الملل والنحل ، ج ١ ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

(*) حديث أمرت أن أحكم بالظاهر . . . إلخ ، لا يعرف . قال السيوطي : هذا من كلام الشافعي في الرسالة . . انظر : الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة ، ص ٧٠ .

وعبيده ليعلمهم كيف يعرفونه ويعبدونه . ويذهب النصيرية أبعد من هذا ، فيزعمون أن علياً كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وينسبون إلى علي قوله « كنا أظلةً عن يمين العرش فسبحنا فسبحت الملائكة بتسبيحنا » ، وتلك الظلال وتلك الصور التي تنبئ عن الظلال هي حقيقة ، وهي مشرقة بنور الرب تعالى إشراقاً لا ينفصل عنها سواءً كانت في هذا العالم أو في ذلك العالم وعن هذا قال علي رضي الله عنه « أنا من أحمد كالضوء من الضوء » يعني لا فرق بين النورين إلا أن أحدهما سابق والثاني لاحق به تال له ، قالوا : وهذا يدل على نوع من الشركة[1] . ويتضح من هذه الأقوال أن النصيرية وجدوا فيما كتبه الشيعة عن فضائل علي ، وما وضعوه من أحاديث وما اختلقوا من أحداث مصدراً ثَرّاً بنوا عليه آراءهم المنحرفة واعتقاداتهم الضالة : من القول بألوهية علي وحلول الله فيه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ويبدو أنه قد حدث تطور في عقائد النصيرية نتيجة لاتصالهم ببعض المذاهب ، واطلاعهم على بعض الفلسفات القديمة ، ومن ثم جاءت آراؤهم في صورتها الأخيرة خليطاً من المعتقدات النصرانية ، والمجوسية ، والسبئية ونظريات الفلسفة اليونانية ، وبعض معتقدات الشيعة ومذاهبهم . فبالإضافة إلى قولهم بحلول الله تعالى في الأجسام وأنه تعالى حلَّ في علي ومن ثم ينبغي عبادته ، وأنه الإمام في الظاهر والباطن ، ذهب النصيرية إلى القول بما يشبه عقيدة التثليث عند النصارى . إذ أنهم ألفوا ثالوثاً يتكون من علي ، ومحمد وسلمان الفارسي ، واتخذوا من ذلك شعاراً يتكون من الحروف الثلاثة (ع . م . س) وسموه (سر عقد ع . م . س) وهو يرمز إلى المعنى ، والاسم ، والباب . فعلي المعنى أو الغيب المطلق (أي الله) ، ومحمد الاسم أو صورة

---

(١) الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ١٨٩ ، قارن هذا بما أورده ابن تيمية عن الشيعة وزعمهم أن علياً كان نوراً قبل خلق الكائنات ، منهاج السنَّة النبوية ، جـ ٣ ، ص ١٠ ، وانظر أيضاً ص ١٣٨ ــ ١٣٩ من هذا الكتاب .

الاسم الظاهر، وسلمان هو الباب أو الطريق الذي يوصل إلى المعنى[1].
ولسلمان الفارسي منزلة خاصة عند النصيرية، كما له منزلة خاصة عند الشيعة، إذ ينزلونه منزلة الملك جبريل، ويذهبون إلى أنه هو الذي حمل القرآن كله إلى محمد صلى الله عليه وسلم، ويذهب النصيرية إلى أن العلاقة بين أطراف هذا الثالوث علاقة إيجاد، فعلي في زعمهم خلق محمداً، ومحمد خلق سلمان الفارسي، وسلمان الفارسي خلق من أسموهم الأيتام الخمسة ويقصدون بهم: المقداد بن الأسود وأبا ذر الغفاري، وعثمان بن مظعون، وعبد الله بن رواحة، وقنبر بن كادان مولى علي[2] !!!. وصوروا هؤلاء في صورة الملائكة أو الكواكب، وأوكلوا إليهم مسئوليات معيّنة في تصريف الكون، فالمقداد موكول إليه الرعد والصواعق والزلازل، وأبو ذر موكل بالرياح وقبض أرواح البشر، وعثمان بن مظعون موكل بالمعدة وحرارة الجسم وأمراض الإنسان، وقنبر بن كادان موكل بنفخ الأرواح في الأجسام[3]. وذهب النصيرية إلى أن هؤلاء الأيتام الخمسة، ومعهم النقباء الاثني عشر (أئمة الشيعة الاثنا عشرية)، يظهرون مع الرب والحجاب في كل كور ودَوْر أبداً سرمداً على الدوام والاستمرار[4].

وتصور النصيرية للثالوث (ع. م. س) ربما يكون مستمداً من النصرانية، أو بعض الأصول الوثنية السورية القديمة التي تجعل من الشمس والقمر والسماء ثالوثاً يعبدونه، وقد وردت إشارات إلى هذا الثالوث الوثني عند بعض

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٨٨، إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة)، ط(أ) ص ٢٢٦.

(٢) إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة) ط٤، ص ٣٤٢/٣٤١، نقلاً عن الباكورة السليمانية. مذاهب الإسلاميين (بدوي)، جـ ٢، ص ٤٨٨.

(٣) الجذور التاريخية للنصيرية (إعداد عبد الله الحسين)، ص ١٢٥/١٢٤، إسلام بلا مذاهب ط(أ). ص ٢٢٧.

(٤) الفتاوى (ابن تيمية)، مجلد ٣٥، ص ١٤٧.

شعراء النصيرية[1] . وقد تأثر النصيرية أيضاً ببعض الفلسفات والمذاهب الهندية في التناسخ ، فقالوا بالتقمص (التناسخ) ، وذهبوا إلى أن البشر كانوا كواكب ألقت بهم الخطيئة إلى الأرض فينبغي أن تنتقل أرواحهم من جسد إلى جسد آخر سبع مرات فإن كانت صالحة فإنها تذهب إلى الشمس أو الإلـه أو الكواكب ، وإن كانت شريرة فإنها تدخل في جسم امرأة أو تحل في الحيوانات النجسة كالخنازير والقردة ، أو تحل في جسد إنسان سيئ ، وبعد أن تتخلص من الشرور تعود للدخول في الأجسام البشرية المتألمة أو في أجساد الخيّرين ، ثم تعود إلى مكانها في السماء بعد أن تكون قد انصقلت[2] . وفي نص آخر ، يذهب النصيرية إلى أن المؤمن عندهم يتحول سبع مرات قبل أن يأخذ مكانه بين النجوم ، فإن الإنسان إذا مات شريراً وُلِدَ من جديد نصرانياً أو مسلماً حتى يتطهر ويُكفّر عن سيّئاته ، أما الذين لا يعبدون علياً فيولدون من جديد على شكل كلاب أو إبل أو بغال أو حمير أو أغنام !![3] . وتبعاً لهذا التصور فقد أنكر النصيرية البعث والحساب ، وذهبوا إلى أن الجنة والنار تكونان في هذه الحياة الدنيا فحسب[4] . وأخيراً فإن النصيرية يشتركون مع غلاة الشيعة عامة في سب الصحابة ولعنهم ، ويمدون هذا السباب وهذه اللعنات لتشمل بعض الصوفية وعلماء المذاهب الفقهية وكل من خالفهم في مذهبهم ، لأن هؤلاء في زعمهم يأكلون من خيرات علي ويعبدون غيره !!![5] . ويمجد النصيرية ابن ملجم قاتل علي ويقولون أنه خلص اللاهوت من الناسوت .

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية ، ص ١٠٧ ، نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية ، مادة (النصيري) ماسنيون .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٢٥ .

(٣) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٤٨٩ .

(٤) الفتاوى (ابن تيمية) مجلد ٣٥ ، ص ١٤٥ .

(٥) الجذور التاريخية للنصيرية ، ص ١٢٥ ـ ١٢٦ ، إسلام بلا مذاهب ط(أ) ، ص ٢٢٧/٢٢٨ .

موقف النصيرية من الشريعة :

ينهج النصيرية نهجاً باطنياً يتمثل في تأويل شعائر الشريعة وأحكامها تأويلاً باطنياً يخرجها عن مفهومها الشرعي ، وينتهي إلى التحلل منها وعدم القيام بواجباتها ، وهم في هذا يتفقون مع التيار الباطني العام[1] ، الذي يهدف إلى إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق ، والتظاهر بأن لألفاظ الشرع حقائق يعرفونها هم وحدهم دون غيرهم . وقد طبق النصيرية هذا المنهج التأويلي الباطني على كل شعائر الإسلام ، من صلاة وصوم وزكاة وحج إلخ . . .

فالصلاة مثلاً لهم فيها عدة آراء تقود جميعها إلى إبطالها أو أدائها بصورة مختلفة عن الصورة التي أتت بها الشريعة . فيذهب بعضهم مثلاً إلى القول بأن الصلوات عبارة عن خمسة أسماء وهي : علي وحسن وحسين ومحسن وفاطمة . وأن ذكر هذه الأسماء الخمسة في رأيهم ، يجزيهم عن الغسل من الجنابة والوضوء وبقية شروط الصلاة وواجباتها . ويجعل بعضهم كل فرض من فروض الصلاة لواحد من بيت النبوة ، ويربطون بين عدد ركعات الفريضة وعدد حروف اسم من تؤدى له الصلاة : فيقولون الظهر أربع ركعات وتصلى باسم « محمد » والعصر أربع ركعات وتصلى باسم « فاطم » أي « فاطمة » ، والمغرب ثلاث ركعات وتصلى باسم « الحسن » ، والعشاء أربع ركعات وتصلى باسم « الحسين » ، وأما الصبح فركعتان ، وبعضهم يجعلها لعلي ، والبعض الآخر يصليها باسم « محسن » (السر الخفي) ، وقد جعلت له الصلاة ركعتين لأنه سَقْط (أي جنين غير مكتمل) . ويزعم الذين يأخذون بهذه العقيدة أنَّ عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد ضرب فاطمة على ظهرها فأجهضت به[2] . وهذه لا شك فرية لا أساس لها من الصحة ولا سند لها من التاريخ . ويفسر بعض

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب) ، ص ٢٨٥ .

(٢) إسلام بلا مذاهب ط. (أ) ص ٢٣٣/٢٣٤ .

النصيرية الصلاة بأنها عبارة عن معرفة أسرارهم ، ومن يؤديها منهم فإنه يؤديها من غير طهارة ومن غير سجود ولا ركوع في غالب الأحيان ، كما أنهم لا يشترطون الاتجاه إلى القبلة في صلاة الجماعة باستثناء الإمام وحده ، ولا يصلون الجمعة ولا يقولون بأنها فريضة ، ويهتمون بصلاة العيدين ولكنهم لا يستقبلون القبلة فيها أيضاً . ويؤدون صلواتهم جميعها في البيوت ، وليست لهم مساجد يحرصون على الصلاة فيها . وقد قامت محاولات وبذلت جهود من قبل كل من صلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، ومدحت باشا ، وإبراهيم باشا العثمانِيّيْن ، لإصلاح النصيرية وردهم عن غيهم ، فبنيت لهم المساجد والمدارس وشُجِّعُوا على التعليم وإقامة الصلوات في المساجد ، وكان النصيريون يلتزمون بهذا لفترة يعودون بعدها إلى ماكانوا عليه فيخربون المساجد ويجعلونها حظائر لمواشيهم ، وقد حكى ابن بطوطة ذلك عنهم فقال : « إنهم يعتقدون أن علي بن أبي طالب إله وهم لا يصلون ولا يتطهرون ولا يصومون ، وكان الملك الظاهر بيبرس ، ألزمهم بناء المساجد بقراهم فبنوا في كل قرية مسجداً بعيداً عن العمارة ولا يدخلونه ولا يعمرونه ، وربما أوت إليه مواشيهم ودوابهم ، وربما وصل الغريب إليهم ، فينزل بالمسجد ، فيُؤذن للصلاة ، فيقولون : « لا تنهق علفك يأتيك »[1] . .

أما الزكاة فإن النصيرية يقرون بها ، ولكنهم يضيفون إليها الخمس المعروف عند الشيعة ويتولون دفعه لآل البيت ، ومشايخ النصيرية المعاصرين يجعلون الخمس لأنفسهم ، وهو عبارة عن حصص من الحيوان والمحاصيل ومهور البنات . ويذهب دكتور مصطفى الشكعة ، إلى أن هذا ربما كان من أسباب

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى (القاهرة ١٩٣٩) ، ج ١ ، ص ٦٥ .

حرص المشايخ على أن يظل العوام من العلويين « النصيرية » في هذا الإطار المتداعي من العقيدة حتى يستطيعوا أن يستغلوهم[1] .

أما الصوم فهم مختلفون فيه أيضاً فيفسره بعضهم بأنه كتمان أسرارهم ، وأنه عبارة عن ذكر اسم ثلاثين رجلاً واسم ثلاثين امرأة معروفة لديهم[2] . ومن يَصُمْ من النصيرية فإنه يخالف المسلمين في أداء هذه الفريضة ، إذ يصوم بعضهم قبل صلاة الفجر ويفطر قبل غروب الشمس . ويضيف إليه بعضهم البعد عن معاشرة النساء طوال الشهر ، ويقولون إن كل ساعة صوم لملك من الملائكة المقربين المذكورين في القرآن . وهناك فريق منهم يفسر الصوم على أنه صون ، أي امتناع عن النساء طوال شهر رمضان ، وليس امتناعاً عن الطعام والشراب وما شاكلهما[3] .

وأما الحج عندهم فهو كفر وعبادة أصنام ومن ثم لا يقومون به . والجهاد عبارة عن صب اللعنات على الخصوم وفشاة الأسرار ، والولاية والإخلاص للأسرة العلوية وكراهية خصومها . والشهادة هي أن تشير إلى صيغة (ع . م . س) ، والقرآن عبارة عن مدخل لتعلم الإخلاص لعلي . ويعتقدون بأن سلمان ، (تحت اسم جبريل) ، قد قام بتعليم محمد صلى الله عليه وسلم القرآن[4] . وللنصيرية الآن بدلا من القرآن كتاب يسمونه (المجموع) مكون من ست عشرة سورة تدور كلها حول تأليه علي بن أبي طالب . ومما جاء في إحدى سوره وهي السورة التاسعة واسمها « العين العلوية » « بسر العين العلوية الذاتية الظاهرة الأنزعية ، بسر الميم المحمدية الهاشمية الملكوتية الحجابية القرصية النورانية ، بسر السين السلسلية الجبرائيلية السلمانية البابية البكرية النميرية

---

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط(أ) ، ص ٢٣٤ .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) ، مجلد ٣٥ ، ص ١٤٥ .

(٣) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط(أ) ، ص ٢٣٤ .

(٤) Encyclopedia of Islam (s), art. Nusairi», P. 455 .

النصيرية ، بسرع . م. س . »[1] . ويذهب النصيرية إلى استحلال الخمر وتقديسها وتعظيمها ويرون أنها من النور ، وتبعاً لذلك يعظمون شجرة العنب « الكرم » التي هي أصل الخمر ويستعظمون قلعها[2] .

وأعياد النصيرية كعقائدهم ، خليط من أعياد النصارى والشيعة والمجوس والمسلمين . فهم يحتفلون بعيد الفطر والأضحى ، ولكن عيد الفطر عندهم لا يأتي بعد رمضان بل بعد الصوم الذي يعتقدونه ويؤدونه بطريقتهم . وكذلك عيد الأضحى يحتفلون به في الثاني عشر من ذي الحجة بدلا من العاشر . ولهم أعياد تدل على ارتباطهم بالشيعة كعيد الفراش ، وهو ذكرى مبيت علي في فراش الرسول عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة من مكة إلى المدينة . وعيد عاشوراء في العاشر من محرم ذكرى مقتل الحسين بن علي بكربلاء . والنصيرية يعتقدون أن الحسين لم يمت بل اختفى مثل عيسى بن مريم . ويحتفلون في الخامس عشر من شعبان بذكرى وفاة سلمان الفارسي . وبعيد الغدير الثاني في التاسع من ربيع الأول . ومن أعيادهم الفارسية عيد النوروز في أول الربيع ، وعيد المهرجان في أول الخريف ، كما يشاركون النصارى في الاحتفال بعيد الميلاد وعيد الغطاس ، والعنصرة والبربارا[3] .

ودعوة النصيرية دعوة سرية خاصة مقصورة على النصيريين ، ولا يسمحون لغير النصيري أن يدخل فيها إلا بشروط قاسية واختبارات شديدة ، وحتى النصيري لا يباح له سر الدعوة إلا بعد أن يبلغ الثامنة عشر من العمر . ولهم طقوس خاصة يمر فيها الشخص بمراحل عديدة ويخضع لضغوط نفسية وحالة

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية ، ص ١٦٥ .

(٢) صبح الأعشى (القلقشندي ، جـ ١٣ ، ص ٢٥٠ .

(٣) مجموع الأعياد والطريقة الخصيبية (عبد الحميد الدجيلي) ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، مجلد ٤ ، جـ ١ ، ص ٦٢٥ ــ ٦٢٩ . مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٤٥٨/٤٦٢ .

من الإرهاب والتخويف ، وعندها تملي عليه العقيدة ويؤخذ عليه العهد والمواثيق بكتمان سرها ومن يبح بهذا السر يكون مصيره القتل[1] . ويشترطون أن يمر من يريد الدخول في الدعوة النصيرية من الرجال بمراحل ثلاث . . المرحلة الأولى يسمونها مرحلة الجُهَّال . . . وفي هذه الدرجة أو المرحلة يهيئون من يقع عليه الإختيار من أبناء الطائفة لقبول وحمل أسرار المذهب ، التي يعطونه أو يلقنونه شيئاً منها في مرحلة تالية تسمى مرحلة أو درجة (التعليق) . إذ يبقى (الجاهل) مدة سنة إلى سنتين تحت إشراف شيخ من شيوخ الطائفة ليطلعه على شيء من أسرار العقيدة بالتدريج . فإن لم يأنسوا في « الجاهل » خيراً طردوه ولا يلقنونه أسرار المذهب . . أما إذا وجدوه جديراً بحمل أسرار المذهب نقلوه إلى درجة أو مرحلة أعلى يسمونها مرحلة (السماع) . . وبعد مضي فترة عليه في هذه الدرجة التي يطلع فيها على كثير من أصول المذهب النصيري . . يعقد الرؤساء الروحيون للطائفة مجمعاً خاصاً لتلقينه أسرار المذهب ولنقله إلى درجة أعلى يطلقون عليها (درجة الشيخ أو صاحب العهد) لحضور كفيلين أو شاهدين اثنين يشهدان باستعداد الرجل لقبول السر ومحافظته عليه وبأنه أهل للقيام بأعباء هذه الدرجة . . ثم يلقنونه سر المذهب بعد حلف اليمين المقررة عندهم ، والذي يتضمن عدم البوح بهذا السر ، ويؤكد على ضرورة الحفاظ عليه ولو أريق دمه[2] . والنصيرية لا يبيحون بسر دعوتهم للنساء ، وهذا يكشف عن حقيقة نظرتهم للمرأة وتحقيرهم لها ، إذ أنهم يعتقدون أن النساء ليست لهن أرواح خاصة ، ومن ثم يجعلون المرأة جزءاً من الضيافة المقدمة عند الدخول في المذهب . كما يَحْرِمون المرأة من حقوقها الدينية ، ويحرمونها من الميراث عند وجود الإخوة الذكور ، والميراث كله عندهم غير واجب وغير ملزم . وقد تعطى

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية ، ص ٦٥/٥٣ من كتاب الباكورة السليمانية ، ص ١ ــ ٧ .

(٢) طائفة النصيرية (د. سليمان الحلبي) ، ص ٤٦/٤٥ .

المرأة في بعض الأحيان شيئاً من تركة أبيها على سبيل المساعدة[1] .

النصيرية خلال التاريخ :

موطن النصيرية الآن في سوريا ولبنان ، ويبدو أنهم جاءوا إلى هذه المنطقة في فترات سابقة في شكل هجرات جماعية من العراق فراراً من الاضطهاد الذي وقع عليهم بسبب آرائهم المنحرفة فاتخذوا من جبال الشام ساتراً لهم . ويمثل النصيرية الآن حوالي ١٠٪ من سكان سوريا ونسبة كبيرة منهم تقطن في محافظة اللاذقية بينما تنتشر أقليات منهم في دمشق وحمص وحلب والإسكندرونة كما توجد جماعات منهم في منطقة « عكا » بلبنان .

وتاريخ النصيريين ، منذ أن وجدوا في هذه المنطقة ، تاريخ أسود مشبوه ، إذ أنهم لم يخرجوا على العقائد الإسلامية ويتجاوزوا أحكام الشرع فحسب ، بل إنهم كانوا دائماً خنجراً في جنب الأمة الإسلامية ، يتآمرون ضدها في الخفاء ، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً . والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام ، فقد استظهروا بالصليبيين ضد المسلمين ، ودخل بعضهم في صفوفهم وخدمتهم ، وبسبب عمالتهم وخيانتهم استولى الصليبيون على سواحل الشام والقدس وغيرها من بلاد الشام[2] . كما أنهم تعاونوا مع التتار ، وحثوا تيمور لنك على قتل المسلمين بالجملة ، وتخريب دمشق ، وأقاموا الأفراح حينما ذبح التتار المسلمين . وفي التاريخ القريب حينما احتل الفرنسيون سوريا عام ١٩٢٠م تقرب إليهم النصيريون وتعاونوا معهم وكوفئوا على ذلك بأن جعل الفرنسيون لهم دولة سموها « دولة العلويين »[3] ،

---

(١) إسلام بلا مذاهب ، ط. (أ) ، ص ٢٣٦ .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) ، مجلد ٣٥ ، ص ١٥٠/١٥١ .

(٣) اسم العلويين هذا أطلقه الفرنسيون على النصيرية ليبعدوا عنهم نسبة النصيرية وما اتصفت به هذه الطائفة من صفات ذميمة وتاريخ أسود .

حينما قسموا سوريا إلى دويلات صغيرة ، وجعلوا لـدولة العلويـين تلك مجلساً خاصاً وظلوا ككيان منفصل حتى توقيع المعاهدة السورية الفرنسية عام ١٩٣٦ م ، التي نصت على وحدة البلاد . وبعد توقيع المعـاهدة كانـت هنـاك ردود فعـل مختلفة من النصيريـين إذ أن بعضهم قبـل الـوحدة وأكد انتمـاءه إلى الإسـلام والوحدة وطالبت جماعات منهم بالانفصال واستمرار الدولة العلوية[١] .

وإذا كانت هذه هـي عقـائد النصيريـين أو العلويـين ، كمـا يفضـلون أن يسموا أنفسهم ، وإذا كان هذا هو تاريخهم ، فلا غرابة أن يصفهم ابن تيمية في فتواه المشهورة عنهم ، بأن ظاهر مذهبهم الرفض وباطنه الكفر المحض ، وأنهـم في الواقع لا يؤمنون بنبـي من الأنبياء والمرسلين ولا بكتاب من كتب الله المنزلة ، ولا يُقِرُّون أن للعالم خالقاً ، ومن ثم فإن حكمهم حكم الكفار بل هم أكفر من اليهود والنصارى ، والمشركين ولا تجوز مناكحتهـم ولا يجـوز أن يُنْكِح الـرجل مولاته منهم ولا يتزوج منهم امرأة ولا تباح ذبائحهم ولا يجـوز دفنهـم في مقـابر المسلمين ولا يُصَلَّى على من مات منهـم[٢] . وتسري هـذه الفتـوى على كل مـن

---

(١) الجذور التاريخية للنصيرية ، ص ١٣٠ ، هامش (١) .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) مجلد ٣٥ ، ص ١٦٠/٤٩ ، وقد علق عبد الرحمن بدوي على فتوى ابن تيمية هذه بأنها عامة تشمل النصيرية والإسماعيلية وزعم أن هذا خلط من ابن تيمية وأنـه لم يكن على علم دقيق بمذهبهم وقال : نكاد نجزم بأنه لم يدر شـيئاً دقيقـاً عـن معتقـدات النصيرية . وهذا غريب من ابن تيمية لأنه عاش في منـطقة مجـاورة لبـلاد النصـيرية وكان في وسعه الحصول على كتب النصيرية أو على الأقل الاستخبار عـن عقـائدهم ــ انـظر مـذاهب الإسلاميـين ، جـ ٢ ، ص ٤٤٤ ، وقد أخطأ بدوي في ملاحظته وما بناه عليها من نتـائج ، إذ أن ابن تيمية كان على معرفة على الأقل بما ورد في سؤال سائله عن حقائق تتصل بمعتقـدات النصيرية كما أن فتواه ورد فيها ما يبين معرفته الدقيقة بـأهداف هـذه الـطائفة ، أمـا ذكره طوائف أخرى كالقرامطة والإسماعيلية وربطها بالنصيرية فليس هذا خلطاً من ابن تيميـة كمـا يظن بدوي ، بل هو تأكيد من ابن تيمية أن هذه الفرق جميعها تلتقي في وجهتها الباطنية ومن ثم فهي تمثل أصول الباطنية وتسعى إلى تحقيق غاياتها .

يعتقد عقائد هذه الفرقة الضالة ويتبع مذهبها ، وإلى أن يكتشف أمر هذه الطائفة الباطنية التي تكتم تعاليمها ومعتقداتها وتظهر غير ما تضمر[1] .

(١) قد كتب أحد النصيريين وهو سليمان أفندي الأذني كتاباً عن النصيرية بعنوان « الباكورة السليمانية في كشف أسرار الديانة النصيرية » ، طبع في بيروت عام ١٨٦٤ م . وقد ألفه بعد أن ارتد عن مذهبه إلى النصرانية وأصدر كتابه هذا يكشف فيه أسرار العقيدة النصيرية المخبأة فنقم عليه النصيريون وخنقوه في بيته ، انظر الجذور التاريخية ، ص ٥٣/٥٤ .

(الفصل الثامن)

الدروز : أصولهم وعقائدهم ، وموقفهم من الإسلام

أصل طائفة الدروز :

الدروز كالنصيرية ، من الفرق الباطنية المنحرفة التي انتهى بها الأمر إلى الخروج من الإسلام ، وهم يرفضون بشدة اسم الدروز ويفضلون أن يسموا بدلا منه « الموحدين »[1] . ورغم أن عقائدهم تتضمن تأليه الحاكم بأمر الله الخليفة الشيعي الإسماعيلي الفاطمي ، فإن الدروز يحاولون العودة بأصول مذهبهم ، إلى المذاهب والفلسفات والأديان السابقة على الإسلام ، ويتبنونها جميعاً . وفي ذلك يقول كمال جنبلاط ، أحد زعماء الدروز المعاصرين[★] : « وفي رأينا أنه لا يمكن النظر إلى مسلك التوحيد (الدين الدرزي) منفصلاً عن مسالك الحكمة والعرفان المتقدمة في أدوار التاريخ المعروف والمجهول والتي عمرت بها حياة المؤمنين الأولين والموحدين في مصر الفرعونية القديمة ، في الهند وإيران ، وبلاد التبت ، وما وراء الواحات وفي بابل وآشور ، وفي اليونان وجزر البحر الأبيض المتوسط وعلى انفراج شواطئه . ثم بعد ذلك في الإسلام مروراً بالنصرانية الأولى

---

(١) طائفة الدروز (محمد كامل حسين) ، ص ٦ . إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ، ط . ٤ ، ص ٢٥٨ .

(★) كمال جنبلاط ، أحد زعماء السياسة في لبنان ، قُتل في لبنان بعد أحداث لبنان عام ١٩٧٧ ، ذو ثقافة واسعة ومعرفة عميقة بالديانات الهندية القديمة ، وفي السنوات الأخيرة من حياته كثر تردده على الهند للجلسات الروحية هناك .

وما قبلها ، فيما تكشفت عنه مغاور البحر الميت في فلسطين ، وفي المذاهب العرفانية التي انتشرت في كل صقع من صقاع العالم القديمة ، فالحكمة لا تنفصل في أي زمان أو مكان »[1] . ويؤكد جنبلاط بصفة خاصة ارتباط مذهبهم بمذاهب حكماء الهنود ، واستمدادهم تعاليمهم من كتب الحكمة الهندية وغيرها من المذاهب والفلسفات الإنسانية العامة[2] .

ورغم مزاعم جنبلاط أن الدروز يمثلون امتداداً للحكمة الإنسانية فإن هذا المذهب يقوم على الاعتقاد في ألوهية الحاكم بأمر الله (المنصور بن العزيز بالله بن المعز لدين الله الفاطمي ، الذي تولى الخلافة الفاطمية في مصر في رمضان عام ٣٨٦ هـ ، وقتل في سبعة شوال عام ٤١١ هـ . وقد بدأت الدعوة إلى تأليه الحاكم قبيل عام ٤٠٨ هـ ، وقد ذكر ثلاثة أشخاص تنسب إلى كل منهم بداية هذه الدعوة هم : حمزة بن علي بن أحمد الزوزني ، ويعرف باللبَّاد ، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم أو الأجدع ثم محمد بن إسماعيل الدَّرَزي المعروف بنشتكين . والمعلومات حول هؤلاء الأشخاص الثلاثة قليلة جداً ومضطربة ، الأمر الذي أدى إلى غموض وخلاف حول مصدر الدعوة وأول من بدأ بها .

فحمزة بن علي بن أحمد الزوزني أصله من زوزن بالقرب من نيسابور ، ويقال أنه وفد إلى مصر عام ٤٠٥ هـ ، وانتظم في سلك دعاة الفرس الذين كانوا يختلفون إلى دار الحكمة التأويلية ، وما لبث أن أصبح ممثلاً لدعاة الفرس ، وصلة وصل بينهم وبين الحاكم بأمر الله ، الذي ضمه إلى حاشيته وأسكنه في قصره . . ولم يلبث أن أصبح من الدعاة الذين يكونون دائماً في مَعِيَّة الإمام ولا يفارقون مقر قيادته أبداً ، وسرعان ما أصبحت لحمزة حظوة عند الحاكم ، لما أظهره من إخلاص وما بذله من جهد في تقوية أواصر الدعوة وتركيز دعائمها في

---

(١) أضواء على مسالك التوحيد الدرزية (د. سامي كرم) ، ص ٢٦٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٥١ .

فارس . كما أنه ساهم مساهمة فعَّالة في خوض غمار الجدل الديني والدفاع عن فلسفة المذهب الذي يبشر به ، واستطاع أن يجمع حوله بعض الدعاة وأن يتفقوا سراً على الدعوة إلى تأليه الحاكم ، معتمداً في دعوته على أصول وأحكام جديدة استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية[1] .

وكان من بين الدعاة الذين إلتفوا حول حمزة ، محمد بن إسماعيل الدَّرَزي[2] ، والحسن بن حيدرة الفرغاني ، أما محمد بن إسماعيل فيقال أنه تركي أصله من فارس ، ويدعى نَشْتكِين ، كان أحد أركان القوة الخفية اليهودية التي تعمل للكيد للنصرانية والإسلام ، جاء إلى مصر عام ٤٠٧ هـ ، أو قبلها بقليل واتصل بحمزة وعمل معه على رسم خطط الدعوة ، وكان حمزة قد اتفق مع دعاته بما فيهم محمد بن إسماعيل ألا يجهر أحد بالدعوة أو يكشف مضمون المذهب إلا بعد الإذن في ذلك منه ، ولكن يبدو أن الداعي نَشْتكِين بادر إلى الكشف عن أسرار الدعوة واتصل بالحاكم وحسن له فكرة ادعاء الألوهية ، ويبدو أن الحاكم وافقه سراً وترك له إعلان هذا الأمر ، فلما أعلن الدَرَزي الدعوة إلى تأليه الحاكم بالجامع الأزهر بالقاهرة ، ثار عليه الناس وأرادوا الفتك به ، فأعلن الحاكم البراءة منه ومن دعوته ، ولكن في نفس

---

(١) الحركات الباطنية في الإسلام ، (مصطفى غالب) ، كاتب شيعي إسماعيلي يمجد في كتاباته الحركات الباطنية ويمتدح جهودها في سبيل التحلل من أحكام الشرع !! ، ص ٢٤١ ــ ٢٤٢ .

(٢) هناك خلاف حول أصل كلمة (درزي) هل هي بضم الدال وسكون الراء ، أم بفتح الدال والراء كليهما ، ومرد هذا يعود إلى الخلاف حول حقيقة الشخص الذي ينسب إليه الدروز هل هو محمد بن إسماعيل نشتكين الدَّرَزي ، بفتح الدال المشددة وفتح الراء الذي انتهى أمره بالقتل في وادي التيم ، أو هو أبو منصور أنوشتكين الدُّرْزي بضم الدال المشددة وسكون الراء ، وهو أحد قواد الحاكم بأمر الله ، ويقال أن الطائفة تنسب إلى هذا الأخير دون الأول ، ولا زال الدروز حتى اليوم يلعنون نشتكين ويجلون أنوشتكين ، انظر : الدروز ، ظاهرهم وباطنهم « الزعبي » ، ص ٢٧ ، ٥٢ ــ ٥٦ . إسلام بلا مذاهب « الشكعة » ، ص . ٤ ، ص ٢٥٨ .

الوقت وفر له الحماية وسهل له الفرار إلى وادي التيم في الشام[1] ، حيث بث الدعوة بين سكان هذا الوادي ولقى استجابة منهم . ولا أحد يدري كيف انتهت حياة الدرزي ، هل مات ودفن بوادي التيم أم أنه قتل عام ٤١٠ هـ بتدبير من منافسه حمزة بن علي الذي غضب عليه لجهره بالدعوة قبل الإذن له ، كما تحكي إحدى هذه الروايات[2] .

أما الأخرم أو الأجدع فلا يعلم شيء عن حياته أو من أين أتى ، ولكن يقال إنه بث الدعوة إلى تأليه الحاكم بتواطؤ أيضاً مع الحاكم نفسه وبإيعاز منه ، وكان يبعث الرقاع إلى الناس يدعوهم فيها إلى العقيدة الجديدة ، وكان يطلب من العلماء وكبار رجال الدعوة أجوبة على رقاعه ، مما جعل الحاكم يخلع عليه ويركبه معه فرساً مطهماً ويسيره في موكبه ويوليه عطفه ورعايته ، غير أنه لم تمض على هذا التكريم عدة أيام حتى وثب على الفرغاني رجل من أهل السنة وقتله ، وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه حينما كان يسير معهم بالقاهرة عام ٤٠٨ هـ ، فغضب الحاكم بأمر الله وأمر بإعدام الرجل الذي قتل الأخرم بينما أمر بدفن الأخرم على نفقة القصر[3] . وممن بعث إليهم الأخرم برسائل ، الداعي الإسماعيلي أحمد حميد الدين الكرماني (توفي بعد ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧ م) وعرض في هذه الرسائل نظريته الجديدة وانتهى في إحدى رسائله إلى القول : « إن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات وقشور وحشو ، ولا تتعلق بها نجاة ، وأن الناس لا ينبغي أن يوجهوا وجوههم إلى القبلة لأنها حائط وأن المعبود هو الحاكم . فرد عليه الكرماني برسالته المشهورة « الرسالة الواعظة »[4] . وبعد مقتل

---

(١) واد يقع بين دمشق وبانياس .

(٢) طائفة الدروز (محمد كامل حسين) ص ٧٧ .

(٣) النجوم الزاهرة (ابن تغري بردي) ، ج ٤ ، ص ١٨٣ . الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب) ، ص ٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٤) حقق هذه الرسالة ونشرها (د. محمد كامل حسين) في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، مجلد ١٤ ، ج ١ ، (مايو ١٩٥٢) ، ص ١ ـ ٢٩ .

الفرغاني الأخرم، وجهر نَشْتكين بالدعوة إلى تأليه الحاكم، لم يكن أمام حمزة إلا أن يجهر هو كذلك بالدعوة الجديدة ويخرج مذهبه من دور الستر. فدعا من ثم إلى تأليه الحاكم وأظهر نشاطه هذا عام ٤٠٨ هـ. ولم يكتف حمزة بإعلان ألوهية الحاكم رغم المعارضة العنيفة من عامة المسلمين في مصر، بل ونسبت إليه عدة رسائل إبتداءً من هذا التاريخ تدعو جميعها إلى هذا المعتقد الباطل وتدافع عنه. ويقال إن الناس هاجموا حمزة في مقر إقامته وكادوا يقتلونه لو لم يتدخل الحاكم ويحميه. ثم اختفى حمزة عن الأنظار طيلة سنة ٤٠٩ هـ. ووصف هذه السنة في إحدى رسائله بأنها سنة المحنة والامتحان والعذاب، وأن القصد من الغيبة أن يمتحن الخلق بغيبته، والمحنة هي غيابه الذي عاقبهم فيه!!![1]. ثم ظهر حمزة سنة ٤١٠ هـ واستمر في دعوته ونشر رسائله حتى مقتل الحاكم عام ٤١١ هـ، حيث اختفى ثانية، ولكنه استمر في نشاطه بعد هذا التاريخ ولفترة استمرت قرابة العشرين عاماً، إذ نسبت له رسائل خلال هذه الفترة، وفي رسالة كتبها عام ٤٣٠ هـ، عهد بالدعوة إلى المقتني بهاء الدين أبي الحسن علي بن أحمد المعروف «بالضيف». وأوكل إليه القيام بشئون الدعوة. وإلى المقتني هذا تنسب مجموعة ضخمة من رسائل الدروز، وشروح على رسائل حمزة بن علي، كما كان له نشاط هائل في تنظيم شئون دعوة الدروز استمر حتى عام ٤٣٣ هـ. وأخيراً رأى المقتني بهاء الدين اختلاط الآراء واضطراب الأحوال فهدد أتباعه باعتزال الدعوة، وفعلًا اعتزلها عام ٤٣٤ هـ، بعد أن أقفل باب الاجتهاد حرصاً على الأصول والأحكام التي وضعها حمزة بن علي والتميمي، وما وضعه هو نفسه[2].

أما الحاكم الذي دارت حوله هذه الدعوة، فقد كان شخصية شاذة غريبة الأطوار فاسدة المزاج مختلطة التفكير. وقد نسب إليه من الأفعال والتصرفات ما

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد (عبد الله النجار)، ص ١١٥.

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام، ص ٢٥٢.

يدل على أنه كان مريضاً مرضاً نفسياً غلب على حياته وسيطر عليه . وكان ، كما يقول من أرخوا له يخترع في كل وقت أموراً وأحكاماً يحمل الرعية عليها ، وكان يفرض الشيء ثم ينقضه . ومما نسب إليه أنه في عام ٣٩٥ هـ كتب على المساجد والجوامع سب أبي بكر وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم ، ثم عاد فمحاه عام ٣٩٧ هـ . كما أمر بقتل الكلاب وقطع الكرم ومنع بيع العنب والرطب والملوخيا والجرجير والسمك ، وضرب أعناق رجال خالفوا أمره هذا . كما منع الحاكم صلاة التراويح عشر سنين ثم أباحها ، ومنع عام ٤٠٤ هـ النساء من الخروج من البيوت ليلاً ونهاراً ومنع عمل الخِفاف لهن ، فلم تزل النساء ممنوعات سبع سنين حتى وفاته عام ٤١١ هـ . كما أمر الناس بأن يغلقوا الأسواق بالنهار ويفتحوها بالليل واستمروا على ذلك دهراً ثم أبطله . وجعل لأهل الكتاب علامات يعرفون بها ، وعاملهم معاملة قاسية فهدم كنائسهم وأذلَّهم ، ثم رجع عن ذلك وأعاد الكنائس إلى حالها . وكان الحاكم يربي شعره ، ويلبس الصوف سبع سنين وأقام سنين يجلس في الشمع ليلاً ونهاراً ثم عنَّ له أن يجلس في الظلمة فجلس فيها مدة . وعُرِفَ الحاكم بولعه بالقتل ، فقتل كثيراً من العلماء والكُتَّاب . وكان يقتل خواصه بنفسه ويعاقبهم بالتحريق بالنار ، ويذكر عنه أنه كان يركب حماره وينزل عند باب جامعه ويأخذ أحد غلمانه فيرقده ويشق بطنه بيده ، ثم يخرج أمعاءه ويلقي بها إلى الكلاب ويتركه دون أن يوارى . كما كان يطلب من الركابية أن يكشفوا عوراتهم ، ويعاقب من يغش من التجار ، بأن يأمر بأن تفعل به الفاحشة وعلى ملأ من الناس[1] . ولم ينكر الدروز ما نسب إلى الحاكم من تصرفات شاذة غريبة ، بل إنهم أكدوا

---

(١) انظر عن حياة الحاكم وما قام به من أعمال : البداية والنهاية (ابن كثير) ، جـ ١٢ ، ص ٩ ــ ١٠ . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (ابن تغري بردي) ، جـ ٤ ، ص ١٧٦/١٨٥ . حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (السيوطي) ، جـ ٢ ، ص ٢٨١ ــ ٢٨٣ ، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية (محمد عبد الله عنان) .

صحتها ، ولكنهم أولوها تأويلاً خاصاً ، واتخذوا منها دلالات على صدق ألوهية الحاكم ، وأن كل ما أتى به من أعمال رموز وإشارات ، لها معان خفية وتأويل باطني لا يفقهه الناس . وقد كتب داعية المذهب ومؤسسه حمزة بن علي ، رسالة خاصة في هذا الصدد أطلق عليها : «كتاب فيه حقائق ما يظهر قدام مولانا جل ذكره من الهزل»[1] . ولا شك أن هذه أفعال تدل على نفس مريضة سيطرت عليها فكرة الألوهية ، وكما يقول د. محمد كامل حسين ، فإن البيئة التي نشأ فيها الحاكم دفعته إلى التفكير في دعوى الألوهية ، ووجد من الأتباع من زين له ذلك[2] . فالحاكم تولى مقاليد الأمور وهو صغير السن ، وقد أحيط منذ صغره بهالة خاصة مما أسبغته العقيدة الإسماعيلية على أئمتها ، فتأثر بهذه العقائد ، إلى جانب أنه رأى حاشيته ورعيته يسجدون له كلما مر بهم ، فشاء طموحه ، وهو في مثل هذه السن الصغير ـ أن يكون إلهاً مثل الملوك الأقدمين من الفراعنة[3] . واختمرت هذه الفكرة في نفسه ، ولكن لم يعلنها للناس ولعله أسَرَّ بها إلى بعض الدعاة حوله فتسابقوا إلى إشباع نزوته وتنميتها على مرور الزمن ، فرسموا له هذه السياسة حتى يفهم من أفعاله أنه هو الخالق وأنه هو المحيي والمميت والرزاق والوهاب إلى غير ذلك من أسماء الله وصفاته الحسنى[4] .

وقد انتهت حياة الحاكم نهاية غامضة لا أحد يعرف تفاصيلها على وجه التأكيد ، ولكن مما يرجح أن أخته ست الملك قد دبرت اغتياله أثناء جولته التي كان يقوم بها على سفح جبل الـمُقَطَّم ، وربما دفعها إلى ذلك أمران : الأول

---

(١) انظر نص هذه الرسالة في عقيدة الدروز ، عرض ونقد (محمد أحمد الخطيب) ، ص ٦٥ ـ ٧٩ .

(٢) طائفة الدروز ، ص ٤٩ .

(٣) البداية والنهاية (ابن كثير) ، مجلد ١٢ ، ص ٩ .

(٤) أضواء على العقيدة الدرزية (د. أحمد فوزان) ، ص ٢٣/٢٤ .

خوفها من أن تؤدي تصرفات الحاكم الغريبة الأطوار إلى نهاية الدولة الفاطمية ، والثاني خوفها على نفسها من بطشه ، إذ يقال أنه اتهمها بسوء سلوكها مع الرجال[1] . أما الدروز فيقولون بغيبة الحاكم ، ويزعمون أن الحاكم لم يقتل ولم يمت ، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء وسيعود عندما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا ، وأصبح هذا الادعاء أصلاً من أصول عقيدتهم[2] ، ويزعم الدروز أن هذه الغيبة ستستمر ولن يعود الحاكم للظهور في الصورة الناسوتية إلا يوم القيامة ، وهو اليوم الذي يظهر فيه مذهب الدروز على غيره من المذاهب والأديان[3] . وقد وضع اغتيال الحاكم أو غيبته حداً لدعوة ألوهيته في مصر ، ولكن أصحاب هذه الدعوة أو بعضهم فروا إلى وادي التيم ، كما سبق أن أشرنا ، وهناك فرخت هذه الدعوة واستمرت حتى اليوم* .

عقائد الدروز :

يستمد الدروز عقائدهم من مجموعة من الرسائل تبلغ ١١١ رسالة أطلقوا عليها « رسائل الحكمة » ، وهي رسائل منسوبة إلى أئمتهم ، كحمزة بن علي ، والمقتني بهاء الدين وغيرهم ، وقد أصبحت هذه الرسائل بالنسبة للدروز بعد غيبة هؤلاء الأئمة قائمة بالأمر والنهي ، والتحليل والتحريم[4] . وقد وضع الدروز

---

(١) البداية والنهاية (ابن كثير) ، مجلد ١٢ ، ص ١٠ ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم « ابن الجوزي » ، جـ ٧ ، ص ٣٠٠/٢٩٨ ، النجوم الزاهرة « ابن تغري بردي » ، جـ ٤ ، ص ١٨٦ وما بعدها .

(٢) عقيدة الدروز ، ص ٨٤ .

(٣) طائفة الدروز ، ص ١٢٥ .

(٤) عن رسائل الدروز ، انظر مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٥٥٦/٥١٤ .

(*) والعجيب أن بعض الكتّاب الباطنيين المعاصرين كعارف تامر يدافع عن (الحاكم . .) وينفي ضلالاته التي أكدتها كتب التاريخ كما جاء ذلك في كتابه (الحاكم بأمر الله خليفة وإمام مصلح) ، نشر دار الآفاق الجديدة ــ بيروت .

حديثاً كتاباً أطلقوا عليه « المتفرد بذاته » أو « مصحف الدروز » حاولوا نسبته إلى حمزة بن علي ، ولكن لغة الكتاب وأسلوبه يكشفان عن حداثته . وربما كان كاتبه كمال جنبلاط تعاوناً مع عاطف العجمي ، كما يقول محمد أحمد الخطيب ، الذي اطلع على نسخة من هذا الكتاب فوجد أن كاتبه ، أو كاتبيه ، يحاول أن يحاكي فيه القرآن ، ويقتبس الكثير من الآيات القرآنية التي توافق هواه ، فيبدلها ويحورها ويضيف إليها ليبرهن على ما يرمى إليه . كما وجد أيضاً ، أن معظم الآيات التي عبث بها كاتب « مصحف الدروز » آيات تشير إلى مشاهد القيامة وتعد بعذاب النار للكافرين ، ونعيم الجنة للمؤمنين . وحاول هذا الدرزي أن يثبت عن طريق تحريفها ، أن العذاب سيكون لكل من يكفر بألوهية الحاكم ، والنعيم سيكون للموحدين الذين يعبدون الحاكم . وضرب مثلاً لذلك بما جاء في « عرف الأمر والتقديم » إذ يقول : « أنتم وما تعبدون مكبكبون على وجوهكم ، يوم ينادي مولاكم الحاكم من مكان بعيد ، هذا يومكم الذي فيه توعدون ، تتلوها أيام العذاب إنَّكم لخالدون ولات محيص . . إلى أن يقول : وإلا فقولوا لي أيها الضالون المعاندون ، فهل جاء لكم رب غيره مع جنوده ، أروني إن كنتم صادقين »[1] .

وينقسم هذا المصحف إلى أربعة وأربعين عرفاً ، ويقع في مائتين وتسع وستين صفحة ، ويقول كاتبه في المقدمة : « جرى تقسيم المصحف المكرم وفق المواضيع ليسهل الاطلاع عليه ، ووضع لكل فصل تسميةً تنطبق على ما ورد فيه من معانٍ ، وقد اخترنا اسم العرف تناسباً مع ما أطلق على أبناء التوحيد : كنيتم بالأعراف ووصفتم بالأشراف[1] » . ويؤكد كمال جنبلاط أن دينهم مستمد من كل مصادر الديانات والفلسفات والمذاهب : « إن الشريعة الدرزية مأخوذة من القرآن ومن ستة عشر كتاباً خَطِّياً لا يسمح لأحد بالاطلاع عليها ، كما أنها تأخذ

---

(١) عقيدة الدروز ، ص ٩٧/٩٥ ، انظر أسماء هذه الأعراف في نفس الكتاب ، ص ١٩٩/١٩٥ .

تعاليمها من الفلسفة اليونانية ، وبخاصة الأفلاطونية القديمة ، والمسيحية والإسلام ، والبوذية ، والفرعونية القديمة ، ويعتبرون إخوان الصفاء من الدروز ، لتشابه الأفكار بينهما ، فقد كان إخوان الصفاء يطالبون بمزج الشريعة الإسلامية بالفلسفة اليونانية »[1] .

وعقائد الدروز تدور كلها حول تأليه الحاكم من ناحية ، وإبطال الشريعة الإسلامية من ناحية أخرى . ويعتقد الدروز أن الحاكم هو الصورة الإنسانية للإله ، ويعطونه من ثم كل صفات الله تعالى ، فيصفونه بأنه الأحد الفرد الصمد المنزه عن الممثول والمثل والمتعالي عن الجنس والشكل ، ومولى الكل . الفعل إبداعه والفكر إحداثه والقديم سلطانه . الأسماء لحدوده والصفات لعبيده . ويذهبون إلى أنه لا يشبه الجسمانيين ولا يدرك بوهم ولا يدخل في الخواطر والفهم ، وأنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور إلخ . . . ونتيجة لهذا التصور للحاكم يتوجه الدروز إليه بالعبادة ويسلمون له كل أمورهم باعتباره إلٰهاً .

وقد أثبت الدروز هذا التصور للحاكم والتوجه له بالعبادة والطاعة فيما يعرف عندهم « بميثاق ولي الزمان » والذي يؤخذ على كل من يدخل ديانتهم فيقول : « توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعدد ، أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه في صحة عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، . . وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو يُنْتظر ، وأنه قد أسلم وجهه وجسمه وماله وولده وجميع

---

(١) إسلام بلا مذاهب (الشكعة) ط٤ ، من مقابلة خاصة مع كمال جنبلاط في منزله بقرية المختارة ، صيف ١٩٥٩ ، ص ٣٠٥/٣٠٦ .

ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضي بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ، ولا منكر لشيء من أفعاله ساءه ذلك أم سره . . وينتهي إلى أن من اعتقد أو أقَرَّ أنه ليس في السماء إلٰه معبود ، ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين الفائزين[1] » .

ويعتقد الدروز أن إلٰههم اتخذ له في الأدوار الماضية صوراً ناسوتية أخرى كان الحاكم آخرها . وأنه خلال الأدوار السبعة الإسماعيلية أظهر ناسوته عشر مرات أو في عشر مقامات « ويجب معرفته في المقامات العشرة الربانية وهم : العلي والبار وأبو زكريا وعلياً ، والـمُعِلّ ، والقائم ، والمنصور ، والمعز ، والعزيز ، والحاكم ، وكلهم إله واحد لا إله إلا هو »[2] . وفي نصٍّ آخر يقولون : « بأنه ظهر في مقام القائم باسمه ووصفه ، وظهر في مقام المنصور جلت قدرته ، وهو في مقام المعز جلت عظمته ، وفي مقام العزيز أيضاً جل جلاله ، وكل هؤلاء واحد لا يشغله شأن عن شأن ، يعني لا يشغله ظهوره في صورة عن ظهوره في صورة أخرى[3] » . ويمثل ظهور الحاكم عند الدروز الظهور الأخير للإلٰه ، وعللوا ذلك بأن المعبود غضب على كل خلقه ما عدا « الموحدين » ، ولذلك أوصد باب دعوته فغاب إلى داخل السور المسمى « سد الصين » ليبقى إلى أن يشاء . ثم يظهر يوم الدين[4] » ! !

أما سبب ظهور الإلٰه في هذه الصور أو تجليه فيها فيقول الدروز أنه يريد بذلك أن يعرفنا لاهوتيته ويأنس البشر بمعرفته . ويقول حمزة في رسالة « الغيبة » : « أظهر لنا ناسوت صورته تأنيساً للصور فحار فيها الفكر حين فكر ، وعجزت العقول عن إدراك أفعالها ، واعترفت بالعجز والتقصير في معلومها . . .

---

(١) عقيدة الدروز ، ص ١٢٢/١٢٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٧ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٣٦ .

(٤) نفس المرجع ، ص ١٤٠ .

فبتقدير أحكامه مَنَّ على خلقه بوجود صورته من جنس صورهم ، فخاطبتهم الصورة بالمألوف من أسمائهم ، فأنست العقول إلى ظاهر صورته ، واستدرجتهم إلى معرفته بلطيف حكمته ، امتناناً منه على خلقه »[1] . فسبب التجلي إذن هو أن يعرفنا لاهوتيته من حيث نحن ، ومن صورنا خاطبناه وإلا فما عرفناه ولا أدركناه . .

ولكن هذه الصورة التي يتجلى فيها لا تعبر عن حقيقته أو ذاته ، بل هي صورة تقريبية أو خارجية « فلا تقول أن هذه الصورة المرئية هي هو فتجعله محصوراً محدوداً . . بل نقول إنَّه هو هي استتاراً وتقرباً وتأنيساً بغير حد ولا شبه ولا مثل ، فمثل هذه الصورة كالسراب الذي تعاينه ماء فإذا جئته بحد العيان لم تجده ماء ، كذلك هذه الصورة الظاهرة تراها بعين الطبيعة فتظنها صورة كصورتك فإذا دنوت منها بعين العلم لم تجدها صورة ووجدت الله عندها[2] » . ولا يقول الدروز بالتجلي المستمر لإلهم كما ذهبت النصيرية ، بل يقولون إن الحاكم هو آخر صورة لهذا التجلي وقالوا : لو كان المعبود سبحانه ينتقل بعد هذا الظهور في الأقمصة ، لكان هذا أمراً لا نفاد له وأمداً لا آخر له ، وكانت تنفسد الديانة الآن »[3] .

ويأتي بعد الحاكم في المرتبة وفقاً لتصور الدروز ، ما أسموه بالحدود الدينية الخمسة ، ويقولون إن توحيد الله لا يكمل إلا بمعرفة مراتب الحدود الروحانية والحدود الجسمانية والإيمان بهم وطاعتهم طاعة تامة[4] . وهذه الحدود هي :

١ ــ العقل الكلي ، الذي هو حمزة بن علي ، وقد تصور حمزة نفسه بالنسبة إلى الحاكم في مقام المسيح بالنسبة للأب عند النصارى ، وزعم أن هذا

---

(١) طائفة الدروز ، ص ١٠٣ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

(٣) انظر : مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٦٨١ .

(٤) طائفة الدروز ، ص ١٠٨ .

المقام أمر من الحاكم نفسه . وقال حمزة أنه مُبْدَع من نور الحاكم مؤيد بروح قدسه ، مخصوص بعلمه مفوض إليه أمره . وقد أطلعه الحاكم على مكنون سره فحق له بذلك هذه المنزلة . ولا يكتفي حمزة بمنزلة المسيح بل يضم إليها منزلة إسرافيل ، ويزعم أنه هو الذي سينفخ في الصور ، وأنه ميكائيل صاحب الراجفة ومهلك كل جبار عنيد ومجرد سيف التوحيد على رؤوس المشركين (ويقصد بهم غير الدروز) .

وينسب حمزة إلى نفسه المعاني المستورة في القرآن : فهو الطور والكتاب المسطور وهو البيت المعمور وهو صاحب البعث والنشور والنافخ في الصور . وهكذا يمثل حمزة في تصور معتقد الدروز العلة الحقيقية لما يجري في العالم ، ومن ثم أطلقوا عليه عِلَّة العلل (بينما الحاكم مُعِلْ عِلَّة العلل) ، والسابق الحقيقي والأمر والإرادة وذومعة (أي مع الحاكم في مرتبة قريبة) ، وغير ذلك من الصفات التي تجعله الفاعل الحقيقي والمتصرف في شئون الكون[1] . ويزعم الدروز أن حمزة ظهر في جميع الأدوار بأسماء مختلفة :

١) في دور آدم كان اسمه شطنيل .
٢) وفي دور نوح كان اسمه فيثاغورس .
٣) في دور إبراهيم كان اسمه داود .
٤) في دور موسى كان اسمه شعيب .
٥) في دور عيسى كان اسمه المسيح يسوع وهو المسيح الحقيقي صاحب الإنجيل .
٦) وفي دور محمد صلى الله عليه وسلم كان اسمه سلمان الفارسي .
٧) وفي دور الحاكم كان اسمه حمزة بن علي[2] .

٢ ـ النفس الكلية : وتأتي هذه في المرتبة بعد العقل الكلي ، وقد أعطى

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٦٧١/٦٧٣ ، طائفة الدروز ، ص ١١٠ .
(٢) مذهب الدروز والتوحيد (النجار) ، ص ١٢٣ .

الدروز هذه المرتبة لأبي إبراهيم إسماعيل بن محمد بن حامد التميمي الداعي (صهر حمزة).

٣ ـ الكلمة : وينسبون هذه المرتبة إلى أبي محمد بن وهب القرشي الداعي .

٤ ـ الجناح الأيمن : وهو عندهم نظام المستجيبين أبو الخير سلامة بن عبد الوهاب السماوي الداعي .

٥ ـ الجناح الأيسر : الشيخ المقتني بهاء الدين أبو الحسن علي بن أحمد الطائي الداعي . وقد سبق أن أشرنا إلى الدور الذي لعبه في إطار الدعوة الدرزية . وبالإضافة إلى هؤلاء هناك حدود الإمامة والتوحيد ومجموعهم سبعون ، ما بين حجة وداعية . ويقول الدروز بأن هؤلاء هم المشار إليهم في الآية الكريمة ﴿ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فأسلكوه ﴾[1] .

وقد قال الدروز ، كما قال النصيرية ، بتناسخ الأرواح وانتقالها من جسد إلى آخر . ولكنهم لا يقولون بانتقال النفس إلى جسد حيوان كما ذهب النصيرية لأن في انتقالها إلى جسم حيوان ظلماً لها ، إذ أنَّ العقاب مرجأ إلى يوم الدين[2] . فالنفس إذن تنتقل بعد خروجها من الجسد الذي كانت فيه إلى جسد إنسان آخر ، فنفس الموحد تنتقل إلى موحد ، ونفس المشرك إلى مشرك ، وزعموا بأن عدد النفوس في العالم محدود وثابت لا يزيد ولا ينقص وأن النفوس باقية أزلية لا تفنى . . ومن ثم فإن عدد الموحدين لا يزيد ولا ينقص ، بل إن عدد سكان العالم في رأيهم غير قابل للزيادة ولا النقصان منذ بدء الخليقة ، ويبقى على مثل هذه الحال إلى الأبد ، لأن البشر لو زادوا سنوياً لضاقت بهم الأرض ، ولو نقصوا قليلاً لانقرضوا بمرور الزمن[3] . ولا شك أن الدروز قد جهلوا أن كل

---

(١) سورة الحاقة ، الآية ٣٢ .

(٢) الحركات الباطنية في الإسلام ، ص ٢٦٣ .

(٣) أضواء على العقيدة الدرزية ، ص ٥٠/٥١ ، إسلام بلا مذاهب ، ط٤ ، ص ٣١٠ .

شيء عند الله بمقدار . ولا أدري كيف يفسرون الزيادة المطردة والمشاهدة في سكان العالم !!

ويرتبط قول الدروز بالتَّقَمُّص أو التناسخ بتصورهم للقيامة والعذاب والنعيم والجنة والنار . ففسروا القيامة بأنها اليوم الذي يظهر فيه مذهب عقيدة التوحيد (الدروز) على كل المذاهب والأديان ، ويضطر المخالفون لعقيدة التوحيد أن يتحولوا عن دينهم بحد السيف . وفي هذا اليوم يظهر المعبود (الحاكم بأمر الله) في الصورة الناسوتية . ولم تحدد رسائل الدروز تاريخ هذا اليوم ولكنها تذكر أنه سيكون في شهر جمادى أو في شهر رجب ، وعلامة قرب هذا اليوم عندما يطغى الملوك على رعيتهم ، ولا يعدلون بينهم ، ويتسلط المسيحيون واليهود على البلاد ، ويستسلم الناس إلى الآثام والفساد والآراء الفاسدة ، ويملك شخص من ذرية الإمامة يعمل ضد شعبه وأمته ودينه ، ويضع نفسه تحت سلطان المخادعين ، وتظهر كوارث وزلازل بمصر ويتملك اليهود بيت المقدس ، إلى غير ذلك من علامات القيامة التي يذكرونها[1] .

وقد فسر الدروز العقاب بأنه ما يقع على الإنسان بِنُقْلَتِه من درجة عالية إلى درجة دونها من درجات الدين ، وقلة معيشته وعمى قلبه في دينه ودنياه ، ويستمر تنقله من جسد إلى جسد بتناسخ الأرواح وتقمصها الأجساد ــ وكلما تنتقل روحه من جسد إلى جسد تقل منزلته الدينية . أما الجزاء فهو زيادة درجته في العلوم الدينية وارتفاعه من خلال التكرار في الأجساد من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ درجة حد المكاسر فيزيد في ماله وينبسط في الدين من درجة إلى درجة إلى أن يبلغ أرقى حد من حدود الدين[2] .

---

(١) طائفة الدروز ، ص ١٢٢/١٢١ ، ولعل هذا هو المدخل الذي وجده اليهود لخديعة الدروز ، حتى يتعاونوا معهم ما دام الحاكم لن يظهر إلا عند احتلال اليهود بيت المقدس ولهذا يتعاون الدروز مع اليهود كي يعجلوا بظهور الحاكم ونشأة دولتهم !! انظر ما يلي ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣

(٢) مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٠ ، الحركات الباطنية في الإسلام ، ٢٦٣ . طائفة الدروز ص ١٢٢ ــ ١٢٣ .

وينكر الدروز تبعاً لهذا الجنة والنار ، والجنة عندهم هي توحيد الخالق ، وثمارها المعرفة الحقيقية ، والجحيم هو الجهل والشر ، وأما النار الكبرى فهي غلبة الشقوة وهوى النفس البهيمية الغالب عليها الجهل[1] . وللدروز رسائل يعارضون فيها بسخرية ما ورد من ذكر لأوصاف الجنة والنار في القرآن ، الأمر الذي يدل على أنهم لا يؤمنون بالغيبيات ويرفضونها جميعاً ، ويؤكد عدم إيمانهم بوجود الملائكة ، والجن ويقولون بأن الملائكة هم أتباع المذهب الدرزي ، والشياطين هم مخالفوا هذه العقيدة[2] .

وواضح من هذا أن هناك تصورات فلسفية ونصرانية وشيعية أسهمت جميعها في تكوين عقيدة الدروز ، واستمد منها الدروز أفكارهم ومعتقداتهم . فمصطلح العقل الكلي ، والنفس الكلية ، مصطلحات فلسفية . وفكرة الحلول ، والكلمة ، مسيحية الأصل . بينما مصطلح الدعاة ، والحجج ، من مصطلحات الشيعة المعروفة . وفكرة التناسخ أو التقمص مستمدة من آراء الهنود ومذاهبهم . وهكذا نرى أن عقيدة الدروز خليط من نظريات وأفكار فلاسفة اليونان وديانات ومذاهب الفرس والهنود والفراعنة وغيرها من المذاهب والفلسفات والأديان .

٢ ـ موقف الدروز من الشريعة الإسلامية :

الجانب الثاني من معتقدات الدروز هو إسقاط التكاليف ونقض الشريعة . وتعاليم الدروز كلها تقريباً تهدف إلى هذا الجانب وتؤكد أن دعوة الحاكم هدفها الرئيسي ليس هدم الشريعة الإسلامية الظاهرة فحسب ، بل تهدف أيضاً إلى إلغاء التأويل الباطني للشريعة ، والذي تبناه غلاة الشيعة كالإسماعيلية .

---

(١) مذهب الدروز والتوحيد ، ص ٨٠ .

The Druze Faith (Makarem, Sami Nasib) 1974. PP. 85–6.

(٢) عقيدة الدروز ، ص ١٦٨ / ١٦٩ .

ورسائل الدروز المقدسة تفيض بالنصوص التي تشير إلى هذا ، فحمزة بن علي يخاطب الدروز في إحدى رسائله (التي تعتبر شرعاً لهم) وعنوانها : « الكتاب المعروف بالنقض الخفي » فيقول : « أما بعد فقد سمعتم قبل هذه الرسالة نسخ الشريعة بإسقاط الزكاة عنكم ، وأن الزكاة هي الشريعة بكاملها . وقد بينت لكم في هذه الرسالة نقضها دعامة دعامة ، ظاهرها وباطنها ، وأن المراد النجاة في غير هذين جميعاً[1] » . (أي في غير الظاهر والباطن) . وفي رسالة أخرى يقول : « قد بينت لكم في الكتاب المعروف بـ « النقض الخفي » نسخ السبع دعائم ظاهرها وباطنها ، وذلك بقوة مولانا جل ذكره وتأييده ولا حول ولا قوة إلا به : ويقصد بمولاه « الحاكم » أخزاه الله وإياه ، ويقصد بالسبع دعائم التي نسخها : الشهادتان ، الصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد والولاية . ويقول حمزة بن علي أيضاً : والآن فقد دارت الأدوار وبطل ما كان في جميع الأعصار ، ولم يبق من نار الشريعة الشركية غير لهيبها والشرار ، وسوف يخمد حسرها ويضمحل العوار[2] » .

وحمزة بن علي يصف نفسه من بين ما وصفها به ، بأنه هادم القبلتين ، قبلة بيت المقدس وقبلة الكعبة في مكة . ومبيد الشريعتين ، الشريعة الظاهرة (أهل السنة) والشريعة الباطنة (الإسماعيلية) أي أنه مبدل لشريعة الإسلام وواضع مكانها شريعة جديدة هي دعوة التوحيد هذه كما يسميها .

وما دامت الشرائع كلها قد نسخت فإن تكاليفها قد سقطت عن الناس عند الدروز ، فلا صلاة ولا صيام ولا زكاة إلخ . . . بل إن الدروز قد أولوا هذه الشعائر تأويلاً يخدم مذهبهم الفاسد ، فيؤول لهم حمزة بن علي ، الشهادتين تأويلاً ينتهي منه إلى أن الشهادتين تدلان على « التوحيد » بمفهوم الدروز الذي

---

(١) مذاهب الإسلاميين (بدوي) ، جـ ٢ ، ص ٧٠٧ ــ ٧٠٨ .

(٢) السيرة المستقيمة (حمزة بن علي) ، انظر : طائفة الدروز ، ص ١٠٥ .

يشير إلى تأليه الحاكم والإيمان بأئمة الدعوة ، أو معرفة ديانة التوحيد ومراتب أصحاب هذه الديانة[1] .

ويذهب حمزة أيضاً إلى أن الحاكم نفسه قد نقض سائر أركان الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد . فالصلاة لا تشير إلى الصلاة المعهودة في الشرع ، بل تعني صلة قلوب الدروز بتوحيد الحاكم على يد خمسة حدود (السابق والتالي ، والجد ، والفتح والخيال) ، والتي هي موجودة دائماً مع الناس . وأن « الفحشاء والمنكر » الذين تنهى عنهما الصلاة هما الشريعتان الظاهر والباطن[2] . وينسب إلى الحاكم إلههم ، أنه لم يُصَلِ مدة طويلة ، وكان لا يصلي الجمعة ولا صلاة الجنازة ولا العيدين . والزكاة تشير عند الدروز أيضاً ، إلى توحيد الحاكم وتزكية القلب وتطهيره في الحالين جميعاً (الظاهر والباطن) ، وترك الإنسان ما كان عليه قديماً . وفسروا قول الله تعالى ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون ﴾ بأن البر هو توحيد الحاكم و« نفقة ما تحبون » الظاهر والباطن ، ومعنى نفقة الشيء تركه ، لأن النفقة لا ترجع لصاحبها أبداً[3] !! . ويقال أن الحاكم أسقط الزكاة عن الناس عام ٤٠٤ هـ .

والصوم عند الدروز عبارة عن صيانة القلب بتوحيد الحاكم ، وهو أيضاً من الشعائر التي أسقطها الحاكم إذ لم يراع أوقاتها المحدودة[4] . وكذلك أسقط الحج ، وصار له عند الدروز معنى غير آداء المناسك المعروفة ويقال بأن الحاكم نفسه قد قطع الحج سنين عديدة ، كما قطع الكسوة عن الكعبة . ويقول الدروز بأن قطع الكسوة عن الشيء يقصد منه كشفه وهتكه . وهكذا قطع الكسوة عن

---

(١) عقيدة الدروز ، ص ٢٢١ . The Druze Faith, PP. 92-95

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٣ . The Druze Faith, PP. 96

(٣) مذاهب الإسلاميين ، جـ ٢ ، ص ٧١٨ . عقيدة الدروز ، ص ٢٢٤
The Druze Faith, PP. 97.

(٤) عقيدة الدروز ، ص ٢٢٥ . The Druze Faith, PP. 101

الكعبة يراد به بيان أن المراد غيرها وأنه ليس فيها منفعة . . والبيت المشار إليه في القرآن ليس المراد به الكعبة عند الدروز ، بل المراد به توحيد الحاكم موضع السكن والمأوى الذي يطلب المعبود فيه !!! كذلك « الموحدون » أولياء مولانا (الحاكم !!) سكنت أرواحهم فيه . وفسر الدروز الجهاد بأنه هو الطلبة والجهد في توحيد الحاكم ومعرفته وأن لا يُشْرَكَ به أحدٌ في سائر الحدود ، والتبرئ من العدم المفقود . وكذلك فسروا الولاية بتولي الحاكم . . . إلخ[1] ، وأقام الدروز بدلا من هذه الدعائم الإسلامية ما أسموه بخصال التوحيد السبع وهي عندهم :

١ ــ صدق اللسان ويشترطون الالتزام به في دائرة الدروز فقط ، وهو عوض الصلاة

٢ ــ حفظ الإخوان ــ ويقصدون به حفظ الدرزي أخاه في المعتقد ، وهو عوض الزكاة .

٣ ــ ترك ما كان عليه الموحدون وما اعتقدوه من عبادة العدم والبهتان ، وهو عوض عن الصوم .

٤ ــ البراءة من الأبالسة والطغيان ــ أي من الأنبياء السابقين ــ ومن الأديان والشرائع السابقة . . وهذا عوض الحج .

٥ ــ التوحيد للمولى (أي الحاكم إلههم) في كل عصر وزمان ودهر وأوان ، وهو عوض الشهادتين .

٦ ــ الرضا بفعله (أي الحاكم) كيف كان ، وهو عوض الجهاد .

٧ ــ التسليم لأمره في السر والحدثان . . وهو عوض الولاية[2] .

ويؤكد الدروز المعاصرون موقفهم هذا من شعائر الشريعة وأحكامها ، فيذهب كمال جنبلاط ، فيما نقله عنه مصطفى الشكعة ، إلى أن « الدين الدرزي دين صوفي يعتمد على الداخليات والجواهر ولا يهتم بالشكليات ، والطهارة

---

(١) عقيدة الدروز ، ص ٢٢٦/٢٢٥ .. The Druze Faith, PP. 103-106

(٢) مذاهب الإسلاميين ، (بدوي) ، ص ٧٢٩ وما بعدها .

الداخلية أي النفسية الروحية هي الأساس ، وأما الطهارة الخارجية فلا قيمة لها . وقد كان الشيوخ يصلون في المساجد إلى عهد قريب ويصومون رمضان ويحجون البيت ، ولكن هذه الفرائض جميعاً قد رفعت عنهم واستبدلت بها تكاليف أخرى »[1] . وإلى قريب من هذا ، يذهب الشيخ محمد أبي شقرا شيخ عقل الدروز ، إذ يقول عن عبادات الدروز ومصادر شريعتهم : « الصلاة تختلف عن صلاة جمهور المسلمين ، فالفروض وإن كانت خمسة إلا أن عدد الركعات في كل صلاة يختلف عن عدد الركعات المعروفة وربما طريقة الصلاة نفسها . هذا والوضوء ليس ضرورياً ما دام المصلي نظيفاً . والصوم معناه الامتناع عن الرفث ، ومعنى ذلك أنه يجوز الأكل والشرب في الصوم وهو عشرة أيام في ذي الحجة تنتهي بالعيد . كما أن صوم رمضان مستحسن عن غيره لأن الصوم فيه مضاعف الثواب . الزكاة معطلة ولا حدود لها ، ويمكن أن تكون في شكل صدقات ، وهي اختيارية وهي بالتالي ليست فريضة . الحج لا يعتبر فرضاً خشية الاعتداء على الحجاج الدروز ، وهم بالتالي لا يؤمنون بمناسك الحج ويسفهونها ، ويرون فيها ظاهرة وثنية ، أما الزيارة في حد ذاتها فلا بأس بها . ومصدر التشريع عند الدروز القرآن وحده ليس غير (ولا أدري هل هو « مصحفهم » أم القرآن المعهود) . وأحياناً بعض الاجتهادات . . أما الحديث والسنة فإنهما معطلان ولا يؤخذ بهما إطلاقاً[2] » .

مجتمع الدروز :

ينقسم مجتمع الدروز من الناحية الدينية إلى طبقتين : طبقة الروحانيين وطبقة الجثمانيين . والروحانيون هم رجال الدين الملمُّون بأصول المذهب ، وهم الرؤساء والعقال والأجاويد . فالرؤساء هم الذين بيدهم جميع الأسرار الدينية ،

---

(١) إسلام بلا مذاهب ، (الشكعة) ،ط ٤ ، ص ٣٠٦/٣٠٧ .

(٢) نفس المرجع ، (الشكعة) ، ط ٤ ، ص ٣٠٩ .

والعقال بيدهم الأسرار التي تتعلق بالتنظيم الداخلي للمذهب ، والأجاويد بيدهم الأسرار الخارجية التي تختص بعلاقة مذهبهم بغيره من المذاهب . والروحانيون يتمسكون بالقواعد السلوكية في المذهب فلا يدخنون ولا يشربون الخمر كما أنهم يتزهدون في مأكلهم وملبسهم ولهم زي خاص يميزهم عن طبقة الجهال ـ يتمثل في عمامتهم ولبس قباء أزرق غامق ، وإطلاق لحاهم . ولهم أماكن خاصة للعبادة تعرف بالخلوات يجتمعون فيها لسماع ما يتلى عليهم من الكتاب المقدس وممارسة طقوس عبادتهم[١] .

أما طبقة الجثمانيين فتنقسم إلى أمراء وعامة أو جهال ، والأمراء هم أصحاب الزعامة الوطنية . أما الجهال فهم سائر أفراد جماعة الدروز ، ويسمون أحياناً الشراحين ، لأنهم لا يسوغ لهم الاطلاع على رسائل الدروز ، بل يطلعون فقط على شروح هذه الرسائل التي يقدمها لهم العقال ، كما لا يسمح لهم بمطالعة القرآن ولا يحق لهم حضور المجالس « أو طقوس العبادة » إلا بعد امتحانات طويلة تحتاج إلى صبر ومجالدة وإيمان ، فإذا ما اطمئن إلى إيمان الشخص أخذت عليه مواثيق معينة ، وبذلك يتدرج في مراقي الدرجات الدينية[٢] ، ويترخص لطبقة الجهال في الاستمتاع بكل الممنوعات على العقال من تدخين وشرب خمر وترف في المعيشة وبذخ ، وليس لهم زي خاص يميزهم كجماعة[٣] .

والدروز الآن منتشرون في مرتفعات سوريا الجنوبية (الجولان) ، ويقدر عددهم في هذه المنطقة بحوالي مائة ألف ١٠٠,٠٠٠ ، كما أن لهم جبلاً خاصاً في لبنان (جبل الدروز) ويقطنه قرابة المائة ألف أيضاً . ومن أشهر مدنهم عبية والشويفات وبعقلين ، وتسكن مجموعة منهم في فلسطين العربية عند جبل

---

(١) مذاهب الإسلاميين ، جـ ٢ ، ص ٦٥٨/٦٥٩ .

(٢) إسلام بلا مذاهب ، ط ٤ ، ص ٢٩٢/٢٩٦ .

(٣) مذاهب الإسلاميين ، جـ ٢ ، ص ٦٥٨/٦٥٩ .

الكرمل وعكا وطبرية وصفد ، ويقدر عددهم بحوالي ثلاثين ألفاً ، وهناك طائفة يسكنون الجبل الأعلى من حلب وأنطاكية . وفي بلاد المغرب بالقرب من تلمسان قبيلة تعرف ببني عيسى تدين بالعقيدة الدرزية[1] .

وهكذا نرى أن الدروز كونوا لهم ديناً جديداً استمدوه من بعض الوثنيات القديمة والفلسفة اليونانية وبعض التصورات المسيحية وخلطوا ذلك كله بل بنوه على بعض آراء الشيعة الإسماعيلية ، ومن ثم لا ينبغي أن يعدوا من المسلمين أو يعاملوا معاملة الفرق الإسلامية . وقديماً قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية : بأنهم أعظم كفراً من الغالية ، يقولون بقدم العالم ، وإنكار المعاد وإنكار واجبات الإسلام ومحرماته ، وهم من القرامطة الباطنية الذين هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب ، وغايتهم أن يكونوا فلاسفة على مذهب أرسطو وأمثاله ، أو مجوساً . وقولهم مركب من قول الفلاسفة والمجوس ، ويظهرون التشيع نفاقاً ، ويقول أيضاً : « إن كفر هؤلاء مما لا يختلف فيه المسلمون ، بل من شك في كفرهم فهو كافر مثلهم . لا هم بمنزلة أهل الكتاب ولا المشركين ، بل هم الكفرة الضالون فلا يباح أكل طعامهم ، وتسبى نساؤهم وتؤخذ أموالهم فإنهم زنادقة مرتدون لا تقبل توبتهم . . . إلخ[2] » . كما ذكر ابن عابدين في حاشيته أنه لا ملة لهم إذ يقول : « ظهر من كلامهم ــ أي الفقهاء ــ حكم القاضي المنصوب في بلاد الدروز في القطر الشامي ، ويكون درزياً ويكون نصرانياً ، فكل منهما لا يصح حكمه على المسلمين فإن الدرزي لا ملة له كالمنافق والزنديق وإن سمى نفسه مسلماً[3] » .

ومواقف الدروز الآن تؤكد بعدهم عن الإسلام ، وتعاونهم مع الصهاينة في إسرائيل لا سيما أولئك الذين يعيشون في إسرائيل ، والذين أصبحوا جزءاً من

(١) طائفة الدروز ، ص ٦/٥ . إسلام بلا مذاهب ، ط٤ ، ص ٢٦٠ .

(٢) الفتاوى (ابن تيمية) ، مجلد ٣٥ ، ص ٢٦٢ .

(٣) حاشية (ابن عابدين) ، ج٥ ، ص ٣٥٥ .

المجتمع الصهيوني . ويقدر عددهم بحوالي خمسين ألفاً ، ويحتل بعضهم مراكز هامة في جيش العدو الإسرائيلي . وقد تطوع أعداد من أبنائهم في الجيش الإسرائيلي إبان حرب ١٩٦٧ م ، كما كانوا عوناً لليهود في حرب ١٩٧٣ م . واشتركت كتائب كاملة من جنودهم في الغزو الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ م . ولهؤلاء الدروز أثر في الحياة السياسية في إسرائيل ولهم نائب درزي في حزب الليكود الحاكم ، وقد عبر شيخ الطائفة الدرزية في إسرائيل « أمين طريف » عن مدى انصهار جماعة الدروز وارتباطهم بإسرائيل بقوله : « إن الطائفة الدرزية التي ربطت مصيرها بمصير إسرائيل والشعب اليهودي ستعزز هذا الرباط وستستمر في طريق الولاء والإخلاص للدولة » . ورغم أن دروز لبنان لهم مشيخة منفصلة ، فإن الصلات بينهم وبين دروز إسرائيل وثيقة ، وموقف الأخيرين وسعيهم لعون إخوانهم في الطائفة معنوياً ومادياً إبان أحداث لبنان الأخيرة تكشف عن هذه العلاقة الحميمة . ويسعى الجميع لإقامة دولة لهم في الجولان وحوران والشوف وجبل حوران والصحراء الممتدة ما بين تدمر والأردن والعراق[1] .

---

(١) انظر : وجاء دور المجوس (عبد الله محمد الغريب) ، ص ٨٦/٨٧ .

خاتمة

عالجت هذه الدراسة في بدايتها الخلاف حول الإمامة ، وما ترتب عليه من ظهور جماعات انحرفت عن النهج الإسلامي . وقد تبين لنا من خلال ذلك كيف أن الانحراف عن الصراط المستقيم يبدأ يسيراً هيناً ثم لم يلبث أن يتعمق حتى يبعد بالبعض عن الإسلام ، الأمر الذي يحتم ضرورة التمسك بحبل الله المتين والاعتصام بالسنة النبوية ، دراً للزيغ والضلال ودفعاً للزلل والخطل . كما تبين لنا أيضاً أن من أخطر المزالق اتباع الهوى وتحميل النصوص ما لا تحتمله تعضيداً لرأي أو هوى خاص ، بدلا من إخضاع الهوى والرأي لميزان الشرع .

وقد أشرنا إلى خطأ بعض المؤرخين الذين تناولوا أحداث ما يعْرف (بالفتنة) من غير تمحيص لما ورد فيها من روايات ، وبيان صحيحها من باطلها ، وكيف أدى بهم هذا الخطأ المنهجي إلى تجريح الصحابة وإصدار أحكام عليهم من غير دليل ولا برهان . وبينا أيضاً تهافت المزاعم التي تعلل بها الذين خرجوا على الخليفة عثمان ، وأثبتنا من خلال الروايات الصحيحة أنه رضي الله عنه لم يأت منكراً في توليته بعض أقربائه ، أو تأديبه لبعض الصحابة ، أو شموله بعطفه بعض أفراد أسرته . وأن الصحابة الذين عايشوا أحداث الفتنة بُراءوا من دم عثمان . وأن الفتنة في حقيقتها تولدت من ظروف معيّنة استغلتها جماعات طامعة وأفراد حاقدون طوروا تلك الأحداث حتى انتهت إلى ما انتهت إليه .

ومن خلال الفتنة وما أعقب مقتل الخليفة عثمان من أحداث ظهر فريقان متقابلان : أولهما جماعة الخوارج التي تمسكت أحياناً بظواهر بعض الآيات

وفهمتها فهماً خاصاً مع إهمال لآيات أخرى وعدم ربط الآيات بعضها ببعض ، الأمر الذي أدى بهم إلى اتخاذ مواقف معيّنة تجاه الأمة الإسلامية حكاماً ومحكومين ، وفي إطار هذه الظاهرة أشرت إلى مواقف بعض الجماعات المعاصرة التي انتهجت نهجاً يقرب من منهج الخوارج ، على اختلاف بين الفريقين في الدوافع والغايات .

أما الفرقة الأخرى فهي فرقة الشيعة التي وُضِعَتْ بذورها ونمت إبَّان هذه الفترة ، حيث حاولت جماعات معيّنة أن تستغل عواطف بعض المسلمين وحبهم لآل البيت ، وأذكت أُوار هذه العواطف حتى طغت على منطق العقل ومسلمات الوحي ، وهكذا رأينا كيف أن حب آل البيت أصبح مدخلاً لطوائف غالية حاولت هدم الإسلام وتخريب عقائده وتقويض أركان شريعته . ودفع الولاء لآل البيت جماعات أقل تطرفاً إلى تبني نظريات في الإمام والإمامة تختلف إلى حد كبير عن تصور الإسلام لهذه الوظيفة ومن يقوم بها . كما أن الدفاع عن هذا المعتقد ومحاولة إثباته أدى بفريق آخر من الشيعة إلى الطعن في القرآن والتشكيك في السنة والتهجم على الصحابة رضوان الله عليهم ، وتجريحهم . ولم يلبث تيار الغلاة أن قوى عوده وانتظم أمره عند طائفة الإسماعيلية أو (الباطنية) من الشيعة التي مثلت خطراً حقيقياً على المسلمين . وقد استعرضنا نماذج لهذه الحركات الباطنية ، كالقرامطة والفاطميين وما تولد عنهما من حركات ومنظمات علنية أو سرية . وقد بينا كيف أن بعض هذه الجماعات اتخذت من التشيع ستاراً حاولت من خلاله بث أفكارها المناهضة للإسلام واستغلت فكرة الظاهر والباطن الشيعية لإلباس آرائها الهدامة ثوب الإسلام . وبلغ الانحراف عند البعض درجة أدت إلى خروجه من الإسلام . بل إن طوائف كطائفة الدروز أعلنت في صراحة انسلاخها من الإسلام وأكد أتباعها أن انتمائهم إلى هذا الدين لا يتجاوز أن يكون انتماءاً تراثياً يمثل فيه الإسلام جزءاً من تراثهم العقدي الذي يشمل كل المذاهب والأديان السابقة سماوية وغير سماوية .

وهذا كله يوضح لنا خطر هذا التيار الباطني الذي تجاوزت آثاره دائرة الإسماعيلية وما تفرع عنها ، وامتد خطره إلى دائرة الصوفية والفلاسفة ، بل إن آثاره لا زالت ماثلة في العديد من الحركات المشبوهة والجماعات المنحرفة كالبابية والبهائية والقاديانية ، التي تشربت مبادئ الباطنية وحاولت عن طريقها هدم الإسلام والتحلل من أحكام شريعته ، وعلى كل فإن آثار التيار الباطني وخطره المعاصر يحتاج إلى معالجة خاصة نأمل أن نتمكن منها في المستقبل القريب بإذن الله .

والله الهادي إلى سواء السبيل



مراجع الكتاب

(أ) المراجع العربية :

١) الإباضية بين الفرق الإسلامية (علي يحيى معمر) مكتبة وهبة ، ط. أولى ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م .

٢) الإباضية في موكب التاريخ (علي يحيى معمر) دار الكتاب العربي ، ط . أولى ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م .

٣) إثبات الوصية للإمام علي بن أبي طالب (أبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي ، توفي سنة ٣٤٦ هـ) المطبعة الحيدرية ، النجف ، ط. ثالثة .

٤) أجوبة ابن خلفون (أبي يعقوب يوسف خلفون المزاتي) تحقيق وتعليق عمرو خليفة النامي ، دار الفتح للطباعة والنشر ـ بيروت ، ط. أولى ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م .

٥) الاحتجاج على أهل اللجاج (أبو منصور أحمد بن علي الطبرسي ، توفي سنة ٥٥٨ هـ) . تعليقات وملاحظات السيد محمد باقر الخراساني . منشورات دار النعمان للطباعة والنشر . النجف الأشرف ١٣٦٨ هـ/ ١٩٦٦ م .

٦) الأخبار الطوال (أبو حنيفة الدينوري ، توفي سنة ٢٨٢ هـ) ، تحقيق عبد المنعم عامر وجمال الدين الشيال ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ط. أولى ١٩٦٠ م .

٧) إخبار العلماء بأخبار الحكماء (جمال الدين أبي يوسف علي بن يوسف القفطي) ليبزك ١٩٠٣ م ، مكتبة المثنى ـ بغداد .

٨) إخوان الصفاء (عمر الدسوقي) دار نهضة مصر، ط. ثالثة ـ ١٩٧٣م.

٩) آراء الخوارج (عمار طالبي) المكتب المصري للطباعة والنشر ـ ١٩٧١م.

١٠) إزالة الاعتراض عن محقي آل أباض (محمد يوسف اطفيش)، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، مارس ١٩٨٢م.

١١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر) تحقيق علي محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر.

١٢) إسلام بلا مذاهب (مصطفى الشكعة)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ط. رابعة: بدون تاريخ.

طُبع هذا الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٦٠م ولكن الكاتب عدل في طبعاته التالية كثيراً من آرائه عن النصيرية والدروز، وقد بنى هذا التغيير على معلومات تلقاها شفاهة أو كتابة من بعض أفراد هذه الطوائف وبنى عليها آراءه الأخيرة، علماً بأن هذه الطوائف، طوائف باطنية تعاليمها سرية وتظهر غير ما تبطن. وقد أشرت للمعلومات المستقاة من الطبعة الأولى (ط. أ.) والطبعة الرابعة (ط. ٤).

١٣) الإسلام: أهدافه وحقائقه (سيد حسين نصر)، الدار المتحدة للنشر والتوزيع ـ بيروت، ط. أولى ـ ١٩٧٤م.

١٤) الإصابة في تمييز الصحابة (ابن حجر العسقلاني) ط. أولى، القاهرة، مطبعة السعادة ـ ١٣٢٨هـ.

١٥) أصدق المناهج في تمييز الأباضية من الخوارج (سالم بن حمود السمائلي) تحقيق وشرح سيدة إسماعيل كاشف، القاهرة ١٩٧٩م.

١٦) أصل الشيعة وأصولها (محمد الحسين آل كاشف الغطاء) ط. ثالثة ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م.

١٧) أصل الموحدين الدروز وأصولهم (أمين محمد طليع) ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، ط. أولى ، ١٩٦١ م .

١٨) الأصول التاريخية للفرقة الأباضية (عوض محمد خليفات) ؛ ط. ثانية ، سلطنة عمان ، وزارة التراث والإرشاد والثقافة ، سلسلة تراثنا ، عدد ٢٧ .

١٩) أصول الإسماعيلية والفاطمية والقرامطة (برنارد لويس) ترجمة حكمت تلحوت ، دار الحداثة ، بيروت ، ط. أولى ١٩٨٠ م .

٢٠) أضواء على خطوط محب الدين العريضة (عبد الواحد الأنصاري) منشورات دار متن اللغة ـ بيروت ـ ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م .

٢١) أضواء على العقيدة الدرزية (أحمد الفوزان) ط. أولى ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م .

٢٢) الاعتصام (أبي إسحاق الشاطبي . توفي سنة ٧٩٠ هـ) مجلدين ، دار المعرفة للطباعة والنشر ـ بيروت .

٢٣) الإمام جعفر الصادق رائد السنة والشيعة (عبد القادر محمود) القاهرة ١٩٦٨ م .

٢٤) الإمام زيد ، حياته وعصره وآراءه الفقهية (محمد أبو زهرة) دار الفكر العربي .

٢٥) أنساب الأشراف (أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري) تحقيق S.D.F. Goitein ، القدس ، مطبعة الجامعة ١٩٣٦ م ، نشر مكتبة المثنى ، بغداد .

٢٦) أوائل المقالات في المذاهب المختارات (الشيخ المفيد محمد بن النعمان ، توفي سنة ٤١٣ هـ) ، تقديم وتعليق الشيخ فضل الله الزنجاني ، مطبعة رضائي ، تبريز ، ط. ثانية ١٣٧١ هـ .

٢٧) بحار الأنوار الجامع لدرر أخبار الأئمة الأطهار (محمد باقر المجلسي) ، مخطوط بمكتبة جامعة الملك سعود ، ٣ مجلدات .

٢٨) البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار (أحمد بن يحيى بن المرتضى ، توفي سنة ٨٤٠ هـ) .

٢٩) البدء والتاريخ (المقدسي ، المطهر بن طاهر ، توفي سنة ٣٥٥ هـ أو بعدها) مكتبة خياط ، بيروت ، بلا تاريخ .

٣٠) البداية والنهاية (ابن كثير ، أبو الفداء توفي سنة ٧٧٤ هـ) ، مكتبة المعارف ـ بيروت ، ط. أولى عام ١٩٦٦ .

٣١) البيان في تفسير القرآن (أبو القاسم الموسوي الخوئي) ط. أولى ، المطبعة العلمية بالنجف الأشرف ـ ١٩٧٥ م .

٣٢) بيان مذهب الباطنية وبطلانه (محمد بن الحسن الديلمي) تصحيح شتروطمان استانبول ، مطبعة الدولة ـ ١٩٣٨ . النشريات الإسلامية لجمعيات المستشرقين الألمانية .

٣٣) تاريخ أبي الفداء (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء إسماعيل صاحب حماه ، توفي سنة ٧٣٢ هـ) دار الطباعة العامرة بالقسطنطينية ١٢٨٦ هـ .

٣٤) تاريخ الإسلام السياسي (حسن إبراهيم حسن) ط. النهضة المصرية .

٣٥) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، توفي سنة ٧٤٨ هـ) مكتبة القدس ، القاهرة ، سنة ١٣٦٧ هـ .

٣٦) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين (فاروق عمر) منشورات مؤسسة المطبوعات العربية ، بيروت ـ ط. أولى : ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٣٧) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (عبد الله فياض) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

٣٨) تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيق أكرم ضياء العمري ، دار القلم ، بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

٣٩) تاريخ الدعوة الإسماعيلية (مصطفى غالب) دار الأندلس ، بيروت ، ط. ثانية ١٩٥٥ م .
٤٠) تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إبراهيم حسن) مكتبة النهضة المصرية . ط. ثالثة ـ ١٩٦٤ م .
٤١) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري) (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، ٢٢٤/٣١٠ هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ، مصر ، ط. أولى وثانية ، ١٩٦٢/١٩٧١ م .
٤٢) التاريخ الصغير (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري ، ١٩٤/٢٥٦ هـ) تحقيق محمود إبراهيم زائد ، ط. أولى ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .
٤٣) تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (علي حسني الخربوطلي) دار المعارف ، مصر ١٩٥٩ م .
٤٤) تاريخ العلويين (محمد أمين غالب الطويل) ط. دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٦ م .
٤٥) تاريخ الفرقة الزيدية بين القرنين الثاني والثالث للهجرة (فضيلة عبد الأمير الشامي) ، مطبعة الآداب ـ النجف الأشرف ، ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م .
تاريخ الفقه الجعفري (هاشم معروف الحسني) دار النشر للجامعيين ، بيروت ، بدون تاريخ .
٤٦) تاريخ الفكر الإسلامي في اليمن : الزيدية ، الشافعية الإسماعيلية (أحمد حسين شرف الدين) ط. ثانية ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .
٤٧) تاريخ الفلسفة الإسلامية (هنري كوربان) ترجمة نصير مروه ، منشورات عويدات باريس ، ط. أولى ١٩٦٦ م ، ط. ثانية ١٩٧٧ م .
٤٨) تاريخ الفلسفة في الإسلام في القارة الإفريقية (د. يحيى هويدي) مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٥ .
٤٩) تاريخ القرآن (عبد الصبور شاهين) دار القلم ، ١٩٦٦ م .

٥٠) تاريخ من دفن في العراق من الصحابة (علي بن الحسين الهاشمي الخطيب) ط. أولى ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م.

٥١) تاريخ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر) مجلدين ـ دار بيروت للطباعة والنشر ـ ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.

٥٢) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (أبي المظفر الاسفرايني، توفي سنة ٣٧١ هـ)، تحقيق كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، ط. أولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

٥٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ـ للإمام الحافظ أبي العلى محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (توفي سنة ١٣٥٣ هـ)، طبعه وراجع أصوله وصححه عبد الرحمن محمد عثمان، ط. ثانية ١٣٨٥ هـ/١٩٦٥ م.

٥٤) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطي (٨٤٩ ـ ٩١١ هـ) تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط. ثانية ١٣٩٢ هـ/ ١٩٧٢ م.

٥٥) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري القرطبي، توفي سنة ٦٧١ هـ) تحقيق أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

٥٦) التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية، دراسات لكبار المستشرقين، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار القلم، بيروت، ط. رابعة ١٩٨٠ م.

٥٧) تفسير القرآن العظيم (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير) دار المعرفة، بيروت ـ ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م.

٥٨) تفسير التبيان (أبي جعفر محمد بن الحسين الطوسي ٣٨٥ ـ ٤٦٠ هـ) تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي، مكتبة الأمين، النجف الأشرف (١٣٧٦ ـ ١٣٨٢ هـ/ ١٩٥٧ ـ ١٩٦٣ م).

٥٩) التفسير والمفسرون (د . محمد حسين الذهبي) دار الكتب الحديثة ، طبعة ثانية ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

٦٠) تقريب التهذيب (ابن حجر ـ شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، توفي سنة ٨٥٢ هـ) جـ ١ ـ ٢ ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف . دار المعرفة للنشر والطباعة ـ بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .

٦١) تلبيس إبليس (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي ، توفي سنة ٥٩٧ هـ) . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٣٩٨ هـ .

٦٢) تلخيص الشافي (محمد بن الحسن الطوسي ، توفي سنة ٤٦٠ هـ) . النجف ١٩٦٣ هـ .

٦٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (الملطي ، أبي الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمٰن الملطي ، توفي سنة ٣٧٧ هـ) . . قدمه وعلق على حواشيه محمد زاهد الكوثري ـ مكتبة المثنى ببغداد : ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م .

٦٤) تهذيب التهذيب (ابن حجر العسقلاني) ، ١٢ مجلد ، دار صادر بيروت ، ط. أولى ، حيدر أباد ، ١٣٢٥ هـ .

٦٥) جامع التواريخ (تاريخ المغول) (رشيد الدين فضل الله الهمذاني) مجلد ثاني ، جزء أول ، ترجمة محمد صادق نشأت وآخرون ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٦٠ م .

٦٦) الجامع الصحيح ، مسند الإمام الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي البصري ، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، من غير تاريخ .

٦٧) الجذور التاريخية للنصيرية العلوية ، إعداد وتعليق (الحسين عبد الله) ، مجموعة مقالات وبحوث لكتّاب مختلفين . دار الاعتصام ، ط . أولى ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

٦٨) كتاب الجرح والتعديل (أبي محمد عبد الرحمٰن بن إدريس

الرازي ، توفي سنة ٣٢٧ هـ) ط. أولى حيدر أباد الدكن ـ الهند ، ١٣٧١ هـ/ ١٩٥٢ م .

٦٩) جغرافية وتاريخ السودان (نعوم شقير) دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٧ م .

٧٠) حاشية رد المحتار على الدر المختار ، شرح تنوير الأبصار (محمد أمين الشهير بابن عابدين) مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ط. ثانية ١٣٨٦ هـ/ ١٩٦٦ م .

٧١) الحاكم بأمر الله وأسرار الدولة الفاطمية (محمد عبد الله عنان) دار النشر الحديث ، القاهرة ١٩٣٧ م .

٧٢) الحركات الباطنية في الإسلام (مصطفى غالب) ، من كتاب الإسماعيلية المعاصرين ، دار الكتاب العربي ـ بيروت .

٧٣) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (جلال الدين السيوطي) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ط. أولى ١٩٦٧ م .

٧٤) الحكم وقضية تكفير المسلم (سالم علي البهنساوي) دار الأنصار ، ط. أولى ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .

٧٥) الحكومة الإسلامية (آية الله الخميني) دروس ألقيت في النجف الأشرف ، تحت عنوان « ولاية الفقيه » ، ١٣ ذو القعدة ـ ١ ذو الحجة ١٣٨٩ هـ .

٧٦) الحور العين ، (أبو سعيد نشوان الحميري ، توفي سنة ٥٧٣ هـ) ، تحقيق كمال مصطفى ، مطبعة السعادة ، مصر ، ١٩٤٨ م .

٧٧) خصائص التصور الإسلامي ومقوماته (سيد قطب) ، دار إحياء الكتب العربية ، ط. ثانية ١٩٦٥ م .

٧٨) الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية) تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي ، توفي سنة ٨٤٥ هـ ، مكتبة المثنى ، بغداد .

٧٩) الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنا عشرية ، (محب الدين الخطيب) ، مؤسسة مكة للطباعة ، ١٣٨٠ هـ .
٨٠) الخوارج في العصر الأموي ، نشأتهم ، تاريخهم ، عقائدهم ، أدبهم ، (معروف نايف محمود) دار الطليعة ، بيروت ، ط. أولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
٨١) الإمام الشوكاني مفسراً (محمد حسن بن حمد أحمد الغماري) دار الشروق ، ط . أولى ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
٨٢) دائرة المعارف الإسلامية (نقلها إلى العربية محمد ثابت الفندي وآخرون) أكتوبر ١٩٣٣ م / جمادى الثانية ١٣٥٢ هـ ، القاهرة .
٨٣) دراسات في تاريخ المهدية ، المجلد الأول (بحوث قدمت للمؤتمر العالمي لتاريخ المهدية ـ الخرطوم ١١/٢٩ ـ ١٩٨١/١٢/٢ م) . نشر قسم التاريخ ، جامعة الخرطوم .
٨٤) دراسات في الفرق (صابر طعيمة) مكتبة المعارف ، الرياض ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
٨٥) دراسات في الفلسفة الإسلامية (محمود قاسم) ط. خامسة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٣ .
٨٦) الدروز ، ظاهرهم وباطنهم (محمد علي الزعبي) ط. ثانية ، ١٩٧٢ م .
٨٧) دعائم الإسلام (القاضي النعمان بن محمد المغربي ، الفقيه الإسماعيلي) جـ ١ ـ ٢ ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيض ، دار المعارف ، مصر ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
٨٨) دعاة . . لا قضاة (حسن إسماعيل الهضيبي) دار الطباعة والنشر الإسلامية ، ١٩٧٧ م .
٨٩) دلائل الإمامة (أبو جعفر محمد بن جرير بن رستم الطبري

الشيعي) ، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف ، ١٣٦٩ هـ/ ١٩٤٩ م .
٩٠) الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (ابن فرحون ، إبراهيم بن علي بن محمد ، توفي سنة ٧٩٩ هـ) ، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور ، مكتبة دار التراث ، القاهرة .
٩١) ديوان ابن هانئ الأندلسي (أبو القاسم محمد بن هانئ) ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٤ م .
٩٢) ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة (تحقيق محمد كامل حسين) دار الكتاب المصري ، ١٩٤٩ م .
٩٣) راحة العقل (أحمد حميد الدين الكرماني) ، تحقيق وتقديم محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٢ م .
٩٤) رجال الشيعة في الميزان (عبد الرحمن عبد الله الزرعي) دار الأرقم ، الكويت ، ط. أولى ، ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م .
٩٥) رحلة ابن جبير (أبو الحسين محمد بن حيدر الكناني الأندلسي) دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ م .
٩٦) الرد على من كذب بالأحاديث الصحيحة الواردة في المهدي (عبد المحسن بن حمد العباد) ، مطابع الرشيد بالمدينة المنورة ، ط. أولى ١٤٠٢ هـ .
٩٧) رسالة افتتاح الدعوة ، رسالة في ظهور الدعوة العبيدية الفاطمية (القاضي النعمان بن محمد ، توفي سنة ٣٦٣ هـ) ، تحقيق وداد القاضي ، دار الثقافة ، بيروت ، ط. أولى ، ١٩٧٠ م .
٩٨) رسالة جامعة الجامعة لإخوان الصفاء وخلان الوفاء (تحقيق وتقديم عارف تامر) ، دار النشر للجامعيين ، ١٣٧٨ هـ/ ١٩٥٩ م .
٩٩) رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، ٤ مجلدات ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٧ هـ/ ١٩٥٧ م .
١٠٠) رسائل العدل والتوحيد [الجزء الأول يضم رسائل للحسن

البصري ، القاسم الرسي ، القاضي عبد الجبار ، الشريف المرتضى ، والجزء الثاني يضم رسائل الإمام الهادي يحيى بن الحسين] ، دراسة وتحقيق محمد عمارة ، ج ١ ـ ٢ ، دار الهلال ١٩٧١ م .

١٠١) الرياض النضرة في مناقب العشرة (أبي جعفر أحمد الشهير بالمحب الطبري) مكتبة الخانجي ، مصر ، ط. ثانية ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٣ م .

١٠٢) كتاب الرياض (أحمد حميد الدين الكرماني) تحقيق عارف تامر ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٠ م .

١٠٣) السنة والشيعة (إحسان إلهي ظهير) إدارة ترجمان السنة ـ لاهور ـ باكستان ، ط. ثانية ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

١٠٤) سنن ابن ماجه (الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ٢٠٧ ـ ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي .

١٠٥) سنن أبي داود (أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ٢٠٢ ـ ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار إحياء السنة النبوية .

١٠٦) سنن الترمذي ، الجامع الصحيح ، أبي عيسى محمد بن عيسى (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ) تحقيق إبراهيم عطوه عوض ، مصطفى الحلبي ، ط. أولى ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م .

١٠٧) سنن الدارمي (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل بن بهرام الدرامي ، توفي سنة ٢٥٥ هـ) طبع بعناية محمد أحمد دهمان ، نشر دار إحياء السنة النبوية .

١٠٨) سيرة عمر بن عبد العزيز (ابن الجوزي) تصحيح محب الدين الخطيب ، مكتبة المنار ، ١٩٢٣ م .

١٠٩) شرح الجامع الصحيح (الجزء الأول مسند الإمام الربيع بن حبيب

من أئمة المائة الثانية للهجرة) تأليف عبد الله بن حمد السالمي ، تقديم عز الدين التنوخي ، ط. ثانية ، دون تاريخ .

١١٠) شرح عقائد الصدوق (وهو ضمن كتاب أوائل المقالات في المذاهب المختارات / المتقدم) .

١١١) شرح نهج البلاغة (عبد الحميد بن أبي الحديد المدائني ، ٥٨٦ ـ ٦٥٦ هـ) ٢٠ جزء ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ط. ثانية ١٣٨٧ هـ/١٩٦٧ م .

١١٢) الشهادة (د. علي شريعتي) مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .

١١٣) الشيعة في التاريخ (الشيخ محمد حسين الزين) دار الآثار للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م .

١١٤) الشيعة في الميزان (محمد جواد مغنية) دار التعارف للمطبوعات ، بيروت .

١١٥) صبح الأعشى (أبو العباس أحمد القلقشندي) ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ، ١٣٣٧ هـ/ ١٩١٨ م .

١١٦) الصحاح (إسماعيل بن حماد الجوهري) تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار الكتاب العربي ، مصر .

١١٧) صحيح البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) ٨ أجزاء ، المكتبة الإسلامية ، استنبول ، تركيا ، ١٩٧٩ م .

١١٨) صحيح مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري ، توفي سنة ٢٦١ هـ) دار المعرفة ، بيروت .

١١٩) صفوة التفاسير (محمد علي الصابوني) ٣ مجلدات ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط. رابعة ، ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨١ م .

١٢٠) صفة الصفوة (ابن الجوزي) تحقيق محمود فاخوري ، ٤ أجـزاء ، دار الوعي بحلب ، ط. أولى ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩ م .

١٢١) الصلة بين التصوف والتشيع (كامل مصطفى الشيبـي) دار المعارف بمصر ط. ثانية ١٩٦٩ م .

١٢٢) الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة (شـهاب الـدين أحمد بن حجر الهيثمي ، توفي سنة ٩٧٤ هـ) ، طبع مصـطفى البابـي الحلبـي ، مصر ١٣٢٤ هـ .

١٢٣) ضحى الإسلام (أحمد أمين) ، مكتبة النهضة المصرية ، ط. سابعة ١٩٦٤ م .

١٢٤) ضعيف الجامع الصغير وزيادته (ناصر الـدين الألبـاني) منشـورات المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط . ثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .

١٢٥) طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نـظمها وعقـائدها (محمـد كامـل حسين) ط. أولى ١٩٥٩ م .

١٢٦) طائفة الدروز ، تاريخها ، وعقـائدها (محمـد كامـل حسـين) دار المعارف ، مصر ، ط . ثانية ١٩٦٨ م .

١٢٧) طائفة النصيرية ، تاريخها وعقائدها (د . سليمان الحلبـي) المطبعـة السلفية ، القاهرة ١٣٩٩ هـ/ ١٩٧٩ م .

١٢٨) الطبقات الكبرى (ابن سعد) دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م .

١٢٩) طبقات المعتزلة (أحمد بن يحيى بـن المرتضى) ، تحقيـق سـوسنة ديفلد فلزر ، بيروت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦١ م .

١٣٠) ظهر الإسلام (أحمـد أميـن) دار الـكتاب العربـي ، بيـروت ، ط. خامسة ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م .

١٣١) عبيد الله المهدي ، إمام الشـيعة الإسـماعيلية ، ومـؤسس الـدولة

الفاطمية في بلاد المغرب (حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف) مكتبة النهضة المصرية، ١٩٤٧ م.

١٣٢) عثمان بن عفان (صادق إبراهيم عرجون)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ط. أولى ١٣٦٦ هـ/ ١٩٤٧ م.

١٣٣) عقائد الإمامية (محمد رضا المظفر) قدم له د. حفني داود، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٩٧٢ م.

١٣٤) عقيدة الدروز، عرض ونقض (محمد أحمد الخطيب) مكتبة الأقصى، عمان، الأردن، ط. أولى ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م.

١٣٥) عقيدة الشيعة (دوايت م. دونلدسن) تعريب ع. م. مكتبة الخانجي ومطبعتها ١٣٦٥ هـ/ ١٩٤٦ م.

١٣٦) العقيدة والشريعة في الإسلام (أجناس جولد زيهر) ترجمة محمد يوسف موسى وآخرين، ط. ثانية، دار الكتب الحديثة ــ مصر ١٩٥٩ م.

١٣٧) العقود الفضية في أصول مذهب الأباضية (سالم بن حمد بن سليمان بن حميد الحارثي العماني الأباضي) دار اليقظة العربية، سوريا ولبنان، بدون تاريخ.

١٣٨) عمان في فجر الإسلام (سيدة إسماعيل كاشف) وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، ط. ثانية ١٩٨٢ م.

١٣٩) العواصم من القواصم (أبو بكر بن العربي، ٥٤٣/٤٦٨ هـ) حققه وعلق حواشيه محب الدين الخطيب، المكتبة العلمية، بيروت ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

١٤٠) الغنية، فهرست شيوخ القاضي عياض (القاضي عياض ٤٧٦ ــ ٥٤٤ هـ) تحقيق ماهر زهير جرار، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. أولى ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م.

١٤١) كتاب الغيبة (أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، توفي سنة

٤٦٠ هـ) تقديم أغا بزرك الطهراني ، مطبعة النعمان ، النجف ، ط. ثانية ١٣٨٥ هـ .

١٤٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (أحمد بن علي بن حجر العسقلاني) ١٣ مجلداً ، تحقيق الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، نشر وتوزيع إدارة البحوث والدعوة والإفتاء بالمملكة العربية السعودية .

١٤٣) فتح القدير (محمد بن علي الشوكاني ، توفي سنة ١٢٥٠ هـ) خمسة أجزاء ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م .

١٤٤) الفتنة الكبرى (طه حسين) جزأين :

(١) عثمان ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٨ م .

(٢) علي وبنوه ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ م .

١٤٥) الفتنة ووقعة الجمل (رواية سيف بن عمر الضبي الأسدي ، توفي سنة ٢٠٠ هـ) ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ، دار النفائس ، بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م .

١٤٦) الفتوحات المكية (محيي الدين بن عربي ، توفي سنة ٦٣٨ هـ) دار صادر ، بلا تاريخ .

١٤٧) فجر الإسلام (أحمد أمين) مكتبة النهضة المصرية ، مصر ، ط. العاشرة ١٩٦٥ م .

١٤٨) الفرق بين الفرق (عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، توفي سنة ٤٢٩ /١٠٣٧ م) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع محمد علي صبيح .

١٤٩) فرق الشيعة (النوبختي ، أبي محمد الحسن بن موسى النوبختي) ط . إستانبول .

١٥٠) فرقة النزارية ، تعاليمها ورجالها في ضوء المراجع الفارسية (السيد محمد العزاوي) مطبعة جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ م .

١٥١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (أبي محمد علي بن حزم الأندلسي، توفي سنة ٤٥٦ هـ)، خمسة أجزاء، مكتبة المثنى، بغداد.
١٥٢) فضائح الباطنية (أبو حامد الغزالي، توفي سنة ٥٠٥ هـ) حققه وقدم له د. عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.
١٥٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي (شوقي ضيف) دار المعارف، مصر، ط. رابعة ١٩٦٠.
١٥٤) الفهرست (لابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق) مطبعة الاستقامة، مصر.
١٥٥) الفوائد الموضوعة في الأحاديث الموضوعة (الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي، توفي سنة ١٠٣٣ هـ) تحقيق محمد الصباغ، دار العربية للطباعة والنشر، ط. ثانية ١٣٩٧ هـ/ ١٩٧٧ م.
١٥٦) القرامطة (ابن الجوزي) تحقيق محمد الصباغ، منشورات المكتب الإسلامي، ط. ثانية ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.
١٥٧) القرامطة: أصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم (عارف تامر) دار مكتبة الحياة، بيروت.
١٥٨) القرامطة، أول حركة اشتراكية في الإسلام (طه الولي) دار العلم للملايين، بيروت، ط. أولى ١٩٨١ م.
١٥٩) قضية نسب الفاطميين أمام منهج النقد التاريخي (د. عبد الحليم عويس) مجلة كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد السادس، (١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢ م)، صفحات ١٣٧ ـ ١٨٩.
١٦٠) الكافي (الأصول من الكافي)، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحق الكليني الرازي، توفي سنة ٣٢٨/٣٢٩ هـ، مؤسسة دار الكتب الإسلامية، طهران ١٣٨١ هـ.

١٦١) الكامل في التاريخ (ابن الأثير ، عز الدين أبي الحسن محمد بن محمد بن الأثير) دار صادر ــ بيروت ، ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م .

١٦٢) الكامل في اللغة والأدب (أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي ، توفي سنة ٢٨٥ هـ) مكتبة المعارف ، بيروت .

١٦٣) كتّاب النبي (مصطفى الأعظمي) المكتب الإسلامي ، ط. أولى ١٣٩٤ هـ/ ١٩٧٤ م . طبع ثانية ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨ م .

١٦٤) كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (محمد بن مالك بن أبي الفضل الحمادي اليماني) تقديم وتعليق محمد زاهد الكوثري ، نشر عزت العطار ، مطبعة الأنوار ١٣٥٧ هـ/ ١٩٣٩ م .

١٦٥) لسان العرب (أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري) دار صادر ، بيروت ١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م .

١٦٦) اللمعة المرضية من أشعة الأباضية (نور الدين عبد الله بن حميد السالمي) ، وزارة التراث القومي والثقافة ، سلطنة عمان ، ط. ثانية ١٩٨٣ م .

١٦٧) مجتمع الكراهية (سعد جمعة) دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٦٨) مجمع البيان في تفسير القرآن (أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي) دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م .

١٦٩) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ٧٢٨/٦٦١ هـ) ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي وابنه محمد ، ٣٦ مجلد ، ط . أولى ١٣٩٨ هـ .

١٧٠) محاضرات في النصرانية (محمد أبو زهرة) ط. ثالثة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١ م ، دار الكتاب العربي .

١٧١) المختار الثقفي مرآة العصر الأموي (علي حسن الخربوطلي) سلسلة أعلام العرب ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ديسمبر ١٩٦٢ م .

١٧٢) مختصر تاريخ الأباضية (أبي ربيع سليمان الباروني) نشر مكتبة الاستقامة ، تونس ، المطبعة السلفية ، ط. ثانية ، بدون تاريخ .

١٧٣) مختصر التحفة الاثنا عشرية (شاه عبد العزيز الدهلوي) ترجمه واختصره السيد محمود شكري الألوسي ، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب ، ط. ثانية ١٣٧٨ هـ .

١٧٤) مختصر تفسير ابن كثير (اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني) ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط. سابعة ، ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨١ م .

١٧٥) مذاهب الإسلاميين (عبد الرحمن بدوي) ج ٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط. أولى ، سبتمبر أيلول) ، ١٩٧٣ م .

١٧٦) المذاهب الإسلامية (محمد أحمد أبو زهرة) سلسلة الألف كتاب ، المطبعة النموذجية ، بدون تاريخ .

١٧٧) مذهب الدروز والتوحيد (عبد الله النجار) دار المعارف ، مصر ١٩٦٥ م .

١٧٨) مروج الذهب ومعادن الجوهر (أبو علي الحسين بن علي المسعودي) ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط. رابعة ، القاهرة ، مطبعة السعادة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م .

١٧٩) المسند (أحمد بن محمد بن حنبل ، ١٦٤ ـ ٢٤١ هـ) بهامشه منتخب كنز العمال ، ٦ مجلدات ، نشر المكتب الإسلامي للطباعة والنشر ، بيروت ، بدون تاريخ .

١٨٠) المسيحية ، أحمد شلبي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط. سادسة ١٩٦٨ .

١٨١) كتاب المصاحف (أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، توفي سنة ٣١٦ هـ) تصحيح آرثر جفري ، ط. أولى ، الرحمانية ، مصر ، ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م .

١٨٢) كتاب المعارف (ابن قتيبة ، أبـي محمد عبد الله بن مسـلم ٢١٣ ـ ٢٧٦ هـ) ، تحقيـق د . ثـروت عكاشـة ، دار المعـــارف ، مصر ، ط . ثـــانية ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٩ م .
١٨٣) المعارف الحسينية (السيد محمد حسين آل العلامة السـيد حيـدر) المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٥٠ هـ .
١٨٤) معرفة أخبار الرجال (أبـي عمرو محمد بن عمـر بـن عبـد العـزيز الكشي ت . ح ٣٤٠ هـ) المطبعة المصطفوية بمبـي ، ١٣١٧ هـ .
١٨٥) المغنى (أبـي عبد الله أحمد بن محمد بـن قـدامة ، تـوفي ســنة ٦٢٠ هـ) ، ٩ مجلدات ، مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض .
١٨٦) المغنى في أبواب التوحيد والعدل (القاضي عبـد الجبـار بـن أحمـد المعتزلي ، توفي سنة ٤١٥ هـ) ج ٢٠ في الإمـامة ، تحقيــق د . عبــد الحليـم محمود ، د . سليمان دنيا ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مصر ، بدون تاريخ .
١٨٧) مقالات الإسلاميين واختلاف المصليين (أبـو الحسـن علـي بـن إسماعيل الأشعري ، توفي سنة ٣٢٤ هـ) ، تحقيـق هلمـوت ريتـر ، ط . ثـالثة ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م .
١٨٨) كتاب المقالات والفِرق (سـعد بـن عبـد الله أبـي خلف الأشـعري القمي ، توفي سنة ٣٠١ هـ) صححه وقدم له وعلق عليه محمد جواد مشـكور ، مطبعة حيدري ، طهران ١٩٦٣ م .
١٨٩) المقدمة في التاريخ (عبد الرحمن بن خلدون ، تـوفي سـنة ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٦ م) ، المكتبة التجارية ، مصر .
١٩٠) الملل والنحل (أبو الفتح محمد بـن عبــد الـكريم الشــهرستاني ٤٧٩ ـ ٥٤٨ هـ) تحقيق محمد سيد كيـلاني ، طبـع مصـطفى البابـي الحلبـي ١٣٧٨ هـ/ ١٩٦٧ م .
١٩١) المنار المنيف في الصحيح والضـعيف (أبـي عبـد الله محمــد بــن

أبي بكر الحنبلي المعروف بابن قيم الجوزيه ٦٩١ ـ ٧٥١ هـ) حققه وخرج نصوصه وعلق عليه عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية ط. أولى ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠ م.

١٩٢) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، توفي سنة ٥٩٧ هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، طبعة أولى سنة ١٣٥٨ هـ.

١٩٣) كتاب من لا يحضره الفقيه (أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، توفي سنة ٣٨١ هـ) صححه، علي أكبر الغفاري، مكتبة الصدوق، ١٣٩٤ هـ.

١٩٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية (ابن تيمية)، ٤ أجزاء، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.

١٩٥) المهدي بن تومرت (د. عبد المجيد النجار) دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. أولى ١٤٠٣ هـ/ ١٩٨٣ م.

١٩٦) المهدية في السودان (ب. م. هولت) ترجمة د. جميل عيد، دار الفكر العربي، ١٩٧٨ م.

١٩٧) مهذب رحلة ابن بطوطة، المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي ٧٧٩/٧٠٤ هـ ــ ١٣٠٤ / ١٣٧٧ م) تحقيق أحمد العوامري ومحمد أحمد جاد المولى، القاهرة ١٩٣٩ م.

١٩٨) الموافقات في أصول الشريعة (أبو إسحق الشاطي، توفي سنة ٧٩٠ هـ) ٤ أجزاء. دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٩٩) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، توفي سنة ٧٤٨ هـ)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية، ط. أولى ١٣٨٢ هـ/ ١٩٦٣ م.

٢٠٠) الميزان في تفسير القرآن (محمد حسين الطباطبائي) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ط. ثانية ١٣٩٣ هـ/ ١٩٧٣ م .
٢٠١) كتاب النبوات (ابن تيمية) دار الفكر ، بيروت .
٢٠٢) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي ٨١٣ ــ ٨٧٤ هـ) ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ط. أولى١٣٥٢ هـ ــ ١٩٣٣ م .
٢٠٣) نظرية الإمامة لدى الشيعة الاثني عشرية (أحمد محمود صبحي) دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ م .
٢٠٤) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (علي سامي النشار) ج ٢ ، دار المعارف ، مصر ، ط. ثالثة ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م . ج ١ ، دار المعارف ، ط. ثامنة ، ١٩٨١ م .
٢٠٥) نظام العزابة عند الأباضية الوهبية في جربة (فرحات الجعبيري) المعهد القومي للآثار والفنون ، المطبعة العصرية ، تونس ، ١٩٧٥ م .
٢٠٦) النظم الاجتماعية والتربوية عند الأباضية في شمال إفريقية في مرحلة الكتمان (عوض محمد خليفات) ط. أولى ، عمان ١٩٨٢ م .
٢٠٧) نهاية العقول (فخر الدين الرازي ، توفي سنة ٦٠٦ هـ) .
٢٠٨) نيل الأوطار من أحاديث سيد الأبرار (محمد بن علي الشوكاني ، ١١٧٣ ــ ١٢٥٠ هـ) دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٣ م .
٢٠٩) يسألونك عن المهدية (صادق المهدي) دار القضايا ، بيروت ، ١٩٧٥ م .
٢١٠) وجاء دور المجوس (عبد الله محمد الغريب) دار الجيل للطباعة ، مصر ١٩٨١ م .
٢١١) كتاب الينابيع (أبو يعقوب السجستاني) تقديم وتحقيق مصطفى غالب ، منشورات المكتب التجاري ، بيروت ، ط. أولى ١٩٦٥ م .

(ب) المراجع الأجنبية :

Encyclopedia of Islam (Shorter), Edited H.A.R. Gibb and J.H. Kramers, Leiden, E.J. Brill. 1974.

The Bohras (Asghar Ali Engineer) Vikas Publishing House, New Delhi, 1980.

The Druze Faith (Makarem, Sami Nasib), Caravan Books, Dember, New York, 1974.

فهرس الأعلام



فهرس الطوائف والفرق والقبائل

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة

رقم الصفحة

(الفصل الثالث)

(الفصل الرابع)

(الفصل الخامس)

رقم الصفحة

(الفصل السادس)

(الفصل السابع)

رقم الصفحة

(الفصل الثامن)